جين ساسون

الحرام

مغامرات حقيقية لأميرة سعودية خلف الحجاب

دار الشعلة
للنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الحرام

مغامرات حقيقية لأميرة سعودية خلف الحجاب

دار الشعلة للنشر والتوزيع
بيروت – لبنان
هاتف ٩٨٥٧٦١٢
ص.ب ١٠٩٢٢
جونية



الإهـداء

أهدي الكتاب الى جاك . وكريتش

الـذي آمن منـذ اللحظـة الاولى باهمية كتـابـة قصـة سلطانـة ، وهو الذي يعـرف المعانـاة التي تحملتها في استذكار حيـاتي مع سلطانة عن طريق اعـادة كتابتها ، كما أنه أكثـر من أي شخص آخر قدم لي دعمه وصـداقته وتعاطفه خلال الاوقات العصيبة في كتابة هذه القصة .

تنويه

بعـد أن اقتنعت بكتابـة هـذه القصة الحقيقيـة أعدت قـراءة ملاحظات وأوراق ويوميات سلطانة التي أمّنتني عليها ، وعندما بدأت في مطالعة المغامرات في حياتها المثيرة شعرت بالاثارة التي يشعر فيهـا عادة رجل المبـاحث ، لكني شعـرت بالمسـؤولية في ضرورة الابتعـاد عن كل مـا من شأنـه كشف هـويتهـا . وهكـذا فالكلمات هي كلماتي ، لكن القصة هي قصتها .

وشكـراً لك يا سلطـانـة لأنك قـررت بشجاعـة كشف قصتك للعالم ، فخطواتك الجريئة هذه ستسـاعد الغرب على فهم العرب على نحو أفضل ، فعندما تكشفين تفاصيل حياتك كامرأة عربية في أفراحها وأحزانها فإنك تقضين على النماذج السلبية التي يحملها العـالم عن شعبك . ولا شك أن قراء قصتك سيـدركون ان هنـاك شراً وهناك خيراً في آن واحد كما هو الشأن في أي مكان من العالم ، ونحن في الغـرب لم نسمع الا عن الشرور في السعـوديـة ، لكن أعرف مثلما تعرفين أنه رغم العادات البدائية التي تقيد الاناث في بلادك ، يـوجد كثير من العـربيات أمثـالك الجديرات بـاحترامنا واعجابنا لكفاحهن ضد قرون من الاحباط والاضطهاد .

مقدمة

أنا أميرة في بلاد ما زال فيها الملوك مطلقي الصلاحيات ، والأفضل ان تعرفوني باسم (سلطانة) لأني لا أستطيع الكشف عن اسمي الحقيقي لأني اذا قلت ذلك سأتعرض مع أسرتي الى ضرر كبير .

أنا أميرة سعودية ومن أسرة آل سعود المالكة ، وكوني امرأة في بلاد يحكمها الرجال . فلا أستطيع التحدث معكم مباشرة بل اني طلبت من كاتبة أمريكية وهي صديقتي جين ساسون أن تستمع الى قصتي ثم ترويها لكم .

لقد ولدت حرة ، لكني الان مقيدة بسلاسل لا مرئية ، ومنذ أن بلغت وصرت أميز الاشياء بدأت أشعر بالخوف .

ولا أذكر شيئاً عن السنوات الأربع الأولى من طفولتي كنت أضحك وألعب آنذاك كبقية الاطفال ولم أكن أدرك أن قيمتي نتيجة افتقادي لعضو الذكورة لا تساوي شيئاً في بلادي وحتى تفهموا حياتي يتعين أن تعرفوا شيئاً عن أجدادي ، ويعود تاريخنا نحن آل سعود الى ستة أجيال .. الى أيام أمراء نجد ، ونجد منطقة كان البدو يقطنونها وتشكل الان جزءاً من المملكة العربية السعودية ، وكان أولئك الرجال الاوائل من آل سعود لا يحلمون بأكثر من غزو القبائل المجاورة والاستيلاء على أراضيها وممتلكاتها وفي عام ١٨٩١ وقعت كارثة فقد تعرضت قبيلة آل سعود الى هزيمة في احدى المعارك اضطرتها للجلاء عن نجد ، كان عبد العزيز الذي أصبح جدي فيما بعد طفلاً آنذاك وبالكاد نجا من مشاق رحلة الجلاء . وكان عبد العزيز بعد أنه كبر يستذكر بخجل واحساس بالعار كيف ان والده أمره بالاختباء في حقيبة كبيرة كانت معلقة على سنام الجمل الذي يمتطيه .... بينما اختبأت شقيقته نورا في حقيبة مشابهة على الجانب الاخر من سنام الجمل ... كان طفلاً لا يستطيع القتال دفاعاً عن أرض قبيلته ... لكنه شاهد الهزيمة وأحس

بها وكانت نقطة تحول في حياته. بعد عامين من التجوال في الصحراء وجدت أسرة آل سعود ملجأ في الكويت ، كانت حياة اللجوء والهجرة قاسية على عبد العزيز لدرجة أنه أقسم منذ وقت مبكر على استعادة المنطقة الصحراوية التي كانت موطن قبيلته .

وهكذا عاد عبد العزيز في شهر أيلول ١٩٠١ وكان في الخامسة والعشرين من عمره الى نجد . وفي السادس عشر من كانون ثاني ١٩٠٢ بعد أشهر من معاناة المشاق تمكن مع رجاله من الحاق الهزيمة بأعدائه (آل الرشيد) . وفي السنوات التالية تزوج عبد العزيز أكثر من ثلاثمائة امرأة بهدف الحفاظ على ولاء القبائل البدوية في الصحراء وقد أنجب منهن أكثر من خمسين ولداً وثمانين بنتاً ، وكان أبناء محظياته يتمتعون بمركز مميز وهم الذين يديرون شؤون بلادنا الان . وكانت الزوجة المحظية لديه أكثر من غيرها هي حسا السديري . ويدير أولاد حسا الان مرافق الدولة بل ان فهد أحد أبنائها هو الملك وقد تزوج العديد من الابناء والبنات من أبناء وبنات أعمامهم وعماتهن من فروع الاسرة الاخرى مثل آل جلوى وآل تركي والكبير ... والامراء الذين يتحدرون من هذه الزيجات هم الاوسع نفوذاً الان ويبلغ عدد أفراد أسرتنا هذه الايام زهاء(٢١) ألف شخص فهم زهاء ألف أمير أو أميرة يتحدرون مباشرة من الملك عبد العزيز وأنا سلطانة واحدة من الاميرات اللواتي تتحدرن مباشرة من عبد العزيز .

ان أول ما تعيه ذاكرتي هو العنف . فعندما كنت في الرابعة من عمري صفعتني والدتي بشدة على وجهي ، رغم أنها كانت لطيفة . لقد صفعتني لأني سجدت لشقيقي علي الذي يكبرني بسنتين .... كنت أعتقد بأنه اله لأنهم كانوا يعاملونه كذلك .

ففي أسرة تتألف من عشر بنات وولد واحد ... كان الخوف هو الذي يحكم بيتنا ... كنا نخاف ان يخطف الموت الذكر الوحيد بيننا ... والخوف من أن يكون الله قد لعن بيتنا بالبنات ... وكلما كانت والدتي تحمل كانت تواصل صلواتها ودعاءها ان يرزقها الله ذكراً ثانياً ،

لكنها كانت تلد البنت تلو الاخرى حتى بلغ عددنا عشر بنات . وتحققت مخاوف والدتي عندما تزوج والدي فتاة شابة لعل الله يرزقه منها بأولاد ، وتحقق أمله ووضعت له زوجته الثانية ثلاثة أولاد ثم طلقها ... وتزوج ثالثة ورابعة حتى أصبح عنده مجموعة من الاولاد ، لكنه أخي علي هو البكر وبالتالي يكون مميزاً بين أخوانه ، وكنت مثل شقيقاتي أتصنع احترام أخي لكني في أعماقي كنت أكرهه لتميزه علينا .

وعرفت فيما بعد أن والدي تزوج من والدتي وهي في الثانية عشرة من عمرها وكان هو في العشرين وذلك عام ١٩٤٦ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسنة أي بعد ان عاد النفط يتدفق في الانابيب . والنفط هو القوة الاساسية في العربية السعودية الآن لكنه في تلك الايام لم يوفر ثروة كبرى لآل سعود .. وعلى أي حال بدأ زعماء الدول الكبرى يقدمون الاحترام للكنا حتى أن رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل أهدى الملك عبد العزيز سيارة رولز رويس خضراء اللون كانت تتلألأ كالجوهرة تحت جسمه ، لكن الملك بعد أن تفحص السيارة لم تعجبه وأهداها لشقيقه عبدالله .

وكان عبدالله عم والدي وصديقه الحميم في آن واحد ولذلك قدم له الرولز رويس حتى يسافر فيها الى جدة لقضاء شهر العسل ، وفرح والدي كما فرحت والدتي بذلك لأنهما لم يمتطيا سيارة قبل ذلك .

ففي عام ١٩٤٦ وإلى قرون خلت كان الجمل هو وسيلة المواصلات الوحيدة في الشرق الاوسط .... ومضى عقدان حتى أصبحت السيارات شيئاً مألوفاً في السعودية .

وامتطى والدي ووالدتي السيارة بسرور وقطعا الصحراء الى جدة في سبعة أيام ، لكنه وبسبب تسرعه في الانطلاق الى جدة نسي خيمته في الرياض .

كانت الرحلة الشاقة من الذكريات السعيدة لوالدتي حتى أصبحت

الرحلة بمثابة حادثة تاريخية يؤرخ بها ، فكانت تقول قبل الرحلة ... او بعد الرحلة حدث كذا وكيت . وقد أخبرتني ذات يوم بأن الرحلة كانت نهاية شبابها لأنها كانت أصغر من أن تفهم ما يخبئه الزمن لها بعد نهاية تلك الرحلة الطويلة ... وكان والداها قد توفيا من حمى وبائية وهي في الثامنة من عمرها ، ثم تزوجت وهي في الثانية عشرة من رجل قاس ولم تكن مؤهلة لأن تفعل أي شيء سوى طاعته العمياء وتحقيق رغباته .

بعد اقامة قصيرة في جدة عاد والداي الى الرياض مركز رئاسة وزعامة آل سعود كان والدي قاسياً فظاً عديم الرحمة ولذلك أصبحت والدتي امرأة سوداوية مكتئبة . وقد أنجبت (١٦) مولوداً لم يعش منهم سوى أحد عشر .

وتزوجت مثل شقيقاتي من رجال يفرضون سيطرة كاملة على المرأة أما شقيقنا الوحيد فهو أحد الامراء السعوديين المشهورين ورجل أعمال ولديه أربع زوجات وعدد من العشيقات يعيش سعيداً ومستقبله واعد .

وأنا أعرف من مطالعاتي أن ورثة الحضارات القديمة الذين حققوا تقدماً كبيراً في كافة مجالات الحياة يكنون الاحترام لأجدادهم ... ومع تقدم الحضارة يتم التغلب على الخوف من حرية الفرد بالاستنارة فالمجتمع الانساني يسعى على نحو حثيث للمعرفة والتغيير . غير أن أرض أجدادي لم تتغير منذ ألف سنة .... صحيح أن ثمة عمارات شاهقة والرعاية الصحية متوفرة على أفضل ما يكون لكن النساء لا يحظين بالاحترام ولا حتى الاهتمام .

ولا يجوز توجيه اللوم بهذا الصدد الى ديننا الاسلامي ، ورغم ان القرآن مثل الانجيل يمنح الرجل تفوقاً على المرأة . لكنه رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) كان رقيقاً وعادلاً في معاملة نسائه ، وأتى بعد ذلك بعض الخلفاء وقرروا العودة بالمرأة الى تقاليد العصور المظلمة ولم يتخذوا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) قدوة في

معاملة المرأة ... لقد استنكر رسولنا وأد البنات وهي العادة التي كانت مثبتة في زمانه ، وكان يحث صحابته على الرفق بالنساء والاحسان في معاملتهن .

ومع ذلك فإن الرجال في هذه البلاد يفعلون كل شيء لانجاب الذكور وليس الاناث ان قيمة الطفل الوليد في السعودية تتوقف على امتلاكه لعضو الذكورة .

وفي بلادي يتعلق شرف الرجل بنسائه وبالتالي ينبغي فرض سيطرته الجنسية على نسائه حتى ولو لم تكن لديهن رغبة بذلك ، وهذه السيطرة المطلقة للرجل على المرأة ليس لها أي علاقة بالحب ... وإنما الخوف من أن يتلطخ شرف الرجل .

وسلطة الذكر السعودي مطلقة .... فلا تعيش زوجته أو أطفاله الا إذا رغب في ذلك ... فالسعودي في بيته هو الدولة ، ويبدأ هذا الوضع المعقد منذ حضانة أطفالنا ويتم تلقين الطفل الذكر منذ وقت مبكر أن لا قيمة للمرأة وأن النساء موجودات لخدمته وراحته فقط ... ويلاحظ الطفل سوء معاملة والده لوالدته وشقيقاته وهذا ما يؤدي مع الزمن الي كراهيته أو احتقاره لكافة النساء وبالتالي استحالة مصادقته لفتاة ولا يعود يفكر الا بسلوك السيد مع العبد اوعندما يبلغ سن الزواج ويتزوج فإنه يعتبر زوجته تابعة له وليست شريكة له . وهذا أمر طبيعي نتيجة التربية .

وهكذا فإن المرأة في بلادي هي موضع تجاهل من والدها واحتقار من أشقائها ومن زوجها أيضاً ، وهي دائرة يصعب كسرها ، لأن الرجال الذين يفرضون هذا النمط من الحياة على نسائهم لا يضمنون سوى حياة زوجية بائسة ، إذ كيف يشعرون بالسعادة وهم محاطون بمثل هذه التعاسة ؟ ولذلك يحاول الرجال في بلادي تعزية أنفسهم والتسلية بالزواج من امرأة تلو امرأة أو اتخاذ عشيقة تلو

أخـرى ... ولا يحاول رجـال بلادي ادراك حقيقـة أنهم يستطيعـون الحصـول على السعـادة في بيـوتهم إذا عـاشـوا مع زوجـة واحـدة وأشعروها بالاحترام ... لكن لأنهم يعاملون النساء كالعبيد أو الملكية الخاصة أصبحوا تعساء كالنساء اللواتي ، يسيطرون عليهن وجعلوا الحب الحقيقي والرفقة وسكن النفس الى النفس أشياء مستحيلة لكلا الجنسين .

ان تاريخ نسـائنا مدفـون خلف حجاب من السريـة والتكتم ، فلا أحـد يسمع بميـلادنـا أو موتنـا ، بينما يتم تسجيل وتـوثيق ميـلاد الذكـور .... وعادة ما يشعـر أفراد الاسرة بالحزن الممـزوج بالخجل لدى ولادة أنثى . ورغم تـزايد تسجيل الولادات في المستشفيـات فان معظم الـولادات تتم في المنازل . ولا تقـوم الحكومـة السعوديـة بأي احصاء كما أنها لم يسبق أن قامت بإحصائهم .

وكنت أتساءل كثيراً هل يعني هـذا أننا معشر النسـاء في الصحـراء ليس لنـا وجود إذا كـان ولادتنـا ووفاتنـا تتمان دون أي تسجيل أو توثيق ؟ وإذا كان الناس لا يعرفـون بوجودي فهل يعني هذا أني غير موجودة ؟

ان هـذه الحقيقة المرة هي التي دفعتنـي للمخاطـرة بسرد قصتي أكثـر من المظـالم التي عـانيتهـا في حياتي ، فـالنسـاء في بـلادي يتم اخفاؤهن خلف حجـاب والسيطرة عليهن بحزم في مجتمعنـا الابوي الذكوري ، لكنه لا بد أن يأتي التغيير ، لأننا نشعر بالارهاق من قيود التقاليد والعادات ونتوق الى حريتنا الشخصية .

ومن ذكرياتي المبكرة ويومياتي التي كنت أكتبها سراً منذ أن بلغت الحادية عشرة سأحاول أن أصور لكم حياة أميرة سعودية ، والكشف عن طبيعة حيـاة السعوديات الاخـريات .... ملايين النساء العـاديات اللواتي لم يلدن في أسرة آل سعود الملكية .

وسأكـون صـادقـة جداً لأنني امـرأة تعرضت للتجـاهل من قبل والـديها وعدم الاحترام من أشقـائها والاهـانة من زوجهـا ، ولست وحيدة في هـذه المعانـاة ... فهناك الكثيرات اللـواتي لم يتح لهن سرد قصص حياتهن .

ومن النـادر أن يستقر الصـدق في قصر سعودي ، لـوجود كميـة كبيرة من الاسرار في مجتمعنـا ، لكنه مـا سجلتـه في هـذا الكتاب هـو الصدق وهو الحقيقة .

الطفولـــة

صفعني علي بشدة وأوقعني أرضا لكني رفضت إعطـاءه التفاحة الحمراء التي اعطاني اياها الطاهي الباكستاني وبدت ملامح الغضب على وجهـه بينما واصلت قضم التفـاجة وازدرادهـا بسرعـة. ولأنـي رفضت الاذعان له كنت قد ارتكبت بذلك عملا فظيعاً ومشيناً وكنت أعر ف بأني سأتعرض للعقاب.. وهجم عليّ عليّ مرة أخرى ورفسني بقدمه ثلاث مرات ثم خرج يبحث عن سائق والدنا وهو رجل مصري أسمـه عمر، وكـانت شقيقاتي يخشين من عمـر كخشيتهن من علي ومن والدنا ولذلك سارعن الى الاختفاء داخل الفيلا وتركنني لوحدي أواجه غضبة الرجال في المنزل.

بعد لحظات أتى علي برفقـة عمر وكنت أعرف بأنهما سينتصران، فقد تعلمت ذلك من حوادث سابقـة رغم صغر سني.. كنت أدرك منذ بواكير طفـولتي ضرورة تنفيذ رغبـات علي ومع ذلك واصلت قضم التفاحة حتى اكلتها كلها ونظرت الى أخي بزهو واحساس بالأنتصار.

وحملني عمر بيـديه الغليظتين ألى مكتب والدي فـرمقني بازدراء واحتقار بينما فتح ذراعيه لابنه الكبير الذي هو بمثابة كنزه.

وطلب والـدي من علي ان يتحـدث بينما منعني من الـرد عليـه أو مقاطعته ولأني شعرت بسخط شديد من موافقة والدي على كل كلمة قالها علي تولدت في اعماقي شجاعة مفاجئة، ولأن المرأة في مجتمعنا لا يحق لها حتى الحديث إلا بعد موافقة الرجل بل إننا نتعلم منذ الطفولة ضرورة المداورة والابتعاد عن المجابهة مع الرجل.

لقد شعرت بخوف شديد وأنا اسمع صوتي وصراخي وارتعشت ساقاي تحت جسدي عندما نهض والدي من كرسيه وشاهدت حركة ذراعه لكني لم أشعر بالصفعة.

وكعقاب لي تـم أعطاء علي كافـة العابي، وحتى يعلمنـي والدي أن

الرجال هم أسيادي أتخذ قراراً بمنح علي حقاً استثنائياً بملء صحني بالطعام كما يحول له عند تناولنا الطعام. وكان علي يضع في صحني كمية صغيرة من الطعام وقطعاً صغيرة من اللحم، وكنت أذهب للنوم، في كل ليلة وأنا أشعر بالجوع. ووضع علي حارساً على باب غرفتي وأمره بمنع تقديم أي طعام لي سواء من قبل والدتي أو شقيقاتي. وكان شقيقي يزيد في إيذائي عندما يدخل غرفتي في منتصف الليل حاملاً صحوناً ملأى باللحم والفراخ والأرز حتى أشم رائحتها ويزداد جوعي.

واخيراً توقف علي عن تعذيبي، لكنني منذ ذلك الوقت وكان في التاسعة من عمره أصبح عدوي اللدود، ورغم أن عمري لم يتجاوز السابعة آنذاك فقد أدركت بعد (حادثة التفاحة) بأنني أنثى.. أي لا احظى باحترام الذكور، وكنت ألاحظ أنكسار أرواح أمي وشقيقاتي، لكني بقيت أومن بالتفاؤل وكنت على قناعة بأنني سأنتصر ذات يوم وبأني سأعوض الظلم الذي تعرضت له، ومع هذا التصميم منذ الطفولة أصبحت بمثابة مشكلة الأسرة.

كان ثمّة أوقات سارة وبهيجة في طفولتي أيضاً، وكنت أقضي أفضل الساعات في بيت عمة والدتي العجوز التي ترملت وكانت لا تحظى بأي أهتمام من الرجال وبالتالي كانت مرتاحة وتشعر بالبهجة وتروي لنا قصصاً عن طفولتها والمعارك القبلية التي عايشتها، فقد شهدت ميلاد دولتنا وكثيراً ما حدثتنا عن شجاعة الملك عبدالعزيز وأتباعه.. وكنت مع شقيقاتي نجلس على سجاد شرقي ثمين ونتناول الحلويات المصنوعة من التمور ونغرق في دراما القصص التي ترويها لنا وشجاعة آل سعود في المعارك.

وكانت عائلة والدتي قد رافقت قبيلة آل سعود عام ١٨٩١ عندما غادرت الرياض بعد هزيمتها على أيدي آل الرشيد . وبعد عشر سنوات عاد عدد من أفراد أسرة والدتي مع عبدالعزيز لاستعادة الارض وكان خال والدتي قد حارب إلى جانب عبدالعزيز. وكان من

شأن هذا الاخلاص والـولاء أن ضمن دخول أسرة والدتي في الأسرة المالكة عن طـريق التزواج المتبـادل وهو مـا أعد المسرح لأن أصبح أميرة.

في طفـولتي كان لأسرتي بعض الأمتيـازات لكنهـا لم تكن ثريـة، فالدخل من النفط كان يضم وفرة الطعام والرعاية الصحية، وكانت هذه الأمور في ذلك الوقت تعتبر في منتهىً الرفاهية.

كنا نعيش في فيـلا ضـخمة بيضـاء اللون، لكن العواصـف الرملية كانت تحول لـون الفيلا كل عام إلى لون الكـريما «بيج» وكان الخدم يسارعون إلى طلاء الفيلا بـاللون الابيض. وتحيط بالفيلا سور يبلغ ارتفاعـه زهاء ثـلاثين قدمـا.. كانت الفيـلا بشكل عام منـزلاً بمعنى الكلمة حتى بالمقاييس والمعايير الغربية لكنها تعتبر هذه الايام مقارنة بقصور الامراء السعوديين سكناً بسيطاً.

وكطفلة كنت أشعر ان منزل اسرتنا كبيرٌ جـداً لكن ممراته مظلمة تتناثر على جانبيها الغرف من كـافة الاشكا لوالمساحات تخفي أسرار حياتنا كان والدي وشقيقي علي يعيشان في القسم المخصص للرجال في الطـابق الثـاني. وكثيراً مـا كنت أتسلل واتلصص نتيجـة حب الأستطلاع لأرى ما في الطابق الثاني.. كان ثمة ستائر مخملية حمراء على النـوافـذ تحول دون اشعـة الشمس ورائحـة التبغ التركي والـويسكي تنبعث في الجو.. كنت أسترق النظـر إلى الطـابق الثـاني وأعود بسرعة الى الطـابق الأول المخصص للنساء حيث كنت أقيم مع شقيقاتي في جنـاح كبير... وكانت الغرفة التي أشـارك فيها شقيقتي ساره تطل على الحديقـة المخصصة للنساء.. أما الوالـدة فكانت تطلي غرفتها بلون أصفـر وهو ما يفضي عليها حيوية وبهجـة غير متوفرة في الغرف الاخرى.

أمـا الخدم والعبيد فكـانوا يعيشـون في غرف ضيقـة لا يدخلهـا الهواء في آخر الحديقة.. وبينما كانت الفيـلا مكيفة كانت غرف الخدم جحيماً في الطقس الصحراوي خـاصة في الصيف... وما زلت أتـذكر

الخدم الأجانب والسواقين وهم يتحدثون عن معاناتهم الشديدة من الحر عندما ينامون، ذلك ان عمل المرواح في غرفهم كان يقتصر على تحريك الهواء الساخن. أما الوالد فكان يقول إنه إذا وضع مكيفات في غرفهم فانهم سيناموَن طوال النهار بالأضافة الى الليل.

والسائق المصري عمر هو الوحيد الذي كان يعيش في غرفة صغيرة في الفيلا. وكان ثمة حبلٍ ذهبي معلق في المدخل الرئيسي للفيلا.. والحبل مربوط بجرس في غرفة عمر.. وعندما كان والدي يحتاج عمر يستدعيه بواسطة قرع الجرس، فاذا قرع الجرس هب عمر وافقاً واسرع نحو غرفة والدي. وأنا أعترف بأني كثيراًما قرعت الجرس بواسطة شد الحبل الذهبي لأيقاظ عمر ثم أهرب مسرعة إلى غرفتي وأتظاهر بالنوم سواء في النهار أو الليل، وكنت بذلك ازعج عمر وقد اكتشفتني والدتي ذات يوم ووبختني على فعلتي وفركت أذني وهددتني باخبار والدي ولكنها لم تفعل.

ومنذ أيام أجدادي كنا نملك أسرة من العبيد، وكان عبيدنا يزدادون عدداً كلما يعود والدي من الحج حيث يحضر معه عدداً من العبيد الأطفال ذلك ان الحجاج من نيجيريا وغيرها من الدول الافريقية كانوا يبيعون اطفالهم في مكة إلى الاثرياء السعوديين حتى يتحملوا نفقات رحلة العودة إلى بلادهم، لكن والدي لم يكن يعامل عبيده كما كان الشأن في أمريكا قبل تحرير العبيد بل كان العبيد يشاركون في حياة المنزل وفي أعمال والدي كرجال عاديين.. وكان أطفال العبيد زملاء لنا ولا يشعرون بأنهم دوننا.

وعندما اصدرت الحكومة قراراً بتحرير العبيد عام ١٩٦٢ بكى عبيدنا وتوسلوا الى والدي أن يحتفظ بهم، والحقيقة أنهم ما زالوا يعيشون في منزلنا حتى يومنا هذا.

لقد حافظ والدي على ذكر ملكنا المحبوب عبدالعزيز، وكان يتحدث عنه وكأنه يراه كل يوم، وقد دهشت وأنا في الثامنة من عمري عندما علمت أنه توفي عام ١٩٥٣ أي قبل ثلاث سنوات من ولادتي.

بعد وفـاة ملكنا الأول واجهـت بلادنــا خطرا حقيقيـا لأن خليفته وولي عهده وهو ابنــه البكر في الوقت نفسه «سعـود» كان يفتقر الى مؤهلات ومواصفات القيـادة، فقد أسرف في بناء القصور وبدد دخل البلاد من الثروة النفطية كما انفـق الكثير على السيارات والمجوهرات لأرضـاء زوجاتـه وكانت النتيجـة أن المملكة انـزلقت نحو فـوضى سياسية واقتصادية.

وأذكر أن ذكـور الاسرة المالكة أجتمعوا ذات يـوم في منزلنـا عام ١٩٦٣ وكنت شديدة الفضول في ذلك الوقت واذكر كيف أن عمر دخل من باب الحديقة ذلك اليوم وصاح بصوت عال بأنه يتعين على النساء في البيت الصعود إلى الطـابق الثاني. كـان يلوح بيديـه وكأنه يحاول طرد وحوش البيت.. المهم صعدنا إلى الطابق الثاني واجتمعنا في أحد الصـالــونـات. وطلبت شقيقتي ســارة مـن والـدتي أن تسمح لها بالاختبـاء على الشرفة العـرفية حتى ترى حكـامنا وهم يـدخلون الى منزلنا.. ومع أننا كنا نرى من حين لآخر أعمامنا وأخوالنا الأقوياء في بعض المناسبـات، غير أن أي واحدة منـا لم تحضر اجتماعاً ذكـورياً مهماً يبحث شؤون الـدولة. وكـانت البنت عندمـا تصل سن البلوغ تتحجب وبـالتـالي تنقطع عن الـذكـور الآخـرين باستثنـاء الـوالـد والاشقاء.

وكانت حياتنـا مملة ومقيدة حتى أن الوالـدة كانت تشفق علينا... وفي ذلك اليـوم أنضمت الينـا في الشرفـــة لاستراق النظـر من خـلال الشرفة والاستماع إلى مـا يقولـه الرجـال في قاعـة الأستقبال الكبيرة تحتنا، وبصفتي الصغيرة جلســت في حضن والدتي ووضعت يـدها على فمي كنوع من الاحتراس.. فلو شـاهدنا والدي لغضب كثيراً على فعلتنا تلك لقد اسرني مع شقياتي ذلك المشهـد.. طابور طويل يتألف من أشقـاء وأبناء وأحفاد الملـك الراحل.. رجـال متقدمـون في العمر بدشـاديش بيضاء وتجمعوا بهدوء وكبريـاء وجدية، وأكثر مـا أثار اهتمامنـا وجه ولي العهـد فيصل النحيف... واعتقـدت بأنه حـزين

ويحمل هموماً كثيرة. وفي ذلك العام ١٩٦٣ كان كل السعوديين يعرفون بأن الأمير فيصل هو الذي يدير البلاد فعليا، وكان ثمة تهامس بأن حكم سعود هو مجرد رمز لوحدة العائلة، وكان ثمة شعور بأنه تركيب شاذ وغير طبيعي سواء للأمير فيصل أو للبلاد وأنه لا يجوز استمرار ذلك.

وانتحى الامير فيصل جانباً عن المجموعة وارتفع صوته الخافت وطلب السماح له بالحديث عن شؤون في منتهى الاهمية لأسرة آل سعود والبلاد.. وكان الأمير فيصل يخشى ضياع العرش. وقال إن الشعب ضاق ذرعاً بتجاوزات الأسرة المالكة.. وأن حديث الناس لا يقتصر على ضرورة أقصاء سعود عن العرش بسبب مباذلة وأسرافه بل والتخلص من أسرة آل سعود واختيار رجل صالح لقيادة البلاد.

ونظر الأمير فيصل بارتياب إلى الامراء الشبان يتنعمون بالعيش على مخصصاتهم الشهرية من الثورة النفطية. وخيم صمت ثقيل وهو ينتظر تعليقات أشقاءه واقاربه الآخرين، ولم ينبس احدهم بكلمة. فمضى يقول إنه لو كان يشرف على الثورة النفطية فأنه سيقطع مخصصات الامراء وينيط بهم بعض الوظائف والتفت إلى شقيقه محمد وجلس بعد ان زفر زفرة طويلة.. ولاحظت من الشرفة أن بعض الأمراء الشباب بدأوا يتهامسون فيما بينهم. ومع أن المخصصات الشهرية للأمير كانت عشرة آلاف دولار على ألاكثر فقد اثرى الامراء السعوديون وعلى نحو متزايد من الاراضي.. فالعربية السعودية دولة واسعة المساحة ومعظم الاراضي تملكها اسرتنا هذا فضلاً عن ان العقود لا توقع مع الحكومة ألا بعد توزيع مبالغ مالية على الأمراء.

عند ذلك بدأ الأمير محمد وهو ثالث شقيق حي من حيث العمر في الحديث، ومما سمعناه أدركنا ان الملك سعود يصر الآن على استعادة سلطته المطلقة التي جرد منها عام ١٩٥٨.. وكان ثمة أشاعة بأنه

يتجول في المملكة ويهاجم شقيقه فيصل.. كانت لحظة حرجة للأسرة السعودية لأن أفرادها كانوا يظهرون تماسكاً ووحدة راسخة فيما بينهم أمام مواطني المملكة.

وأذكر عندما روى والدي لنا الحقيقة عن سبب أستثناء محمد الذي يلي فيصل في العمر من ولاية العهد. ذلك أن الملك الراحل عبدالعزيز كان يعرف بأن ابنه الثالث محمد عصبي المزاج وأنه اذا حكم ستسيل دماء كثيرة.

وركزت اهتمامي على الأجتماع وسمعت الأمير محمد يقول أن النظام الملكي نفسه في خطر ثم أقترب من صلب الموضوع وهو أمكانية الأطاحة بالملك سعود بالقوة وتنصيب فيصل بدلاً عنه، وصرخ فيصل بصوت مرتفع فجمد محمد في مكانه.. وبدأ فيصل الحديث بصوت هادىء وكأنه كان يبكي واخبر أقاربه بأنه تعهد لوالده على فراش موته بأنه لن يعارض حكم أخيه أطلاقا. وانه لن ينكث بوعده حتى ولو أوصل الملك سعود البلاد الى حالة الافلاس.. وأضاف بأنه اذا كان هدف الأجتماع هو الاتفاق على الأطاحة بسعود فأنه سينسحب من الأجتماع.

وسرت الهمهمات بين الأمراء واتفقوا على أن يقوم محمد وهو الأبن الثالث بعد سعود وفيصل بالتحدث مع الملك سعود واقناعه بالحسنى. وكنا نراقب الأمراء وهم يحتسون القهوة ويقسمون الأيمان على التمسك برغبة والدهم في أن يجابه أبناء عبدالعزيز العالم كقوة واحدة لا أنشقاق فيها. ثم بدأوا يودعون بعضهم ويغادرون الغرفة بانتظام كما دخلوها.

ولم أدرك آنذاك أن ذلك الأجتماع كان بداية نهاية حكم عمي الملك سعود.. وتتالت الاحداث بعد ذلك وراقب مواطنونا وأفراد أسرتنا بحزن كيف أن أبناء عبدالعزيز اضطروا لإبعاد احد أشقائهم عن بلاده. فقد شعر عمي سعود باليأس لدرجة أنه أرسل في النهاية تهديدا لشقيقه الأمير فيصل.. وقد قرر تصرفه هذا مصيره لأن

العرف لا يجيز ولا يسمح لشقيق بأهانـة أو تهديد شقيقه. فالقوانين البدوية غير المدونة لا تحترم أي شخص يقف ضد شقيقه.

واندلعـت أزمة حادة في الأسرة والبلـد، وعلمنا بعـد ذلك أن عمي سعـود حاول إشعـال ثورة في البـلاد لكن ولي العهد فيصل بحنكتـه قضى على الفتنـة قبل اشتعالها. ثم قـرر أن يترك الموضوع لأشقـائه ولعلماء الـدين حتـى يقـرروا العمل المنـاسـب الـذي ينبغي أتخاذه للحفاظ على دولتنا الفتية.

بعـد ذلك بيـومين عرفنـا بتنـازل سعود عن العـرش من أحـدى زوجاته، وكان والدنا بعيدا عن البيت آنذاك مع أشقائه وابنائهم. وقد أتت أحدى بنات أعمامنا «وكانت متزوجة من سعـود» إلى منزلنا وهي في حالـة غير طبيعية وأزالت قناعهـا عن وجهها أمام الخدم الـذكور.. كانت قد وصلت لتوها من قصر الناصرية الصحراوي الذي بناه عمي سعود وانفق عليه أموالاً طائلة.

تحلقت مع شقيقاتي حـول الوالدة.. وكـانت عمتنا تصرخ وتكيل الاتهامات للأسرة خاصة لـولي العهد فيصل الذي اتهمته بأنه السبب في هذه الأزمـة وورطة زوجها سعـود.. واخبرتنا بأن أشقـاء زوجها تآمـروا لسرقة العرش الذي منحـه عبدالعزيز لابنـه المفضل سعود، وانهالت دموعهـا وهي تروي لنـا كيف أن مجلس العلماء وصلوا إلى القصر في الصباح البـاكر وأبلغـوا زوجها بضرورة التنحـي والتنازل عن العرش.

وأثارني المشهد. لأننا نادراً مـا كنا نشاهد مجابهات في مجتمعنا.. فطبيعتنا أن نتحـدث بهدوء وأن نتفق مع الذين نتحـدث معهم وبعد ذلك نعالج الصعوبـات بأسلوب سري.. وعندما بـدأت عمتنا وكانت جميلة جـداً بجدائل سـوداء طويلـة تنزع شعـرها وتتلف سـلاسل الـلآلىء الثمينة حـول عنقهـا أدركت ان الوضع خطير جـدا.. واخيراً أستطاعت والدتي أن تهدىء من روعها وتـرافقها إلى غرفة الجلوس لاحتسـاء الشـاي . واجتمعت شقيقـاتي عند بـاب الغـرفـة يحاولن

استراق السمع إلى الهمسات، بينما قمت انا بأزالـة كتل الشعر وبدأت أجمع حباب اللؤلؤ ووضعتها في فازة فارغةفي الممر.

وسارت الـوالدة مع عمتنا التي لم تتوقف عن البكـاء إلى سيارتـها المرسيدس السوداء، وقـاد السائق السيارة بسرعة فـائقة في محاولة لتعزية سيدته، ولم نشاهد عمتنا مرة أخرى لأنها رافقت عمنا سعود وحـاشيته إلى المنفى، وبصحبتنـا والدتنـا بعـدم الاستياء من عمنـا فيصل وابلغتنـا بأن عمتنـا تفـوهت بتلك الكلمات ضـد فيصل لأنها تحب زوجها الملك سعود، لكن سعود لا يصلح للحكم بالضرورة. وأن عمنا فيصل سيسير بـالبلاد الى شاطىء الأستقرار والأزدهـار وأنه لذلك موضع سخط الفاشلين ومع ان والدتنا ليست متعلمة بالمعايير الغربية لكنها كانت حكيمة ومدبرة وعاقلة.

الاســـرة

استطاعت والدتي بتشجيع من زوجة الملك فيصل «عفت» ان تعلم بناتها رغم مقاومة والدنـا... كان والدي طيلة سنـوات يرفض حتى الحديث في هذا الشأن، ولم تتلق شقيقاتي الخمس الكبريات أي تعليم باستثناء حفظ القرآن على يد معلمـة مصرية كان تأتي الى بيتنا واسم المعلمة فاطمة في الخامسة والاربعين من عمرها.

وقد طلبت فـاطمة من والدي السماح لها بتعليم شقيقـاتي العلوم والتاريخ والرياضيات لكن والدي رفض ذلك بحزم.

ومع مـرور الزمن شاهـد والدي كيف ان الكثير مـن الاسر الملكية صاروا يسمحـون لبناتهن بالتعلم. ومـع تزايد الثـروة النفطية التي وصلت الى كل بيت انتعشـت النسـاء السعـوديـات وصرن يفضلن الراحة والكسل باستثناء البدويـات والفلاحات في القرى فانتشر الملل والضجـر واصبحا مشكلـة وطنية..وكـان من شأن الثروة النفطيـة استقـدام الخدم للسعـوديين من الشرق الاقصى والاقطـار الفقيرة.. واصبح ثمة خدام في كل بيت سعودي تقريبا.

أن كافة الاطفال يحتـاجون الى ما يحفزهم وينشط تفكيرهم لكني مع شقيقتي كنا لا نجد ما نفعلـه سوى اللعب في الغرف او في حديقة النساء... ولم يكن ثمـة مكان نذهـب اليه او شيء نفعله. وعنـدما كنت طفلة لم يكن في السعودية لا منتزه ولا حتى حديقة حيوانات.

وشعرت والـدتي بالضجـة من بناتها الصغيرات الخمـس وكثرة شقاوتهن وفكرت بأن المدرسة ستريحها منا من جهة وتوسع عقولنا ومداركنا من جهة اخرى، واخيراً استطاعت الوالدة مع عمتنا عفت من اقنـاع والدنـا بوضعنـا في المدرسـة. وهكذا تمت الموافقـة على تعليم الخمس بنات الصغيرات في الاسرة بما في ذلك انا وسارة.

كان صفنـا الاول في منزل احـد اقربائنـا الامراء. لقـد استخدمت سبع اسر سعوديـة إمرأة شـابة من ابـو ظبي احدى مـدن الامارات العربية المتحدة.. وكنا جميعا (١٦) تلميذة نجتمع يوميا في بيت قريبنا الامير منذ التـاسعة صبـاحا حتى الثـانية بعد الظهـر باستثنـاء يوم الجمعة.

وفي منزل قـريبنا اظهـرت شقيقتي سارة ذكـاء ملحوظـا.. كانت اسرع في فهم الـدروس حتى من البنات الاكبر منهـا سنـا لدرجـة ان المعلمة سألتهـا ما أذا انهت المرحلـة الابتدائيـة ودهشت جدا عنـدما علمت بأن سارة لم تتلق اي تعليم الا في ذلك الصف.

كـانت معلمتنـا محظـوظـة لان والـد عصري التفكير أرسلهـا الى بريطانيا حتى تتعلم، ولأن قدمها مشوهة لم تجد من يتزوجها ولذلك اختارت طريق الحرية والاستقـلال، وكانت تبتسم وهي تخبرنا بأن قدمها المشوهة هبة من الله لأن عقلها لم يتشوه ايضا. ومع انها كانت تعيش في بيت قـريبنا الامير «فمـن غير المعقول ولا المقبـول ان تعيش أمرأة لوحدها في السعودية»كانت تتلقى راتبا شهريا وتتخذ قراراتها بنفسها دون أي تأثير خارجي.

لقد احببتها ببساطة لأنها كانت لطيفة وصبورة عندما كنت انسى القيام بواجبـاتي المدرسية.. فأنا بعكس سارة ليست بـذلك النموذج المدرسي. وكنت أشعر بالسعادة لأن المعلمة كانت صبورة ولا توبخني على تقصيري . وكـان جلّ اهتمامي يتركـز على الـرسم اكثـر من الـرياضيـات وعلى الغناء اكثـر من الصلاة.. وكـانت سارة تلكـزني احيانـا عندمـا أسيء التصرف.. والحقيقة ان اسـم معلمتنا الظبيـانية ينطبق على شخصيتها فأسمها (سكينة) وكانت في السابعة والعشرين من عمرها.

وذات يـوم ابلغت سكينـة والـدتنا بأن سـارة هي اذكى طـالبـة شاهدتها، وبعد أن قفزت هنـا وهناك وصرخت متسائلة (وماذا عني أنا؟) فكرت لحظة قبل ان تجيب بابتسامة حلوة: «ولا شك ان سلطانة

ستصبح شهيرة ايضا».

وعند العشاء اخبرت والدتي والدي بشيء من الزهو ما قالته المعلمة عن سارة، وسر والدي بذلك وابتسم لسارة وهو ما ابهج والدتي لكن بهجتها لم تدم لأن الوالد سرعان ما تساءل كيف يمكن للبنات ان يكتسبن الذكاء منها.. بل أنه لم يعز ذكاء علي الى الوالدة وكان علي متفوقا على صفه في المدرسة الثانوية، وكان والدي بذلك يشير بأن الذكاء في الاسرة موروث عنه ومنه وليس من والدتنا.

وما زلت حتى الان اشعر بالاستياء عندما أراقب شقيقاتي الاكبر وهن يقمن بعمليات الجمع او الطرح كما أني لا أشعر بالعرفان لعمتي عفت لأنها غيرت حياة الكثيرات من السعوديات.

كان عمنا الملك فيصل قد سافر إلى تركيا في صيف عام ١٩٣٢ وهناك وقع في غرام شابة اسمها عفت الثنيان. فعندما سمعت عفت ووالدتها بأن الامير السعودي الشاب في زيارة الى استانبول اتصلن به حول ارض متنازع عليها تعود لوالدها المتوفي.

(وعائلة الثنيات سعودية الاصل لكنها استوطنت تركيا اثناء الحكم العثماني) وصعق فيصل بجمال عفت ودعاها مع والدتها الى السعودية لتسوية مسألة الارض. ولم يكتف باعادة الارض لها بل انه تزوجها وكان يقول ان زواجه منها هو افضل قرار اتخذه في حياته.. وقد اخبرتنا والدتي بأن فيصل كان ينتقل من إمرأة الى اخرى حتى تزوج عفت.

وخلال السنوات التي حكم فيها عمي فيصل كانت عفت القوة المحركة وراء حركة تعليم البنات، ولولا جهودها لما كان هناك طالبات في مدارس السعودية وكنت معجبة بشخصيتها القوية وقررت ان اصبح مثلها، بل أن الجرأة وصلت بعفت لدرجة استخدام حاضنة انكليزية لاطفالها.. كما ان عفت بعكس كافة نساء الامراء لم تتأثر بالثروة الهائلة.

وللاسف انساق الكثير من الامراء وراء الثروة المفاجئة وبعضهم غادر البلاد وكانت والدتي تقول ان البدو حافظوا على البقاء في الصحارى الفارغة لكننا قد لا نحافظ على بقائنا وسط هذه الثروة الفاحشة التي وفرها النفط. ذلك ان معظم الامراء السعوديين الشباب لا يقيمون الشعائر الدينية ولا يتمسكون بتقاليد الاباء والاجداد.. وأنا اعتقد أن أبناء هذا الجيل أفسدوا انفسهم بالحياة السهلة الراغدة، كما أن ثوراتهم الفاحشة اقعدتهم عن كل طموح. ولا شك ان ضعف نظامنا الملكي يعود الى ادماننا على التبذير والاسراف على نحو غير مسبوق واخشى ان يقودنا ذلك الى الهلاك.

لقد امضيت معظم طفولتي اسافر من مدينة الى أخرى في بلادي فالدماء البدوية تسري في عروق كافة السعوديين، وكنا عندما نعود الى البيت من رحلة نتحدث ونخطط للرحلة التالية.. فنحن في السعودية لم نعد نهتم بالماشية والمراعي لكننا نحن الى السهول الخضراء.

ومع ان الرياض هي العاصمة ومركز الحكومة لكن الامراء السعوديين لا يحبون الاقامة فيها طويلا يعتبرونها مدينة كئيبة وموحشة لانها حارة وجافة ويكثر فيها رجال الدين وتكون الليالي باردة عادة.و لذلك كان معظم افراد الاسرة يفضلون جده او الطائف.. فميناء جدة اكثر اعتدالا وحداثة وكنا هناك نتنفس هواء البحر العليل.

كنا نقضي اشهر الشتاء عادة في جدة ونعود الى الرياض في اول الربيع اي في شهر آذار ونبقى فيها حتى اول الصيف حيث ننتقل الى الطائف لقضاء اشهر الصيف وبعد ذلك نعود الى الرياض لقضاء الخريف، وكان من الطبيعي ان نمضي شهر رمضان واسبوعين من موسم الحج في مكة المكرمة.

في عـام ١٩٦٨ زادت ثروة والـدي بشكل كبير وكان أقل اشقـائه وابنـاء اعمامه اسرافـا وتبـذيرا، لكنـه بنى اربعـة قصور فخمـة في الرياض وجـدة والطائف وأسبانيا، وكـانت القصـور تصميما واحدا واثاثـا واحدا بما في ذلـك لون السجـاد والجدران والاثاث.. فـوالدي يكره التغيير وكان يحب الاحساس انه في نفس البيت حتى لو طار مع عـائلته من مـدينـة الى اخـرى.وأذكر كيف انـه طلب من والـداتي ان تشـتري اربعة قطع من كل شيء بما في ذلـك ملابس الاطفال الـداخلية وذلك حتى لا تتغلب الاسرة في حمل الحقـائب.. وهكـذا كنت عنـدمـا أدخل إلى غرفتيّ في جدة او الطائف اجـدهما لا تختلفان عن غرفتي في الرياض ونفس الملابس معلقـة في نفس الخزائن، حتى كتبي والعابي كانت أمي تشـتريها اربعة اربعة، لتوزيعها على القصـور الاربعة.

ونادرا مـا تذمرت امي، لكـن عندما اشترى والـدي اربع سيارات حمراء من طراز «بورش» لشقيقي عليّ الذي كان في الرابعة عشرة من عمره آنذاك احتجـت والدتي وقالت ان ذلك اسراف وتبذيـر يدعو الى الخجل خـاصة وان العـالم مليء بـالفقراء.. وكـان والدي لا يعـرف التوفير في كل مـا يتعلق بعلي. فعندما كان في العـاشرة من عمره تسلم اول ساعة رولكس ذهبية وشعرت بالغيرة والاستياء من ذلك وطلبت من والدي ان يشتري لي طوقا ذهبيا لكنه لم يلب رغبتي.

وبعد اسبوعين تقريبا شاهدت سـاعة علي الذهبية على مائدة قرب البركة فتأججت غيرتي وحطمت الساعة بحجر حتى تناثرت قطعا على الارض.

ولحسن الحظ لم يكتشف احد فعلتي. بل ولم يشككوا فيّ وشعرت بسرور كبير عندما شاهدت الوالد يوبخ علي على اهماله وعدم اهتمامه ومحافظته على ممتلكـاته، لكن الوالـد على اي حال قام بشراء سـاعة ذهبيـة اخرى وقـدمها لعلي بعـد اسبـوع او عشرة ايام من الحادثـة فزادت غيرتي وتحولت الى ما يشبه غريزة الانتقام.

كانت الوالدة كثيرا ما توبخني بسبب كراهيتي الواضحة لشقيقي.. ولأنني كنت اصغر البنات سنا فقد كانت والدتي تدللني مثلها في ذلك مثل بقية الاقارب.. وإذا عدت بذاكرتي الى تلك الايام اشعر بان الدلال افسدني.. كان جسدي اصغر من عمري بينما كانت شقيقاتي طويلات وممتلئات الاجسام.. وكان الجميع يدللني ويعاملني كطفلة.. وكانت شقيقاتيْ على شيء من الهدوء والرزانة كبقية الاميرات السعوديات بينما كنت اميل للشقاوة ولا اكترث بالصورة الاميرية التي ينبغي ان اتقيد بها ومع ذلك كنت موضع حب شقيقاتي بل انهن مازلن يدافعن عني حتى اليوم اذا ما تعرضت لأي خطر.

وكثيرا ما منت احاول التحبب والتودد الى الوالد حتى يسبغ عليّ حبه، لكني فشلت في جذب اهتمامه.. فقد كان علي هو مركز اهتمامه وكنت اعْتقد بأن والدي اذا نظر اليّ مرة بعد اخرى فقد يحبني كما يحب علي ولذلك كنت اقترب من الوالد بسبب وبدون سبب وهو ما جعل عدم اهتمامه بي يتحول الى نفور.

لقد قبلت والدتي الحقيقة ورخضت لها وهي ان الارض التي ولدنا فيها هي مكان يعشش فيه سوء التفاهم بين الجنسين.. ومع كوني طفلة والعالم يمتد امامي كان عليّ ان اصل الى هذا الاستنتاج.

وعندما انظر الى الماضي اعتقد انه ربما كان في علي طباع جيدة الى جانب الطباع السيئة لكني ما كانت استطيع ان اتجاوز واحدة من خصاله الرديئة.. كان علي قاسيا بمعنى الكلمة.. كنت اراقبه وهو يسخر ويجذب الولد المقعد «المعوق» إبن الخادم الذي يعتني بحديقتنا.. كان لذلك الطفل وأسمه سامي ذراعان طويلان وساقان غريبا الشكل.. وعندما يحضر الى بيتنا اصدقاء علي كان علي يستدعي سامي ويأمره ان يمشي كالقرد، ولم يلاحظ علي كيف ان سامي كان يتأثر من ذلك كثيرا وتسيل دموعه احيانا لأن علياً واصدقاءه

يسخرون من عاهته بدل ان يتعاطفوا معه.

وعندما كان علي يعثر على قطط صغيرة بحبسها في مكان ما ويشعر بالسرور وهو يراقب أم القطط تموء غضبا وحزنا على اولادها .ولم يكن احد يتدخل في هذه الامور لان الوالد كان لا يرى أي ضرر أو قسوة في هذا السلوك اللاأنساني من علي.

وبعد ان تحدثت معي الوالدة كثيرا بشأن علي.. صليت وطلبت الغفران من الله فيما يتعلق بمشاعري نحو علي وقررت أن اجرب الطريقة «السعودية» في المداورة بدل المجابهة مع شقيقي علي.. وكانت والدتي ترى بأن سلوكي سيقودني الى مستقبل غامض وشائك.

غير ان نواياي الطيبة نحو علي تبددت خلال اسبوع بسبب سلوكه اللانساني. فقد عثرت مع شقيقاتي على جرو يبدو أنه ضاع من والدته.. كان الجرو يلهث من الجوع، فحمتله مع شقيقاتي وبدأنا نطعمه الحليب حتى استعاد عافيته خلال ايام واخذ يركض حوالينا ويلعب معنا بل أننا ألبسناه معطفا صغيرا وبدأنا ندربه على الجلوس في عربة الاطفال.

ومع ان المسلمين بشكل عام لا يحبون الكلاب، لكن المسلم لا يمكن ان يؤذي حيواناً صغيراً مهما كانت الفصيلة التي ينتمي اليها. ولذلك كانت الوالدة ورغم انها مسلمة تقوم بكافة واجباتها الدينية كانت تبتسم عندما تراني مع شقيقاتي نحاول غسل الجرو ومن ثم ألباسه ذلك المعطف الصغير.

واطلقنا عليه اسم «باسم» وذات ظهيرة كنا ندفعه في عربة الاطفال وتصادف مرور علي مع اصدقائه، فأثار الجرو فضول اصدقائه وهو ما جعل علي يقر بأن الجرو له.. وبدأت مع شقيقاتي الصراخ والمقاومة عندما حاول اخذ الجرو باسم منا بالقوة، وسمع الوالد الصراخ فحضر فورا لاستجلاء الامر. وخاطب علي والدنا وابلغه

برغبتــه في امتلاك الـجرو فما كــان من الوالد الا ان امــرنا بــالامتثال لرغبة علي، ولم يكن باستطاعتنــا طبعاً تغيير قرار الوالد فطالما ان علي يريد الـجرو فلا بد أن يحصل عليه.

وانـهمرت الــدموع مــن مآقينــا عندمــا حمل علي الـجرو تحت إبطه ومضـى بــه... وبــذلــك تبــدد اي احتمال لأن احب شقيقي علي بل ان كراهيتي له ازدادت عندما علمت بعد ذلك انه ضـجر من الـجرو وقذف به من نافذة السيارة وهي تسير بسرعة فائقة.

شقيقتي سارة

شعرت بالحزن وتعاطفت مع شقيقتي سارة ... كانت تبكي بين ذراعي والدتي .... انها البنت التاسعة من والداي وأكبر مني بثلاث سنوات ويفصل بيني وبينها علي ... كان ذلك اليوم هو عيد ميلادها السادس عشر وبدل أن تبتهج وتحتفل بالمناسبة كانت تبكي بسبب أخبار نقلتها لها الوالدة عن الوالد .

كانت سارة ترتدي الحجاب منذ أن بلغت .... أي وهي في الرابعة عشرة عمرها . وكان الحجاب يجعل منها نكرة .... وسرعان ما كفت عن التحدث عن طفولتها وأحلامها بانجازات عظيمة .... وأخذت تبتعد عني تدريجياً لأني كنت صغيرة ولا أتحجب ... ومع الوقت وابتعاد سارة عني صرت أحن للأيام السعيدة التي قضيتها معها في الطفولة ... واكتشفت ان الانسان لا يتذكر السعادة الا عندما يواجه التعاسة لأنني لم أعرف بأننا كنا في غاية السعادة الا عندما شاهدت التعاسة مجسمة أمامي .

كانت سارة جميلة وأحلى منا جميعاً ، وأصبح جمالها لعنة عليها لأن رجالاً كثيرين سمعوا بجمالها عن طريق أمهاتهن أو شقيقاتهن وبالتالي أبدوا الرغبة في الزواج منها .... وكانت سارة طويلة ونحيفة وبشرتها بيضاء وحواجبها مقوسة غاية في الجمال . وكل من شاهدها أعجب بها ... وكان شعرها الاسود الطويل موضع حسدنا جميعاً .

ورغم جمالها الطبيعي كانت سارة لطيفة وناعمة وموضع حب كل من يعرفها ، ولسوء الحظ لم تنزل اللعنة على سارة بسبب جمالها فقط ، فقد كانت ذكية أيضاً وفي بلادنا يؤدي الذكاء بالمرأة الى التعاسة والبؤس لأنها لن تجد شيئاً تركز ذكاءها عليه .

وكانت سارة ترغب في دراسة الفن في ايطاليا وأن تفتتح اول معرض فني في جدة ، وكانت تسعى لهذا الهدف منذ أن كانت في

الثانية عشرة من عمرها ، وكـانت غرفتها تعج بعشرات الكتب وصـور لوحات كبار الفنانين وكثيراً ما حدثتني عن الفن في أوروبا ... وقبل أن تتزوج تسللت الى غرفتها ذات يوم ووجدت قائمة بالاماكن التي كانت تخطط لزيارتها في فلورنسا والبندقية وميلانو وروما .

شعرت بـالأسى لأن أحلام سـارة لن تتحقق . وفي بـلادي يكون قرار الزواج في أيدي كبار رجـال الاسرة وكان القرار في أسرتنا يعود للوالد ، وكان قد قرر منذ فترة طـويلة عقد قران سارة على رجل ثري ومشهور .

كان الشخص الذي اختاره والدي للزواج من ابنته ينتمي الى أسرة تعمل في التجارة في مدينة جدة لها نفـوذ مالي على أسرتنا . وتم اختيار العرب بسبب صفقات ماضيـة ومستقبلية ، وكان عمره (٦٢) سنة وستكون سارة الزوجة الثالثـة له ، ومع أنها لم تقابله في حياتها لكنه سمع بحالها من قريباتها وكان يتوق لتقريب تاريخ الزواج والاسراع فيـه ، وحاولت الـوالدة التـدخل نيـابة عن سـارة لكن الوالـد رفض تدخلها رغم رؤيته للدموع في مآقي ابنته الشابة الجميلة .

وهكذا أدركت سـارة بأنها ستتزوج ، وأمـرتني الوالـدة بمغادرة الغرفة ... فغادرت الغرفـة بغضب ودخلت الى خزانة وسالت دموعي بغزارة وهدوء بينما كانت سارة تلعن الوالد وآل سعود كانت تصرخ وتبكي بحرقة لـدرجة أني لم أعد أفهم ما تقـول لكني سمعتها تشبه نفسها بخروف الاضحية .

وبكت والدتي أيضاً ، لكنها لم تجد مـا تعزي أو تجبر خاطر سارة به لأنها كانت تدرك بأن الوالد هو صاحب القرار النهائي في زواجنا ، فقـد سبق أن زوج ستاً من شقيقـاتي رغم ارادتهن ، وكانت والـدتي تعـرف بأن مصير بنـاتها الاربع المتبقيـات لن يختلف عن مصير من سبقهن ولا توجد قوة في الارض تستطيع منع ذلك .

وسمعت والدتي بكائي في الخزانة فطلبت مني أن أحضر مناشف

(بشاكير) بـاردة ثم عـادت وركزت اهتمامهـا على سارة ، واحضرت البشاكير فوضعتها الوالدة على رأس سارة وأخذت تربت عليها حتى تنام .

وجلست تـراقب ابنتهـا عـدة دقــائق ثم نهضت وأمسكت يـدي وأخذتني الى المطبخ ، ورغم ان الوقت لم يكن وقت تناول الطعام فقد وضعت لي من الحلـويات وأعـدت لي كوبـاً من الحليب وكانت طبعـاً الطـاهيـة نائمـة ... كنت في الثـالثـة عشرة وأبدو أصغـر من عمـري فـوضعتني في حضنهـا وربتت على كتفـي فترة طـويلـة وهـي تفكـر بأشياء لم أعرفها .

كـان من شأن دموع سـارة لسوء الحظ أن ازداد مـوقف الوالـد تصلباً .. سمعتها تتحدث اليه ... بل أنها فقدت توازنها بسبب غضبها وحزنها واتهمته بكراهية النساء . وغضب الوالد منها فأدار ظهره .... واجهشت سارة في البكاء وتمنت لو أنها لم تولد ، فاستدار الواد وقال بصوت ينطوي على الغضب أنه سيقدم موعد الزواج حتى يريحها من دموعها .

لقـد اعتاد الـوالد على الحضـور الى منـزلنا مـرة كل أربعة أيـام . فالرجل المسلم الذي يملك أربع زوجات يقسم وقته بينهن بالتساوي . واذا لم يذهب الرجل الى منزل احدى زوجاته في الوقت المخصص لها فهذا يعني بأنه غاضب منها أو من أولادها .،. وعدم التردد عليها هو بمثابة العقاب لها . وبسبب غضب والدي من سارة أبلغ والدتي وهي الزوجة الاولى وبالتالي رئيسة الزوجات الاخريات بأن تخبر زوجاته الثلاث بأنه سيتردد عليهن فقط ولن يتردد على بيتنا وذلك في محاولة منه لدفع الوالدة وحثها حتى تقنع سارة بالتخلي عن عنادها والقبول بمصيرها في أن تصبح حسب كلماته (زوجة وأماً صالحة) .

وأنا لا أذكـر جيداً زواج شقيقاتي الاخـريات ، كنت صغيرة لكني أتذكـر أن دموعـاً كثيرة سالت من مآقي الـوالدة والشقيقـات .... أما بالنسبـة لسارة فأنا أتـذكر تفـاصيل كل شيء في الاشهر التي سبقت

زواجها كما أتذكر زواجها والاحداث الحزينة التي تلت ذلك .

لقد اشتهرت بين الاقارب بالشقاوة والعفرتة وكثيراً ما عيل صبر الوالدين مني .. فقد وضعت الرمل في محرك سيارة علي المرسيدس ... وكثيراً ما سرقت الاوراق النقدية من محفظة والدي وكنت أختلس قطع النقد الذهبية التي يحتفظ بها علي وأدفنها في الحديقة كما كنت أطلق الافاعي الخضراء والسحالي البشعة من أقفاصها لتسبح في البركة التي يحلو لعلي ان يستلقي فوق حشية مطاطية منفوخة فيها ... وكان يشعر بالفزع عندما يشاهد الافاعي والسحالي ولا يعرف من الذي أطلقها من أقفاصها .

أما سارة فكانت البنت المثالية ... مطيعة ومجتهدة في المدرسة وكنت أحبها بجنون وأعتقد أنها ضعيفة لكنها أدهشتنا جميعاً في الاسابيع التي سبقت زواجها ... كان في أعماقها قوة كامنة وشجاعة مقهورة . إذ أنها كانت تضع في مكتب والدي رسالة احتجاج يومياً بأنها لن تتزوج ... بل انها اتصلت مع مكتب الرجل الذي سيتزوجها وتركت له رسالة مع سكرتيره الهندي وفحواها أنه رجل طاعن في السن بالنسبة لها وأنه رجل مقرف يتعين عليه أن يبحث عن امرأة وليس بنتاً بكراً . ومن الواضح ان الهندي لم يوصل الرسالة . ولذلك اتصلت سارة وطلبت الرجل نفسه ، ولم يكن موجوداً في المكتب بل في باريس ... وعلم والدي بما فعلته سارة فقطع خطوط الهاتف عن منزلنا وتم احتجاز سارة في غرفتها . واقترب موعد الزواج ، ولم تغير أسابيع البكاء شيئاً في جمال سارة بل لعلها ازدادت جمالاً وشفافية .. فتاة ملائكية ما كان ينبغي أن تولد في هذه البلاد ، ولأنها فقدت شيئاً من وزنها فقد ازداد سواد عينيها عمقاً وبشرتها وشفافية ورقة ... وكنت الاحظ في عينيها شيئاً من الخوف .

وفي صبيحة يوم الزواج حضرت الى منزلنا العمات والخالات لتحضير وتهيئة العروس كما هو العرف والعادة وجلست في زاوية غرفة الملابس كالصخرة أراقب ما يجري ، كان ثمة ما لا يقل عن

(١٥) امـرأة مشغولات بتفـصيل الـزواج . كانت الخطـوة الاولى في المراسـم هي ما يسمى (الحلاوة) أي نزع الشعـر عن جسد العروس باستثناء حواجبها وشعر رأسها وذلك بواسطة ما يسمى (العقيدة) وهـي عملية مؤلمة اذ أن سارة كانت تصرخ من الالم وهو ما أفزعني . والخطوة الثـانية هي (الحناء) ثم طـلاء الاظافر بـاللون الاحمر ثم ارتداء الملابس الفـاخرة والمجـوهرات بما في ذلك البروشـات الماسية والحلق وكلهـا هدايـا من العـريس غير ان سارة لم تأبـه بها رغم أن العريس أرسلها الى منزلنا قبل ذلك بأسبوع .

وعنـدما تكـون العروس السعـودية سعيـدة تعج غرفـة تحضير العـروس بـالضحك ، أما عمليـة تحضير ســارة فكـانت على العكس حزينة وكأن النســاء يحضرن جسدها للدفن وليس للـزواج ... كانت المخاطبة بين النساء همساً .. وكانت سارة مستسلمة لمصيرها بعكس الايام التي سبقت عملية التجهيـز والتحضير ، لكني أدركت بعد ذلك سبب هدوئهـا . وهو أن الوالـد الذي كان يتـوقع احتمال تمرد سارة وربما اهانتها للعريس طلب من طبيب بـاكستاني أن يحقنها بمهدىء قـوي ، وقد عـرفنا بعـد ذلك ان نفس الطبيب زود العريس بحبـوب مهدئة حتى يعطيها الى ســارة خاصة بعد أن علم العـريس بأن سارة عصبية ولا تريد الزواج منه ...

والمعـروف في بـلادي أن كثيرين من الاثريـاء الطـاعنين في السن يتزوجون مـن بنات دون العشرين ... وبالتالي فقـد اعتاد شعبنا على هذه الامور ولم يعد ثمة ما يـدعو الى العجب إذا كان الزوج يدرك بأن زوجته الشابة لا تحبه .

كان قـرع الطبول يعني وصول الضيوف .... وذلك بعـد الانتهاء تماماً من تجهيز سارة حيث بدت بكـامل زينتها كالملاك .... كنا ننظر إليها مشدوهين بجمالها الصاعق .

ونصبت خيمة كبيرة في الساحة الخلفية وامتلأت الحديقة بالزهور التي تم استيرادها من هولندا مباشرة مع آلاف الاضواء الملونة المعلقة

فـوق الحديقة وفي أرجـائهـا كان المشـهـد رائعـاً لدرجـة أني نسيت للحظات تراجيدية الموقف .

وامتلأت الخيمـة بالضيوف ... نســاء من الاسرة المالكة يـرتدين مجوهرات بمـلايين ملايين الدولارات .... وكان في الخيمـة الى جانب الاميرات نساء من عامة الشعب وهـو أمر نادر الحدوث . فالنساء من عامـة الشعب قد يسمح لهن بحضـور أعراسنا شريطـة الحفاظ على حجـابهن وعـدم الاختـلاط أو رفع الكلفـة مع الاميرات . واخبرتني احدى صديقاتي ان الرجال في بعض الاحيان يرتدون ملابس نسائية ويخفون وجـوههم خلف الحجاب وينضمون الى النســاء في الاعراب حتى يشـاهدوا وجـوهنا المحـرمة رؤيتهـا عليهم .... أما الضيـوف الرجال فكانوا يحتفلون بالعرس في أحد الفنادق الكبرى .

وفي الاعراس السعوديـة يحتفل الرجال بالمنـاسبة في مكان بينما تحتفل النساء في مكان اخر ، والرجل الوحيد الذي يسمح له بالدخول الى مكان النسـاء هو العريس ووالـده ووالد العـروس والشيخ الذي يجري مـراسم الزواج ، وفي زواج سـارة كـان والد الـزوج متوفيـاً وبالتالي كان والدي فقط هـو الذي سيرافقه عندما يحضر لاصطحاب العروس .

وبدأ العبيـد والخدام فجأة يزيلـون الاغطية عن الطعـام وتقدمت النسوة وكانت النساء المحجبـات (أي عامة الشعب) هن أول من بدأ في تناول الطعام ،كنت أراقبهن كيف يـدخلن اللقمة مع تحت الحجاب الى أفواههن ... كـان ثمة سمك سالمون مـدخن من النرويج وكـافيار روسي وكل مـا يخطـر على البـال من أنـواع الطعـام والمقبـلات والمشروبـات المنعشـة باستثنـاء الكحـول ، لكن بعض نسـاء الاسرة المالكة يشربـن الخمر سراً ويحملن معهن زجـاجات معـدنية صغيرة مـلأى بـالنبيذ او الـويسكي او الشمبـانيـا ويحتسين منهـا سراً ثم يمضغن حبة من النعناع للتخلص من رائحة الكحول .

بعـد فترة تقدمت راقصـات مصريـات نحـو وسط الخيمة فـران

السمت على الجميع وبدأن يراقبن حركات الراقصات باهتمام واضح ، وكان هذا الجزء من مراسم الزواج هو المفضل لدي ، غير أن علامات عدم الرضى ظهرت على بعض النساء استنكاراً للحركات الخليعة التي كانت تقوم بها الراقصات ، فالسعوديات عادة جادات وينظرن الى المرح والضحك بشيء من الشك ، ودهشت عندما شاهدت احدى بنات عماتي تقفز من مكانها وتنضم الى الراقصات وسط الخيمة وتشاركهن الرقص ... واكتشفت أنها راقصة بارعة لكني سمعت همهمة بين نساء الاسرة المالكة استنكاراً لما قامت بها ابنة عمتي .

وعادت الطبول تقرع مرة اخرى وأدركت أنه حان الوقت لظهور سارة ... والتفت كافة الضيوف بأعينهم نحو مدخل الفيلا في ترقب .... وشرعت الابواب على مصاريعها وظهرت سارة ترافقها أمي من جانب واحدى عماتي من الجانب الاخر .... كان على وجه سارة حجاب وردي خفيف موشى باللؤلؤ أضاف الى جمالها مسحة ملائكية ... وبدأ الضيوف يتهامسون ولاحظت ان سارة غير مرتاحة بل لعلها كانت خائفة .

وسارت عشرات النساء القريبات خلف سارة وعبقت في الجو أنواع العطور ، وانطلقت الزغاريد والاهازيج وكانت سارة تتعثر في مشيتها بينما تتأبط والدتي ذراعها . وبعد فترة حضر والدي والعريس وعرفت ان العريس أكبر من والدي وشعرت بالنفور منه منذ ان شاهدته لأول مرة ... كان طاعناً في السن ويشبه الخلند أو ابن عرس وصعقت من فكرة أن يلمس شقيقتي مجرد لمس ... إنه أمر رهيب . وتكلف العريس الرهيب ابتسامة صفراء وهو يرفع حجاب شقيقتي التي وقفت كالتمثال بلا حراك وهي تواجه سيدها الجديد . وكانت مراسم الزواج الحقيقي قد جرت قبل ذلك بفترة ولم تحضرها أي امرأة لأنها تقتصر على الرجال فقط وهي توقيع عقد الزواج وما يرافق ذلك من مراسم .

ونظر الشيخ الى والدي الذي قال ان سارة أصبحت زوجة لذلك

العـريس مقابل المهـر الذي اتفـق عليه ، ونظـر الى العريس الـذي رد بدوره أنه يقبل العروس سارة كـزوجة لها وأنه سيرعاها ويحميها ، لكنه لم ينظر الى سارة أثناء هذه المراسم القصيرة .

وقرأ الشيخ بعض آيـات القرآن الكريم ثم بارك الـزواج فانطلقت الزغـاريد دفعـة واحدة فقد أصبحت سـارة زوجة وابتسم الـرجال والسرور بادياً عليهم .

بقيت سارة واقفـة بلا حراك ... وتنـاول العريس كيساً من ثـوبه وبدأ ينثر القطع الذهبية على الضيوف .... وارتجفت وأنا أراقبه يتقبل التهـاني للـزواج من أختي الجميلـة ... ثم أمسك ذراع أختي ومشى معها ، ورمقتني سارة عندما شاهدتني ... كنت أعرف أنها بحاجة لمن يساعدها لكني كنت على قناعة بأن أحـداً لن يساعدها ... وتذكرت ما قالتـه سارة لـوالدي في احـدى سور غضبهـا وهو (ان النصر يـولد الكراهية لأن المهزوم لن يشعر بـالسعادة) ..... وفكرت ان سارة لن تعرف السعادة في هذا الزواج غير العـادل وغير المتكافىء وأن الكراهية لا تكفي لمعاقبة العريس .

الطــلاق

منعنــا الوالــد من زيــارة سـارة طيلــة الاشـهــر الثلاثــة الاولى من زواجهـــا بحجـــة انها تحتـــاج الى وقت حتى تتكيف مع حيـــاتـــه ومسؤولياتها الجديدة... وانها اذا شـاهدت افراد اسرتها فأن رغبتها ستشتعل للعودة الى حياة من الاحلام غير المجـدية...اما استياؤنا من زواجها لم يؤثر على الوالد الذي يعتقد بانها فعلت الشيء الذي ولدت المرأة لأجله وهــو ان تخدم وتدخل السرور الى قلـب الذكـر الذي يتزوجها وان تنجب له ذرية صالحة.

ولم تأخذ ســارة شيئا من غرفتهــا.. ربما لأنها أدركت ان وجود كتبها واشيائها الاخرى ستجعل حياتها في البيت الجديد اشد تعاسة.. وبالنسبة لي كـانت سارة شبه ميتة فقد ترك غيــابها فجوة واسعة في حيــاتي... كنت ابكي عليهــا كلما ادخل غرفتهــا في منــزلنــا ساعــات وساعات..و سرعان مــا بدأت أهتم بهواياتها واتقمص شخصيتها.. وقرأت يومياتها وصرت أشعر بأن احلامها هي احلامي، وكت أبكي بحرقة واتساءل كيف يسمح الله للشر بأن يتغلب على الخير والبراءة.

واصــدرت الوالــدة تعليماتها بأغلاق بــاب غــرفة ســارة عندمــا وجدتني ذات يوم في سريرها أقرأ كتبها وارتدي قميص نومها.

وما كـان ينبغي لنا ان نتحمل اوامــر الوالــد بعدم زيــارتها طيلة الاشهــر الثلاثــة الاولى من زواجها.. إذ انها بعـد خمسة اســابيع من الزواج حاولت الانتحار.

كنت اتحدث مع بعض الحيوانــات في حديقة الحيوانــات المصغرة التي اشتراها الــوالد وفجأة جاء عمــر ودخل البوابة الــرئيسية وهي مذهول زائغ النظرات وطلب مني ان ابحث بسرعة عن الوالدة.

وطبيعي ان للوالدة احساسات خاصة نحو اطفالها، اذا انها ما ان شاهدت عمر حتى بادرته بالسؤال: ماذا حدث لسارة؟».

ولا يمكن لأنسان عربي ان يخبر قريبه بالحقيقة اذ كان احد افراد الاسرة مريضا او حتى على وشك الموت، فنحن شعب لا نحب نقل الاخبار السيئة.. فاذا توفي طفل مثلا فأن الشخص الذي يضطلع بمهمة ابلاغ الاسرة بالخبر يقول عاذة ان الطفل مريض جدا.. وبعد سؤال الشخص سيعترف بأن الطفل في المستشفى.. وبعد الالحاح على معلومات اضافية ربما يقول أن مرض الطفل خطير جداً والافضل ان ينتقل افراد الاسرة الى المستشفى.. ثم يقول ان حياة الطفل في خطر حقيقي .. وقد تمر بضع ساعات قبل ان يدرك افراد الاسرة بأن الطفل مات بل أن الشخص قد لا يخبر الاسرة بالخبر وينيط هذ المهمة بالطبيب.

لذلك. قال عمر للوالدة ان سارة اكلت لحما فاسدا وانها في احدى مستشفيات جدة تحت العلاج.. وارسل والدي الى والدتي طائرة خاصة تنقلها الى جدة وسرعان ما ارتدت والدتي عباءتها وحجابها واستعدت للسفر الى جدة.

وبكيت وتمسكت بوالدتي بحيث انها وافقت على اصطحابي معها بعد ان وعدتها بأني لن ادخل غرفة سارة في المستشفى... وهرولت الى غرفة سارة وقررت ان آخذ لها معي كتابها المفضل عن الفنانين العالميين.

وقاد عمر السيارة بنا الى مكتب الوالد لأنه نسي أوراق السفر، ففي السعودية لا تستطيع المرأة ان تسافر حتى من مدينة الى اخرى الا اذا حملت ترخيصا بذلك من زوجها او شقيقها الكبير او ولي امرها.. فبدون هذا الترخيص ربما يتم توقيفنا في مكتب الجمارك والحيلولة بينا وبين ركوب الطائرة.. وارسل الوالد التصريح المطلوب بالاضافة الى جوازت السفر واخبر والدتي بأن الضرورة قد تستدعي نقل سارة الى لندن للعلاج...

وتساءلت في نفسي أي لحم فاسد هذا الذي يستدعي العلاج منه السفر الى لندن؟.. وأدركت ان قصة الوالد مفبركة وفكرت بأن سارة قد تكون ميتة.

طرنا الى جدة في طائرة صغيرة خاصة.. كانت الرحلة مريحة لكن الجو داخل الطائرة كان متوترا... ولم تتحدث والدتي كثيرا وكانت مغمضة العينين طيلة الوقت لكن شفاهها كانت تتحرك وادركت بأنها كان تدعو الله ان ينقذ سارة وان يوصلنا الى جدة بخير.

كان الطيار ومساعده امريكيين وسرعان من انجذبت الى بساطتهما وصراحتهما. وسألاني ما إذا كنت ارغب في الجلوس معهما.. وسمحت لي والدتي بذلك، فلم يسبق لي ان جلست في مقصورة قيادة الطائرة بينما كان علي يجلس مع الطيارين في رحلاتنا الجوية.

وفي البداية شعرت بالرهبة وانا انظر الى السماء، وكانت الطائرة كالدمية المعلقة بين السماء والارض، وشعرت بالفزع وعدت ادراجي، لكن الطيار جون ابتسم لي مشجعا واخذ يشرح لي عن مهمات الازرار المتعددة امامه، واتكأت على كتفه وشعرت بالهدوء والراحة لوجودي بين رجال غرباء لاول مرة.. وفجأة شعرت بالاحتقار لعلي واخواني غير الاشقاء «من والدي».. وكان شعورا غريبا.. وادركت بأن الرجال الذين تربيت على اعتبارهم آلهة قد يكونون طبيعيين جدا وابرياء وبسطاء جدا ولا يهددون احدا.. كانت الفكرة بالنسبة لي جديدة.

عندما نظرت من نافذة الطائرة عرفت ما يفكر فيه النسر وهو يلحق في الفضاء.. لقد شعرت بحرية حقيقية..وعدت افكر في سارة وكيف ان الحيوانات والطيور اكثر حرية من شقيقتي.. وأقسمت أن اكون سيدة مصيري وحياتي مهما كان الثمن او العذاب الذي سأحتمله في سبيل هذه الغاية.

عندما بدأت الطائرة بالهبوط عدت الى أمي فعانقتني ، هبطت

الطائرة.. كانت والدتي محجبة لكني رأيت قسماتها وتعابير وجهها.. وكـانت زفراتها طـويلة وتعـاني قلقـا حقيقيا . وودعت الامـريكيين وتمنيت ان يعودا هما وليس غيرهما الى الرياض... فقد شعرت بالالفة معهما لأنهما أهتما بي رغم صغري.

وصلنـا الى المستشفى.. وتناهى الى اسماعنـا بكاء وعـويل ونحن نسير في الممر.. واسرعت الوالدة في خطـاها وامسكت بذراعي جيدا... كانت سارة على قيد الحياة وعلمنا بأنها حاولت الانتحار بان وضعت رأسها داخـل فرن الغاز.. كـانت هـادئة وشاحبة، ولم يكـن زوجها موجـودا لكنه ارسل والدتـه. وبدأت تلك المرأة العجوز تـوبخ سارة لأنها احرجت ابنهـا وعائلتـه.. كانت امـرأة منحطة وقحـة.. وفكرت بخرمشة وجهها لكني تذكرت وعدي لأمي فتمالكت نفسي من الغضب وامسكت يد سارة وربت عليها بحنان.

وازالت والدتي حجابها وردتـه الى رأسـها وجابهت المرأة العجوز بحـدة.. لقـد فكـرت بكل الاحتمالات ثم اكتشفت ان ابنتهـا حـاولت الانتحار وهـو امر لم تكن تتوقعه.. وصرخت على ام الـزوج بعصبية ظاهرة وسألتها «ماذا فعل ابنك بها حتى يدفعها للانتحار» امرتها ان تغادر الغرفة،و سررت بذلك جدا.. وغادرت المرأة العجوز الغرفة دون ان تنبس بكلمـة، لكنها بـدأت بـالصراخ خارج الغـرفـة وهي تطلب السلوان من الله تعالى.

والتفتت والدتي نحوي وشاهدت ابتسامتي التي تعبر عن اعجابي بها.. لقـد سررت جدا لغضبتهـا وشعرت للحظـات بأن الله لن يتخلى عنها.. فســارة ستعيش، لكني ادركت ان والدتي ستتعرض لتجـربة مريرة عندما يعرف والدي ما قالته للمرأة العجوز. كما أنه لن يشعر بالتعـاطف مع سارة بل سيغضب من فعلتهـا وسيثور غـاضبا على الوالدة لانها دافعت عن ابنتها.. ففـي السعودية ينبغي احترام الكبار مهما قـالوا او فعلـوا ومهما كانت تصرفـاتهم ولا يجرؤ شخص على مجابهة الطاعنين في السن حتى لو كانـوا على خطأ.. وكانت والدتي في

اثناء مجابهتها للمرأة العجوز كاللبؤة لأنها كانت تحاول حماية ابنتها.. وقد شعرت بفخر واعتزاز بشجاعة الوالدة.

بعد ثلاثة ايام ودون ان يتصل حضر زوج اسارة الى المستشفى لاستراردتها. وعندما وصل الكتشفت الوالدة سبب عذاب ومعاناة سارة وهو ان زوجها سادي يمارس الجنس بعنف شديد وقسوة وهو ما دفع شقيقتي للتفكير بالهروب منه عن طريق الانتحار. وبعد ان جاء الوالد الى جدة سمع ما تعانيه ابنته ومع ذلك كان رأيه بأن الزوجة تعود لزوجها خاصة بعد ان تعهد الزوج بأنه سيحسن علاقاته مع سارة ويرضيها.

أرتجفت يد والدتي وفغرت فاها بفزع عندما اخبرها والدي بقراره... واجهشت سارة بالبكاء وحاولت مغادرة السرير قائلة انها لم تعد راغبة في الحياة.. وهددت بقطع شرايين معصميها إذا ارغمت على العودة الى زوجها،ووقفت الوالدة فوق سارة كالجبل ولأول مرة في حياتها اظهرت تحديا واضحا لزوجها حيث قالت له ان سارة لن تعود الى منزل وحش وأنها ستذهب الى الملك ومجلس العلماء وتبلغهم بتفاصيل سادية ذلك الوحش وان الملك و مجلس العلماء لن يوافقوا على استمرار هذه المأساة، وهدد الوالد والدتي بالطلاق.. لكنها صمدت وقالت له «افعل ما تريد ولكن ابنتي لن تعود الى ذلك الشرير».

وقف والدي محتارا... ولعله فكر بأن رجال الدين سيقنعون سارة بالعودة الى زوجها.. وأنهم سيقدمون النصح له عن كيفية معاملة المرأة على النحو الذي امر به القرآن.. وحدق الوالد بنا وهو يقلب موقف والدتي على كافة الاوجه..ثم اذعن لاول مرة في حياته الزوجية ولأننا من الاسرة المالكة، لم يشأ الزوج ان يقطع علاقاته بوالدي ولذلك وافق على مضض على طلاق سارة.

ولو ان سارة اضطرت لرفع دعوى طلاق لتغلبت كثيرا لان رجال الدين يقفون الى جانب الزوج.. وعلى اي حال فقد اذعن زوج سارة ونطق بكلمة الطلاق: «انت طالق» ثلاث مرات بوجود شاهدين ذكرين.. وفي هذه الحالة يكون الطلاق نهائيا بعد مضي فترة العدة التي نصت عليها الشريعة الاسلامية.

وهكذا تحررت سارة وعادت الى منزلنا.

ان كل مشكلة هي بمثابة عملية انتقال فقد تغير عالمي الصغير بزواج سارة ومحاولتها الانتحار ثم طلاقها.. وبدأت افكار جديدة تنمو في رأسي ولم اعد افكر تفكير اطفال.

صرت افكر بالتقاليد البدائية التي تحكم الزواج في بلادي، فهناك عدة عوامل تقرر قدرة البنت على الزواج في السعودية ومن ذلك اسم عائلتها وثروتها وعدم وجود عيوب او تشوهات فيها، وجمالها. أما الاختلاط فمحظور وبالتالي يعتمد الرجل على عيون والده وشقيقاته للعثور على زوجة مناسبة له.. وحتى بعد الوعد بالزواج وتحديد موعد ه فأن من النادر ان تقابل الفتاة زوجها المقترح قبل الزواج.. وفي بعض الاحيان تتبادل عائلتا العروس والعريس صور العريس والعروس.

واذا كانت البنت من عائلة محترمة وعلى شيء من الجمال، فقد يتقدم لها عدد من الخطاب عن طريق الامهات والشقيقات.. وجمال الفتاة مهم في السعودية كما هو الشأن في اي مكان آخر من العالم.. والفضائح لا تؤثر على جمال المرأة في السعودية. واذا تعرضت البنت الى فضيحة فقد يتزوجها شخص كزوجة ثالثة او رابعة او ربما يتزوجها طاعن في السن في قرية نائية.

وكثير من السعوديين يتركون القرار النهائي بزواج بناتهم الى زوجاتهم وهم على يقين بأن الزوجات ستختار افضل العرسان الاكفاء، لكن يحدث احيانا ان تصر الام ايضا على زواج غير متكافىء

رغم احتجاج ابنتهـا. ذلك أن جيل امهاتنـا كن يتزوجن مـن رجال لا يعرفـوهن ومع ذلك عشن بسعادة او بشكـل عادي على الاقل.. والأم تقـول لابنتهـا عادة ان الحب والعـواطف لا تستمـر... والافضل ان تتزوجي من اي عائلة معروفـة.. وهناك رجال من طراز والدي طبعا يتخذون قرار تزويج بنـاتهم اعتمادا على صفقات تجارية، ولا توجد اي سلطة تحول بين الوالد وتزويج ابنته ممن يراه مناسبا لها. ورغم جمال شقيقتي سـارة وذكائهـا واحلام طفولتهـا لم تكن في النهـاية سوى سهم في جعبة والدي وخططه لجمع المزيد من المال.

لقد دفعنـي ما حدث لسـارة للتفكير بضرورة ان يكون لنـا نحن معشر النساء رأي في قـرار الزواج، الذي من شأنه تغيير نمط حيـاتنا لـلابد..وهكـذا بدأت اخطط وادعـو لحقـوق النساء في بـلادي بحيث نعيش بكرامة وحرية وهي من أولويات حقوقنا.

علــي

بعد بضعة اشهر من عودة ســارة الى منزلنا، استطاعت شقيقتنا نورا اقناع الوالد بأن سارة وأنا بحــاجة لرحلة الى خارج السعودية.. أذ ان احدا لم يتمكن من انعــاش روح سارة من الاحباط الــذي كانت تعانيــه.. وفكرت نــورا ان افضل علاج لسارة هــو القيام بــرحلة الى خارج البلاد.

وبالنسبة لي لم اخرج من السعودية سوى الى اسبانيا مرتين لكنني كنت صغيرة ولا أذكر شيئا من تلك الرحلات.

وكانت نــورا متزوجة من احــد احفاد الملك، وكان الــوالد مسرورا بزواجها وهدوئها ونظرتها الى الحيــاة.. فقد اذعنت لرغبة الوالد ولم تحتج ولــذلك كان الــوالد يحبهــا وازداد حبه لها مع السنين.. ومنــذ طلاق سارة كــان الوالد يتخذ نــورا كنموذج ومثال لبقية بنــاته. ذلك انها تزوجت من غريب «حفيد الملك من ابنته» ومع ذلك نجح زواجها.

وكان الوالــد يعتقد ان سلوك سارة هــو الذي دفع زوجها للعنف. ففي الشرق الاوسط لا ينحــون بــاللــوم على الــرجل حتــى لــو قتل زوجته.. وعــادة ما يبرر الــرجل أفعــاله والــرجال يقبلــون تبريرات بعضهم بعضــا في هذه الامــور.. بل أني شاهــدت صحفية في بــلادي تمجد الرجل الذي يقتل زوجته او ابنتــه اذا ما كان «سلوكها مشينا» فأي ريبــة في المرأة قــد تودي بحيــاتها.. والادهى من ذلك ان رجــال الدين يهنئون الرجل الذي يقتل زوجته او ابنته لدواعي الشرف وهي كلمة مطاطة قد تعني وقد لا تعني شيئا.

كانت نــورا وزوجها احمد علي وشك الانتهــاء من بناء قصرهما، وقررت نورا السفر الى اوروبا لشراء اثــاث ايطالي.. وكنا سنتوقف في طريقنا في مصر حتى يشاهد اطفال نورا الاهرامات.

وكان للـوالد (٢٢) بنتا من زوجـاته الاربع وكثيرا مـا كان يتمتم «ان النسـاء لعنـة» ولـم يكن راضيا عن ثورة بناتـه ضد الحكم المطلق للرجال.. وكانت احاديثنا وافعـالنا غير مسبوقة ومع ادراكنا بأننا لن نحقق ما نصبو اليه، لكن احاديثنا عن امور محظورة كانت بحد ذاتها انتصارا لنـا لان النساء السعـوديات لا يمكن ان يتماديـن في الامور التي كنا نبحثها في منزلنا.

وقررت نورا ان ترافقنا الوالدة في الرحلة، لكن الوالدة كانت هادئة وواجمة منذ عودة سارة، وكأن ثورتها الوحيدة ضد استبداد الوالد قد اثرت عليها كثيرا واستنفذت الحيـوية من جمسها، لكنها شجعتنا على الرحلة وكانت رغم في ان ترى ســارة ايطاليا، واشارت الى صغر سني وكـانت تفضل بقـــائي في البيت لكنهـا رضخت في النهـايـة الى رغبتي في السفر مع شقيقـاتي. ولم تظهر سارة اي اهتمام بمشروع الرحلة رغام انها كانت ستشاهد روائع ايطاليا اما انا فقد كنت في غاية السعادة.

وتبدد سروري عنـدما اعلن علي بأنـه سيرافقنا في الرحلـة، وفكر والـدي انني بحاجـة الى وصيفة.. وشعـرت بغضب شديـد لأن علي سيرافقنا في الرحلة وصممت على أهانتـه، فسحبت حطته وعقاله عن رأسه وركضت نحـو الحمام ولم تكن لدي فكـرة بما ينبغي ان افعله بحطته وعقالـه، لكن الرجل السعودي يعتبر نزع الحطـة والعقال عن رأسه اكبر اهـانة له، وكنت اشعر بحـافز قوي لايـذاء علي بأسرع ما يمكن.

ولحق بي علي متوعـدا بأنه سيخبر الـوالد ، واغلقـت باب الحمام خلفي فـانطبق الباب على رجلـه، وكان ينتعل صنـدلا جلديـا والذي حـدث ان انصفـاق الباب بشـدة ادى الى كسر اربع رجلـه الكبير كما جرحت يده... فارتفع صراخـه وصياحه حتى ظن الخدم بني سأقتله ومع ذلك لم يتقدم احد لنجدته.

وضعت الحطـة والعقال في التـواليت وبـذلت جهدي لانـزالهم في

المجاري، وانزلقت الحطة مع الماء واختفت في التواليت لكن العقال ظل عائما، وبذلت جهدي لانـزال العقال ايضا في التواليت لكني فشلت في ذلك رغم استعمال الخضـاضة...واندفع علي نحـوي بعصبية وبـدأ العراك بيننا فأمسكت الاصبع المكسور في قدمه ولويتها فزاد صراخه وتمكنت منه جيدا بحيث اشبعت غـريـزة الانتقـام في اعماقي حتى حضرت الـوالـدة وانقذتـه من بين يـديّ بعـد ان رويت غليل حقـي المتراكم عليه.

كنت ادرك باني ارتكبت عملا فظيعا.. وقلت في نفسي ان وضعي لن يكون أسوأ مما هو عليه.. وما ان غـادرت الوالدة وعمر المنزل برفقة علي الى الطبيب لعـلاجـه، تسللت الى غـرفته وجمعـت كافـة أشيـائه «السرية» وهي أشيـاء ممنوعة في بـلادنا كما ان الدين يمنعهـا. وهذه «الكنوز» السريـة اشياء عاديـة يجمعها المراهقون وحتى الـرجال في كافة انحاء العالم، غير ان امتلاكهـا في السعودية يعتبر جريمة كبرى.. وكنت قبل ذلك قد شـاهدت مجلات «بلاي بوي» في غـرفة علي، لكني اكتشفت في غرفته اشياء لم تخطر على بالي وهي مجموعة من الصور والمجلات الفاضحة بما في ذلك سلايدات، فاخذتهم الى غرفتي وبدأت تصفحهم.. رجال ونسـاء عراة يمارسن الجنس في اوضـاع عجيبة.. بل شهدت صورا جنسية بين حيـوانات ونساء.. ولا شك ان علي كان يعير هـذه الصور الى اصـدقـائه لوجـود اسمـه على كـافة المجـلات والصور والسلايدات.

كنت بريئة في ذلك الوقت ولم افهـم كل ما تعنيه تلك الصور، لكني كنت اعرب بأن هـذه الاشياء ممنـوعة لانه كـان يحتفظ بها على نحو سري في صندوق مغلق، وقد اكتشفت في غرفتـه كذلك زجاجات خمر كان احضرها معه من البحرين.

وفي السعودية تكثـر المساجد، لأن الحكومة تعطي الاولـوية لبناء المساجد بحيث لا يتغلب المرء في الوصول اليها.. ففي كل حي اكثر من مسجد.. وع ان الله يقبل الصلاة في اي مكان طالما توجه الانسان نحو

مكة.. غير ان ثمة افضلية للصلاة في المسجد.

ولأننا كما نعيش في منطقة باذخة كان جامع حينا مبنيا من الرخام.. وكان الوقت قد تجاوز صلاة الظهر... وقررت تنفيذ خطتي سرا دون ان يراني احد ذلك ان شيوخ المساجد انفسهم غالبا ما ينامون في الظهيرة لشدة الحرارة في بلادنا.

فتحت باب المسجد بحذر وتسللت الى الداخل وانا على قناعة بان وجودي لن يثير اهتمام احد.. وكنت قد اعددت قصة لابرر فيها سلوكي في حالة الامساك بي وهي ان قطتي الصغيرة هربت من البيت باتجاه المسجد واني ابحث عنها.

كان المسجد مكيفا.. فتسللت الى الداخل بهدوء وسبق ان رافقت والدي علي الى المسجد غير مرة لكني كنت اقف خارج المسجد انتظرهما الى حين انتهاء الصلاة. ففي السعودية يحظر على الاناث دخول المساجد مع ان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يمنع النساء في عصره من دخول المساجد.

ولم اجد احدا في المسجد..فأسرعت الخطو على الارضية الرخامية... كان صوت وقع أقدامي يصاعد مع دقات قلبي.. ثم وضعت الحقيبة التي تحتوي على كنوز علي عند باب السلم المؤدي الى الشرفة التي تحتوي على مكبرات الصوت الذي ينطلق منها الآذان خمس مرات باليوم يدعو الناس الى الصلاة.. وشعرت بأني ارتكب خطيئة كبرى. لكني تذكرت عجرفة علي وتهديده لي بأن والدي سيضربني ضربا مبرحا.. وعدت الى البيث وانا راضية ومرتاحة لأني سأنتقم من علي.

وفي امسية ذلك اليوم حضر ثلاثة مطوعين الى بوابة المنزل.. ونظرت مع ثلاث خادمات فليبينيات من نافذة سلم الدرج وشاهدنا المطوعين ينادون على عمر ويشيرون بغضب الى السماء والى كتب ومجلات علي التي كانت بأيدهم.. وشعرت برغبة في الضحك لكني

حافظت على هدوئي.

والمعروف ان كـافة الاجانب وحتى السعـوديين انفسـهم يخافون من المطوعين لان صـلاحياتهم واسعة ويراقبون الجميع.. بل ان افراد الاسرة المالكة يتجنبون اثارة اهتمام المطوعين..

وكانت احدى خادماتنا الفليبنيـات قد اثارت غضب احد المطوعين قبل اسبوع لانها كـانت ترتـدي جونلة «تنـورة» إلى ما تحت الـركبة بقليل في السوق، ضربها المطوع بعصـا ورش على سـاقيها طلاءا احمر. ومع ان حكومتنا لا تسمح للسياح بدخول بلادنا لكن يوجد الكثير من النساء الاجنبيات اللواتي يعملن كممرضات او سكرتيرات ا وخدامات او جليســات اطفـال، وكثيراما تتعـرض هـؤلاء الاجنبيـات لغضب المطوعين حتى ولــو كانت الاجنبية طاعنــة في السن وكشفت عن جزء من ساقيها فأنها تتعرض للضرب العصـا او رش سـاقيها بطلاء احمر.

والذي حـدث ان الخادمة الفلبينية شعـرت بالذعـر واعتقدت أن المطـوعين حضروا حتى يأخــذونها الى السجن فهـربت واختبأت في سريري.. وحــاولت تطمينها لكنــي وجدت ان الاحتفــاظ بسري اكثر اهمية من تطمين الخادمة الفليبينية.

كان عمر شـاحبا ويرتعش من الخوف عندما دخل الى المنزل ينادي بصوت عــال على علي. وشـاهـدت عليا يستجيـب للنداء ويهرول على رجلـه اليسرى وكعب رجله اليمني... كـان يمشي كالاعـرج.. ولحقت امي وعلي الى غرفة الجلوس حيث بدأ عمر يتصل بالهاتف مع الوالد في مكتبه.. كان المطوعون قد غادروا بوابة المنزل بعد ان تركوا عينات من كنوز علي مع عمر بما في ذلك مجلة وصور وسلايدات وزجاجة خمر. اما الباقي فقـد احتفظوا فيه كدليل وبينة على جـريمة علي.. نظرت الى وجه علي الذي كـان مصعوقا الى درجة الذهول عنـدما رأى جزءا من كنوزه في حضن عمر.

ورمقني عمـر بنظـرة حـادة وطلب مني مغـادرة الغـرفـة لكني

تمسكت بثوب والدتي فربتت على رأسي.. كانت الـوالدة تكره الطريقة التي يعاملنا بها عمـر.. المهم ان عمر تجاهلني لصغر سني وطلب من علي ان يجلس واخبرنا بـان الوالـد في طريقه الى المنـزل وان المطوعين ذهبوا لاحضار رجال الشرطة وانه «سيتم اعتقال علي»

قال عمر ذلك بلهجة قاطعة.

كـان الصمت في الغرفـة يشبـه الهدوء قبل العـاصفة، وشعـرت بـالذعـر هنيهـة، ثم ان علي تمالك نفســه وبصق على عمر قـائلا: «لا يستطيعـون اعتقالي فأنـا امير.. ان هؤلاء المطـوعـة ليسوا اكثـر من حشرات حقيرة» وفكرت بان السـجنلنلي ينزل الاذى بعلي.

وسمعنا فرامل سيارة الوالـد وسرعان ما دخل الى المنزل والشرر يتطاير من عينيه.. وتناول كنـوز علي وبدأ يتفحصها.. نظر الى المجلة الفاضحـة ورمق علي بنظرة بركـانية.. ثم قـذف بزجاجـة الويسكي جانبـا دون اهتمام لان بيوت الامراء السعوديين لا تخلـو من الخمر، لكن عندما شاهد علي ضوء مصباح ذلك السـلايد الذي تظهر فيه امرأة تمارس الجنس مع كلب صرخ بوالدتي وبي ان نغاد ر الغرفة.. وما ان غادرنـا الغرفـة حتى انهال ضربا على علي.. كـان يومـا عصيبا لعلي، ويبـدو ان المطوعين عـدلوا عن فكـرة ابـلاغ الشرطة وهـو ما كـان سيؤدي الى اعتقال احد الامراء.. ذلك انهم عـادوا بعد ساعات وبدأوا الحديث مع الوالد وكان الحوار ساخنا.

كنا في عام ١٩٦٨ ولم يكن الملك فيصـل يتسامح على الاطلاق مع الامراء الشباب.. لقد كان حازما في هذه الامور، ولذلك كان المطوعون يشعرون بقوتهم لانهم كانـوا على قناعة مثل والدي بأن الملك فيصل وهو عم والدي اذا شاهـد كنوز علي فقد يعاقبه عقابـا شديدا.. وكان الملك فيصل يطلب باستمـرار من اشقائه وابنـاء عمومته ان يـراقبوا اولادهم حتى لا يثيروا رجـال الـديـن ضـد اسرة المالكـة.. وفي نفس الوقت كـان يؤكد لـرجال الدين بأنـه يقود البلاد نحـو التحديث مع التمسك بمبادىء الاسلام واخذ افضـل ما في الغرب والشرق.. وكان

المطوعون يـرون انه لا يوجد في الغـرب سوى الشرور وافضل دليل على ذلك سلوك الامراء الذين زاروا او عاشوا في الغرب، ولذلك اعتبروا كنوز علي دليلا جديدا على فسـاد وانحطاط الاسرة المالكة.

كان المطـوعون يتحـدثون بصـوت عال مع الـوالد حـول العقاب المناسب لعلي.. ولا شك ان علي كان محظوظا لانه امير ابن امير.. وكان المطوعون يدركون بأنه لا يمكـن محاكمة امير سعودي بدون موافقة الملك.. ونـادرا ما حوكـم امير سعودي.. ولكن لـو كان علي من عـامة الشعب او اجنبيا لانزلت به اقسى العقوبات.

وكانت اسرتنـا تعرف قصة شقيق احد السـائقين الفليبيين الذين يعملون عندنـا.. فقل اربع سنوات اعتقل ذلك الشقيق الذي يعمل مع شركة انشـاءات ايطالية وبحـوزته فيلم فاضح وحكم عليـه بالسجن سبع سنوات بـالاضافة الى جلدات بـالسوط كل يوم جمعـة.. وكان سـائقنا يـزور شقيقه في السجن وكثيرا مـا بكى وهو يخبر علي بـان جسـد شقيقه اصبح اسـود اللـون بسبب السياط وانـه يخشى على شقيقه من الموت قبل ان يكمل المحكومية.

ولسوء حظ علي كانت جـريمته واضحة.. لقد كـان اسمه مسجلا بخطه على كنوزه.. وفي النهاية تم التوصل الى تسوية حيث تبرع الوالد بمبلغ من المال للمسجـد وتعهـد علي بـالصـلاة في الجامع الفـروض الخمسة يـوميا حتى يـرضي رجال الـدين بعد ان يـرضي الله ويطلب غفرانـه على جريمـه الشنعاء.. وكـان المطوعون اول مـن يعرف بأن الامراء الشبـاب لا يقومـون بواجبـاتهم الدينيـة، وان العقوبـة التي فـرضت على علي بالتـالي تكفي.. وتم ابلاغـه بضرورة مقابلـة رئيس المطوعين في المسجد قبل كل صلاة طيلة سنـة كاملة باستثناء الفترات التي يكون فيها خارج البلاد.. ولأن علي كان ينـام يوميا حتى السـاعة التاسعة صباحا فقد جفل من فكرة الصلاة وبالاضافة الى ذلك فرض

عليه المطوعون ان يكتب الف مرة العبارة التالية: «الله اكبر.. لقد اغضبت الله لاني اتبعت طريق الغرب الكافر والفاسد وعديم الاخلاق» وكان الشرط الاخير الذي اشترطه المطوعة ان يكشف علي عن اسم الشخص الذي زوده بتلك الاشياء...والحقيقة ان احدا لم يزوده بها بل انه هو الذي احضرها معه من رحلاته الخارجية لان رجال الجمارك في المطارات السعودينة لا يفتشون حقائب الامراء.. وتبين ان علي اشترى السلايدات فقط من اوروبي في احدى الحفلات داخل السعودية... وحتى ينقذ نفسه ابلغهم بأنه استلم كافة كنوزه من ذلك الاوروبي وزودهم باسمه وعنوان عمله .. وعلمنا بعد ذلك بأن المطوعين اعتقلوا ذلك الاوروبي وجلدوه وابعدوه عن البلاد.

شعرت بالانزعاج والخوف ذلك ان ما فعلته الحق العار بالعائلة كلها.. كانت خطتي هي ايذاء علي لوحده لكن الذي حدث ان والداي تضررا وتأثرا كثيرا كما عوقب اناس ابرياء كذلك الاوروبي الذي اتخذه علي كبش فداء.. ويخجلني ان اقول بأن اكثر ما كان يهمني هو عدم اكتشاف الحقيقة في اني كنت المسببة الرئيسية االوحيدة لهذه الورطة.. وصليت الى الله داعية الا يكتشف احد حقيقة اني المسببة بهذه المشكلة التي هزت العائلة وعاهدت نفسي بأن اسلك طرقا مستقيمة بعد ذلك.

وقام عمر بمرافقة المطوعين حتى البوابة، وانتظرت مع الوالدة عودة الوالد مع علي الى غرفة الجلوس اةلجلوس. كانت انفاس الوالد متقطعة وامسك علي من ذراعه ودفعه امامه نحو درج الطابق الثاني.. والتقت عيناي بعيني علي وادركت بأنه عرف بأني المجرمة واني سبب كل هذه المشكلة.. كان علي يعاني عذابا عميقا اكثر منه غاضبا.

وانهالت دموعي فجأة.. وبدأت اجهش في البكاء.. لقد شعرت بفظاعة الفعلة التي قارفتها.. ونظر إليّ الوالد باشفاق ثم طرد علي

قائلا انه الحق العار الاسرة كلهـا بما في ذلك الاطفال الابرياء، ولأول مرة في حياتي اقترب مني الوالد وحملني بين ذراعيه واخذ يربت على ظهري ويقبلني.

شعرت بتعاسـة حقيقية.. فها انا اشعـر بلمسة الحنان التي كنت اتوقعها وارغبها من والدي طيلة عمري.. لكنني لا استحقها لانني كنت سبب هذه الورطة وعلى اي حال أنجزت جريمتي الهدف المرجو لان احدا لم يعـد يذكـر الاصبع المكسور في قدم علي ولا مـا فعلته عنـدما وضعت حطتـه وعقالـه في التواليت.. وهكـذا تلغي الاحداث بعضـهـا بعضا.

الرحلـــة

رغم الفضيحة الاخيرة التي تعرضت لها الاسرة ، ظلت الرحلة قيد التخطيط لكن افتقدت البهجة والسرور ، ومع ذلك رتبت حقائبي وكتبت قائمة ببعض الحاجات والضرورات وبينما كنت منهمكة في ذلك شاهدت علي عند غرفة نومي ينظر لي بحقد وريبة ، ولم يكن علي في الماضي يعيرني أي اهتمام ... كان يوبخني أحياناً أو يدفعني من أمامه بشيء من اللامبالاة وكأنني لا أستحق الالتفات ... لكنه كان يرمقني هذه المرة بنظرات مختلفة ... فقد اكتشفت بأني أنا البنت الصغرى في الاسرة ليست بريئة ولا بسيطة بل خصماً جديراً بالاهتمام والانتباه والحذر .

وفي يوم الانطلاق الى رحلتنا احتجنا ست سيارات ليموزين حتى تنقلنا الى المطار ... كنا (أحد عشر) شخصاً : نورا وأحمد وثلاثة من أطفالهم الخمسة وخادمتين فليبينيتين وسارة وأنا وعلي وصديقه هادي .

كان هادي أكبر من علي بسنتين ويدرس في معهد ديني في الرياض ، وهو المعهد الذي يدرس فيه الشباب الذين يطمحون أن يصبحوا مطوعين .. وكان هادي يؤثر على الشباب بما يحفظه من القرآن الكريم وحديثه ورزانته ، واعتقد والدي أن وجود هادي معنا سيكون له تأثير طيب علينا .. وكان هادي لا يكف عن الحديث في أمور الدين ومهاجمة النساء اللواتي يعتقد بأن مكانهن الوحيد هو المنزل ... وكثيراً ما سمعته يقول لعلي أن النساء هن مصدر الشرور كلها في الارض .

وشعرت بأنها ستكون رحلة ممتعة وسارة رغم وجود علي وهادي معنا .

ولم ترافقنا الوالدة الى المطار لأنها كانت في حالة احباط واكتئاب

منذ بضعة أيام ، وأدركت بأن كنوز علي أثرت عليها ... المهم أنها ودعتنا في الحديقة ولوحت لنا بيدها عندما ابتعدنا بسيارات الليموزين . ومع أنها كانت محجبة شاهدت دموعها تتساقط من تحت الحجاب ، كان ثمة شيء يقلق الوالدة ويشغل تفكيرها ، لكني لم أفكر بذلك كثيراً سيما واننا منطلقون في رحلة تنطوي على احتمالات شتى .

كان أحمد قد اشترى مؤخراً طائرة خاصة به وبالتالي كانت رحلتنا عائلية بحتة ... ونظرت في غرفة القيادة لعل الامريكيين اللذان طارا بنا من الرياض الى جده هما اللذان يقودان الطائرة ... وخاب أملي عندما لم أجدهما ... كان مكانهما طيارين بريطانيين لكنهما لطيفان وودودان .. وكانت الاسرة المالكة تستخدم عدداً من الطيارين الامريكيين ـ البريطانيين .. وشاهدت أحمد يتحدث مع الطيارين البريطانيين بينما استقرت نو والخادمات والاولاد في المقاعد .

وأزالت سارة حجابها وكانت تحتضن كتبها الفنية ، ونظر هادي اليها نظرة تنطوي على الاستياء لأنها كشفت عن وجهها وهمس بغضب في أذن علي فتقدم علي منها وطلب منها أن تعيد الحجاب الى وجهها الى حين مغادرتنا السعودية ... وردت سارة عليه بأنها لا تستطيع القراءة والحجاب على وجهها والافضل له الا يتدخل في شؤونها .

وهكذا بدأت المشاكل حتى قبل اقلاع الطائرة ، وحاولت ان أدوس على أصبع قدم علي لكني أخطأت .... وضربني علي على رأسي فابتعدت عنه ، ولأن أحمد هو الذكر الاكبر سناً فقد كان المرجع الاخير وله سلطة علينا جميعاً ... وصرخ أحمد فينا وطلب أن نجلس هادئين بينما تبادل نظرة مع نورا كانت تنطوي على تساؤل حول الحكمة من احضارنا معهما .. أي أن دعوته لنا أنا وسارة وعلي ربما كانت خطأ .

ان أقدس ثلاثة أماكن عند المسلمين هي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس ... وقلة هي الاكثر قداسة ويتوجه لها زهاء مليار

مسلم في صلاتهم لأن القرآن نزل فيها ... ولأن من أركان الاسلام الحج إلى مكة على كل قادر ولو مرة واحدة في العمر . أما المدينة المنورة فهي مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفيها قبره .. والمدينة المقدسة الثالثة هي القدس التي سرى اليها سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعرج منها الى السماء ، ويبكي المسلمون كثيراً عندما يذكرون القدس التي يحتلها اليهود الان .

وإذا كانت مكة والمدينة والقدس هي الاماكن الاسلامية المقدسة ، فإن القاهرة هي مبعث فخار المسلمين ويعود تاريخها الى خمسة آلاف سنة ، كما أن حضارة مصر عريقة في التاريخ .

وفي القاهرة المدينة التي تعج بالحركة والنشاط تحولت الى امرأة لأول مرة حيث جاءني الطمث وبذلك أصبحت مراهقة ولا شك أنه حادث فريد في حياة كل أنثى ، انه حادث الانتقال من الطفولة الى البلوغ .

والبلوغ في السعودية يعني الحجاب وارتداء العباءة . وعادة ما يكون الحجاب أسود اللون غير أن وزنه يختلف حسب الخيارات المتاحة .. وقد يكون الحجاب رقيقاً أو سميكاً . والرقيق يكشف بعض ملامح الوجه .. وعادة ما تلجأ النساء المحافظات الى ارتداء قفازات وجوارب سوداء بحيث لا يظهر من جسدها أي جزء اطلاقاً .

وعندما تبلغ الفتاة ترافقها أمها الى المخازن المتخصصة ببيع أو تفصيل الحجاب والعباءة وغير ذلك من المستلزمات فتخرج الفتاة من المخزن أخرى ... ونادراً ما ينظر الرجال الى المراهقة غير المحجبة ... أما عندما تتحجب فان الرجال في بلادي يلتهمونها بنظراتهم وهم يتخيلون كيف يمكن أن يكون شكل هذه الانثى الملفوفة بالسوداء من رأسها حتى قدميها .

لكني الان في القاهرة وليس في السعودية ، ولذلك كانت حادثة الحيض الاول مجرد ازعاج بسيط وأرشدتني سارة ونورا أن ما

ينبغي ان أفعله . كما طلبتا مني عدم ابلاغ علي بالامر لأنه كان سيطالب بارتدائي الحجاب فوراً حتى ولو كنا في القاهرة . ونظرت الى سارة نظرة طويلة وعانقتني ... كانت تعرف بأنني من ذلك اليوم سأعتبر خطراً وتهديداً على رجال أسرتي الى حين أن أتزوج وأسجن خلف الجدران والاسوار .

كان أحمد يملك بيتاً كبيراً وسط القاهرة يتألف من ثلاثة طوابق ... احتل مع زوجته نورا الطابق الثالث بينما أقمت أنا وسارة والخادمتان الفليبينيتان والاطفال الثلاثة في الطابق الثاني وأقام علي وهادي والخادم المصري في الطابق الاول ... وشعرت بالسرور مع سارة لهذا الترتيب الذي يبعد عنا علي وهادي. في أول أمسية لنا في القاهرة قرر أحمد الذهاب مع نورا وعلي وهادي الى ناد ليلي لمشاهدة الرقص على أن أبقى مع سارة والخادمتين للعناية بالاولاد ، لكنني توسلت اليه أن يأخذنا .. ووافق على اصطحابي وسارة .

كنت في الرابعة عشرة وشعرت بسرور طافح في القاهرة التي أحببتها كثيراً وما زلت أحبها ... لقد أثارتني هذه المدينة ... رجال ونساء يرتدون ملابس من كافة الاذواق والالوان ويتجولون في الشوارع بحثاً عن مغامرة أو فرصة .. وأدركت ان حياتنا في السعودية حياة جافة ليس لها أي طعم ولا معنى واكتشفت ان الشعب المصري فقير جداً لكنه مقبل على الحياة ومباهجها ... والفقر ربما يحول الشخص الى شعلة أو طاقة للتغيير والثورة وبدون ذلك تتوقف الحياة ... وفكرت في بلادنا السعودية وأدركت ان درجة الفقر أو الحاجة لا بد ان تتسلل الى حياتنا وتضطرنا لتجديد حياتنا الروحية .

نعم يوجد في بلادي عدة طبقات أجتماعية ابتداء بالاسرة المالكة بالغة الثراء وحتى الاسر العاملة ذات الدخل المحدود ، غير أن الخدمات الضرورية متوفرة للجميع بما في ذلك العمال الاجانب ، كما أن حكومتنا تساعد الاسر السعودية وتضمن منزلاً لكل سعودي

بـالاضافـة الى الرعـاية الصحيـة والتعليم ووظيفة تـؤمن له دخـلاً محترماً وقـروضاً ميسرة بل ان الدولة تـدفع معونات ماليـة مباشرة للسعوديين عند الحاجة .

ولأن الحكومة السعودية تؤمن حاجات وضرورات المواطنين فقد تقلص طموحهـم كما تقلصت قدراتهم على الخلق والابـداع ، ونتيجة لذلك لا أعتقد أن الامور ستتغير في بـلادي ... فنحن أثرياء جداً وليس لـدنيا رغبـة في أي تغيير ... وعنـدما كنـا نسير في شـوارع القاهـرة الصاخبـة التي تضج بـالحركة تحدثت عن مـلاحظاتي هـذه لأفراد أسرتي ولم يستمع أي منهم سوى سارة التي اهتمت بما قلته وفكرت فيه .

ومـالت الشمس الى الغـروب خلف أفق الاهرامـات ، وكـان النيل يخترق المدينة ويخرج منها باتجاه الصحراء ، وشعرت بالحياة تتدفق في شراييني وأنا أراقب نهر النيل العظيم .

وغضب علي وهـادي لأني مع سـارة (ونحن غير متـزوجـات) سنذهب الى النادي الليلي ... وتحدث هادي طـويلاً مع علي وبأسلوب ينطوي على الغضب بأن أسرتنـا لا تتمسك بتعاليم الاسـلام ... وقال بنوع من الزهـو أن كافة شقيقاته تـزوجن وهن في الرابعة عشرة من العمر وأن رجـال أسرته أحسنـوا تربيتهن وحمايتهـن ... واستطرد يقول أنـه بصفة رجل دين سيخبر والـدي بكل شيء لدى عـودتنا ... وجابهته مع شقيقتي سارة بأنه لم يصبح بعد رجل دين .

في النـادي الليلي كان هـادي يلتهم الـراقصات بعينيـه ، كما تلفظ بتعليقات سمجه عن أجسادهن ثم وصفهن بكلمات نابية وقال لو أن الامر بيده لرجمهن بالحجارة ويبدو أن علي ضاق ذرعاً به فأخذ ينقر بأصابعه على المائدة ويتلفت يمنة ويسرة .

بعد موقف هـادي وتعليقاته ، دهشت جداً من تصرفـاته في اليوم التالي ... لقد استأجـر أحمد سيارة ليموزين مع سائقهـا حتى نذهب

للتسوق بينما ذهب أحمد لمقابلة رجل أعمال ، أما الخادم المصري الذي كان يعمل سائقاً أيضاً فقد أخذ الخادمتين والاولاد الى بركة فندق دنيا هاوس ... وعندما غادرنا المنزل كان علي وهادي يشعران بالاعياء والتعب من سهرة الامس .

وسرعان ما تعبت سارة بسبب حر القاهرة وعرضت عليها العودة معها الى المنزل وترك نورا تتسوق لوحدها ... ووافقت نورا فعاد بنا السائق وأوصلنا الى المنزل ثم لحق بنورا الى المكان الذي عينته له.

عندما دخلنا المنزل سمعنا صراخاً مروعاً فتوجهت مع سارة نحو مصدر الصوت وهي غرفة علي وهادي ... كان الباب مشرعاً وشاهدنا ذلك المنظر الذي لا يمكن أن أنساه ... كان هادي يغتصب بنتاً لا يزيد عمرها عن ثماني سنوات ... وكان علي يمسك بالبنت ... وبقع الدم في كل مكان بينما كان علي وهادي يضحكان .

وأمام المشهد الصاعق فقدت سارة السيطرة على نفسها وبدأت تصرخ وتركض في أرجاء الشقة ... وذهل علي واصفر لونه وأزالني من طريقه بأن ضربني بكل قوته فأوقعني أرضاً .... لكن نهضت ولحقت بسارة الى غرفتنا حيث عانقتها ... غير أن الصراخ استمر في الطابق الاول فزحفت الى الدرج وكنت أفكر القيام بعمل ما عندما قرع جرس الباب ... وشاهدت علي يتوجه الى الباب ويتحدث مع امرأة مصرية في الاربعين من عمرها . ثم ناولها (١٥) جنيهاً مصرياً وسألها ما اذا كان لديها بنات أخريات ، فأجابته بالايجاب ووعدته بالعودة وفي اليوم التالي . بينما كان هادي قد قضى غرضه من البنت فدفعها بيده وهي تبكي فأمسكت المرأة بيدها بدون أي عاطفة رغم بكاء البنت وأخذتها الى الخارج وأغلق علي الباب .

والعجيب أن أحمد لم يشعر بالدهشة عندما أخبرته نورا بالحادث . واكتفى بالقول أنه سيبحث عن التفاصيل وفيما بعد أبلغ نورا بأن المرأة هي والدة البنت وأنها سلمت ابنتها لعلي وهادي باختيارها

وبالتالي لا يوجد ما يستطيع أن يفعله .

ورغم الامساك بعلي وهادي بالجرم المشهود ، غير ان تصرفاتهما لم تختلف اطلاقاً وكأن شيئاً لم يحدث ، وعندما صرخت بهادي وسألته كيف يمكن أن يصبح رجل دين ضحك طويلاً ... والتفت الى علي وحذرته بأني سأخبر الوالد بما شاهدته فضحك أكثر من هادي قائلاً : « أخبريه بما يحلو لك ... فلا يهمّني ذلك »

وأضاف بأن الوالد هو الذي زوده باسم رجل مصري حتى يتصل به لهذه الغاية أي تأمين البنات ، وابتسم وهو يقول ان البنات الصغيرات أكثر متعة وأن الوالد يفعل الشيء نفسه عندما يحضر الى القاهرة .

شعرت وكأني تلقيت صدمة كهربائية عنيفة ، وأن رأسي يحترق وفغرت فاهي بذهول وأنا أنظر نحو شقيقي غير مصدقة ما تفوه به .. لكنه كان واثقاً مما يقول ... عند ذلك أدركت أن كافة الرجال شريرون ، وتمنيت لو أستطيع ازالة ذلك الحادث من ذاكرتي والعودة الى براءة الطفولة ... وتركت علي وابتعدت وأنا أفكر بماذا عساني اكتشف أيضاً عن قسوة الرجال في هذا العالم .

وما زلت أعتقد بأن القاهرة مدينة رائعة لكن النساء والانحطاط الذي يسببه الفقر جعلني أعيد التفكير بملاحظاتي السابقة ... وفي وقت لاحق من ذلك الاسبوع شاهدت تلك المرأة المصرية تقرع الباب ومعها فتاة صغيرة أخرى ... وفكرت باستجوابها كيف تستطيع أم أن تبيع جسد ابنتها على هذا النحو ... وعندما شاهدت كيفية تحديقي بها ولت الادبار راكضة لا تلوي على شيء .

وتحدثت أنا وسارة مع نورا ساعات طويلة حول هذه الظاهرة العجيبة ... وتنهدت سارة وهي تقول أن أحمد أخبرها بأن بيع أجساد البنات هو طريقة حياة شائعة في عدة أقطار حول العالم ... وعندما قلت بأني أفضل الجوع على بيع ابنتي ردت نورا قائلة : « من السهل

قـول ذلك طـالما أنك لم تعاني الجوع في حيـاتك » غـادرنـا القاهـرة وفظائعهـا ... واقتربت فرصـة سارة لمشـاهدة مباهج ايطاليـا ... وقد قالت بعد ذلك أن ايطاليا في الـواقـع أجمل وأروع مما كانت تتخيله ... وتجولنا في رومـا والبندقيـة وفلورنسـا وما زال ضحـك الايطاليين ومـرحهم يـرنـان في أذني ... أنهم شعب يحب الحيـاة ، بل ان حبهم للحياة أكثر من مساهمتهم العظيمة في الفن والهندسة المعمارية .

وفي مدينة ميلانو أنفقت نورا مبـالغ طائلة كانت تتسوق مع أحمد بشكل جنوني وذلك حتى يعوضا بعض الفراغ في حياتهما :

أما علي وهادي فكانا يمضيـان الوقت في شراء النساء خاصة وأن شوارع ايطـاليا تغص بالنســاء الجميلات اللـواتي على استعداد لبيع أجسادهن لمن يدفع السعر المنـاسب ... واكتشفت بأن علي أناني أكثر مما كنت أظن وأن شيئاً لا يهمه في الحياة كالمسرات ، لكن هادي شرير أكثر منه ... كان يرغب في النســاء ويكرههن في نفس الوقت كما يكره النظام الذي يتيح لهن هذه الحرية لفعل ما يحلو لهن ... وتناقضه هذا ينطبق على معظم السعوديين .

وعندما عادت بنا الطائرة وهبطت في الرياض أعددت نفسي للتحول الى امـرأة .... وأن مصيراً صعباً ينتظـرني .... كنت أحـاول التمسك بأيـام الطفولـة طبعاً غير أن ذلك لا يجدي ... فـلا بد من الحجـاب ... وأدركت بأن حياتي الجديـدة ستكون صراعاً ضد العـادات والتقاليد البـالية في بـلادي . لكن مخاوفي حـول مستقبلي تبـددت بسرعة بعـد وصولنا الى المنزل ... فقد كانت والدتي على فراش الموت .

نهايـة الرحلـة

الموت هو الحقيقـة الاولى في الحياة. ولأنها أمرأة متـدنيةومـؤمنة بالقرآن وسنة سيدنـا صلى الله عليه وسلم لم تشعر والدتي بأي نوع من الاسى لانتهاء رحلة حياتها.

فلقد قـامت بواجباتها الـدينية على افضل وجه وكـانت تدرك بأن الجنة تنتظرهـا.. لكنها كانت تشعر بالقلق على بنـاتها غير المتزوجات لأنها كانت ملاذنا وبالتالي كانت تعتقد بأننا سنضيع بعدها.

واعترفت الوالدة بأنها شعرت بدنو أجلها حتى قبل ان تبدأ رحلتنا ، ولم يكن هناك أي اسـاس لمشاعرهـا تلك باستثنـاء رؤى أتتها على شكل احلام.

كان والدها ووالـدتها قد توفيا بالحمى عندمـا كانت في الثمنة من عمرهـا، ولأنها وحيدتهما فقد كانت تعتني بهما في اثنـاء مرضهما.. وذات يوم هبت عاصفة رملية فنهض والدها على مرفقيه وابتسم نحو السماء ونطق بأربع كلمات (ها هي الجنة أمامي) ثم سقط رأسه على الـوسادة وفـارقته الحيـاة. وتوفيت والـدتها بعده بيـوم... لم تبق الوالدة وحيدة بل انتقلت الى بيوت اشقـائها المتزوجين الى ان تزوجها والدي وهي في سن مبكرة.

كان والدها كما علمنا منها رجـلا طيبا وحنونا.. وكان يحبها كما يحب اولاده.. وبينما كـان الـرجـال الاخـرون في القبيلـة يشعـرون بالاستياء اذا انجبت زوجاتهم بنتـا كان والدي يضحك منهم ويقول لهم اشكروا الله الذي رزقكم بلمسة حنان في بيوتكم.. وكانت والدتي تؤكد بـأنها ما كانت لتتزوج في وقت مبكـر لو عاش والدهـا لأنه كان سيمنحها سنوات اضافية من الحرية.

جلست مع سارة الى جانب سرير الوالـدة وهي تروي لنا احلامها المزعجة. وقـد رأت أول حلم كما علمنا قبـل محاولة سـارة الانتحار. قالت الوالدة ؛ «شاهدت نفسي في خيمة بدوية تشبه الخيمة التي عشت فيها طفولتي.. ودهشت لاني شاهدت والدي ووالدتي في صحة جيدة الى جـانب مـوقـد وركـوة قهـوة.. وسمعت اصـوات اشقـائي وهـم يحضرون الغنم من المرعى واقتربت من الـوالـد والوالـدة لكنهما لم يشاهداني بل انهما لم يسمعاني عندما تحدثت معهما... وحضر اثنان من أشقائي وهما المتوفيان وجلسا الى جـانب والدي ووالدتي وبدءا يحتسيـان حليب ناقـة دافئـا.. بينما استمر والـدي في تحميص حب القهـوة.. وانتهى الحلم ووالـدي يلقي شعرا عن الجنـة التي تنتظـر المسلمين الذين يقومون بواجباتهم الدينية».

وانتهى الحلم ولم تفكر فيـه الوالدة كثيرا واعتبرتـه مجرد اشارة من الله تعالى بأن والديها وشقيقيهم يعيشون في الجنة.

وبعد اسبـوع من عودة سارة الى المنـزل.. شاهدت الـوالدة حلماً آخر.. حيث رأت كـافة افراد اسرتها الميتين يجلسون في ظـلال نخلة.. كـانوا يتنـاولون طعـامـا طيبا في صحـون فضية.. لكنهم هـذه المرة شاهدوها ونهض والدهـا يرحب بها ويستقبلها وامسك بيدها وطلب منها الجلوس معهم وتناول الطعام.. فذعرت الوالدة وحاولت الهرب لكن والدها شـد على يدها فقالت لـه ان لديها اطفالا بحاجة لـرعايتها وتوسلـت اليه ان يتركها.. عنـد ذلك نهضت والدتها مـن تحت النخلة ووضعت يدها على كتفهـا قائلة: «يا فضيلة (وهـذا هو اسم والدتي) ان الله سيعتني ببناتك.. وقد حان الوقت لأن تتركينهن برعايته».

واستيقظت والـدتي من الحلم وهي على قنـاعـة بأن أيـامهـا على الارض اصبحت معدودة.

وبعد اسبوعين من انطلاقنا في رحلتنا بدأت الوالدة تشعر بالام في ظهـرها ورقبتهـا والغثيان مع دوخـة كـانت الالام بمثابـة رسالـة وادركت بأن عمـــرهــا قصير.. وراجعت طبيب العـائلـــة واخبرتـه

باحلامها وآمالها.. فسخـر من الاحلام لكنه بعد ان فحصها تبين انها تعاني من مرض خطير في عمودها الفقري وهو من الامراض العصية على العلاج.

وكان آخر احلامها بعد ان عـرفت بخطورة مرضها حيث شاهدت نفسها مع اقـربائهـا المتوفين تأكل وتشرب بسرور بالـغ.. كانت مع والديها وجدي واشقائي واعمامها المتوفين.. وابتسمت الوالدة عندما شاهدت اطفالا يزحفون في الحلم يطاردون الفراشات وسط الحقول.. وابتسمت والدتها لها قـائلة: «لماذا لا تعتنين يا فضيلة بـاطفالك؟ ألم تعر في أبناءك؟»

وسرعان مـا لاحظت الوالـدة ان الاطفال هم ابنـاؤها المتـوفون.. فتجمعـوا في حضـنها وبـدأت تـلاعبهم وهكذا اقتنعـت الوالـدة بأنها ستموت.

ولم تعـان الوالـدة كثيرا من مرض مـوتها.. واعتقد ان الله تعـالى يعرف الاوقات العصيبـة التي عاشتها وطيبتها وحبهـا للخير ولذلك جنبها العذاب والالم في موتها.

كنا نحيط بسريرهـا من كل جانب وقلوبنـا تخفق بحبها ونظرت الينا واحدة تلو اخرى.. ولم تتفوه بكلمة.. لكنا شعرنا بأنها تودعنا.. وعنـدمـا نظـرت في وجهي شـاهدت ان مـلامحهـا تغيرت قلقـا على مصيري، فقد كـانت تعرف ان شخصيتي القـوية وعـدم استعدادي للانحنـاء امام الريح ستسبب لي الكثير من المشـاكل في حياتي وبأني سأعاني اكثر من شقيقاتي.

وتم غسل جسدها وتجهيزهـا حسب الشريعة الاسلامية من قبل عماتنا استعدادا لدفنها.. وشاهدتهم وهم يلفون جسدها بكفن الكتان الابيض، كـان جسدها نحيفـا لكثرة مـا حملت من الاطفال مـن جهة وبسبب مرضها من جهة اخرى.. وبدا وجههـا هادئا وخاليا عن كافة الهمـوم الارضية.. كما بـدت اصغر من عمـرها في الحيـاة العاديـة..

لـدرجة اني تسـاءلت كيف انجبت (١٦) طفلا لم يعش منهم سـوى عشرة.

واجتمع اقاربنا وزوجات والـدي وأولادهن في منزلنا حيث تليت آيات مـن القرآن الكريم، ثـم حمل جسد والدتي ووضـع في صندوق سيارة ليموزين سوداء قادها عمر.

والعادات الاسـلامية تمنع النساء من حضـور الجنازة، لكني مع شقيقاتي اصرينا على الوالد فاذعن بعد ان وعدناه بعدم البكاء..وهكذا تبعت الاسرة كلها سيارة الليموزين في قافلة هادئة وحزينة تتجه نحو الصحراء.

والاسلام يعتبر ان اظهار الحزن على الميت احتجاج على ارادة الله.. بالاضافة الى ان اسرتنـا اتت من منطقة نجد حيث لا يبكي الناس على الميتين.

كان الخدم السودانيـون قد اعدوا قبرا.. وتم انزال جسـد الوالدة فيه برفق ولم تتحرك عيناي لحظة عن القبر.

لقد كنت اصغر بناتها..وشاهدت العمال يهيلون التراب على القبر.. وعندمـا كنت اراقب التراب ينهـال داخل فوهـة القبر تذكـرت مقطعا للفيلسـوف اللبناني العظيم جبران خليـل جبران وهو: «ربما تكـون جنازة بعض الناس احتفالا بين الملائكة» وتصورت الوالدة الى جانب والدهـا ووالدتها وابنائها الـذين توفوا صغارا ثم تـوقفت عن البكاء وتوجهـت نحو شقيقاتي وانـا ابتسم دون تصنع وهو مـا اذهلهم.. فـاعدت عليهم مـا قـاله جبران خليـل جبران وعند ذلك فهمـوا سبب سروري.

وتركنا الوالدة في مقـرها الاخير في الصحـراء الفسيحة دون ان ان نضـع حجرا كعـلامة لقبرها.. كما ان احدا لم يتحدث فـوق قبرها عن بساطتها وطيبتها وكيف كانت شعلة من الحب والاخلاص في حياتها. لكن المؤكد ان الله كافأها وجمعها مع احبابها في السماء.

شاهدت علي حزينا وكان صادقا في حزنه.. ولم يجد الوالد ما يقوله لنا لكنه بدأ يتجنب زيارتنا منذ وفاة الوالدة.. كان يرسل لنا تعليماته بواسطة زوجته الثانية التي اصبحت رئيس زوجاته الان، وخلال شهر علمنا من علي بأن الوالد يستعد للزواج لأن امتلاك اربع زوجات هو امر طبيعي للاثرياء في بلادي.

ولا يجد الموسرون صعوبة في العدل بين الزوجات الاربع.. اما البدوي الفقير فيكتفي بنصب «اربعة خيم لزوجاته الاربع ويزودهن بما تيسير من طعام ولباس وحاجات اخرى، ولهذه الاسباب تجد الكثيرين من الاغنياء والفقراء يتزوجون اربع نساء بعكس الطبقة الوسطى التي يكتفي افرادها بزوجة واحدة وذلك لصعوبة توفير حياة لائقة لاربع زوجات.

كان الوالد يخطط للزواج من احدى بنات اعمامه اسمها «رندا» كنت العب معها في الطفولة وكانت في الخامسة عشرة من عمرها اي لا تكبرني الا بسنةو احدة.

وبعد اربعة اشهر من وفاة والدتي حضرت عرس والدي، وكانت مشاعري عدائية اذ كيف يتزوج والدي بعد وفاة والدتي التي انجبت له (١٦) طفلا عاش منهم (١١) وخدمته باخلاص طيلة عمرها.. وشعرت بالغضب لأن ذكرى والدتي اختفت من رأس والدي بهذه السرعة.

ولم يتركز الغضب على الوالد فقط بل على صديقتي القديمة رندا التي ستصبح الزوجة الرابعة لوالدي وتملأ الفراغ الذي أوجدته وفاة والدتي.

وكان العرس فاخرا والعروس شابة صغيرة... وتبدد استيائي من رندا عندما قادها والدي من يدها الى سرير الزوجية،و اتسعت عيناي وانا ارى القلق على محياها.. كانت شفاهها ترتجف هلعا، وكانت تبدو تعيسة وبائسة وهو ما حول عواطفي نحوها من الكراهية الى

التعاطف.. بل اني خجلت من عدائي لها لأني ادركت بأنها مثلنا جميعا بلا حول ولا طول امام سلطة الذكور في السعودية.

وسافر والدي مع زوجته الشابة لقضاء شهر العسل في باريس ومونت كارلو.. وبعد ان تغيرت عواطفي نحوها بدأت بانتظارها واقسمت ان اوقظ في زوجته رندا مشاعر الحرية وان اجندها لتحرير النساء في بلادنا.. ولن اكتفي بتزويد رندا بتحديات واحلام جديدة.. لكني سأجرح كرامة وكبرياء والدي ايضا عندما اوقظ زوجته الشابة واعلمها التمرد على سلطته..ولن أسامحه لأنه نسي ذكرى امي الرائعة.

الصديقات

بعد ان عاد الوالد ورندا من شهر العسل انتقلا الى منزلنا، وكان يتعين على رندا ان تعتبرنا حسب العرف والعادة كبناتها ولأن رندا كانت تكبرني بسنة واحدة كما انها إصغر من شقيقتي سارة فقد رأيت في ذلك العرف والعادات ما يبعث على السخرية والضحك.

ومع ذلك لا يوجد مجال للمناورة في السعودية او تغيير العادات وبالتالي بدأت رندا تتبختر في مشيتها كامرأة كبيرة وكسيدة للبيت.

عادت رندا من شهر العسل هادئة ومكسورة الخاطر.. كانت لا تتكلم ولا تبتسم وتمشي ببطء في الفيلا وكأنها ستلحق الأذى بشخص ما اذا اسرعت في مشيتها.. وكان الوالد مسرورا بها لأنه كان يختلي بها ساعات طويلة في غرفة نومها.

وبعد ثلاثة اسابيع من اهتمام الوالد غير الطبيعي برندا ، اطلق اخي علي نكته عن قدرة والدي الجنسية وسألت علي عن رأيه في مشاعر رندا الحقيقة عندما تتزوج شخصا اكبر منها باربعين سنة، وكانت لا تعرفه ولم يسبق لها احبته.. وقال علي انه لم يفكر في هذه الامور اطلاقا ويتعين على الزوجة ان تطيع زوجها وترضخ له حتى لو كان اكبر منها بمائة سنة.. وهذا ما اقنعني بأن انانية الرجل السعودي لا يمكن ان تتغير.

وكانت فلسفة رندا تختلف عن فلسفتي اذ انها تؤمن «بأن المكتوب على الجبين لا بد ان تراه العين» كما انها كانت خجولة جدا بعكسي.

وكنت الاحظ رندا وهي تراقب رقاص الساعة.. كانت تشعر بشيء من الارتباك قبل ساعات من حضور والدي في الاوقات المعهودة سواء للغذاء او بعد انتهاء عمله في المساء.. وكان تعليمات والدي لها ان تتناول طعامها قبل وصوله وان تأخذ حماما بعد ذلك وتهيء نفسها له.

وفي كل ظهيرة كانت رندا تأمر الطباخة بتقديم الطعام لها، حيث تتناول الوجبة بسرعة ثم تعود الى غرفة نومها وكان والدي يعود عادة في الواحدة ويتناول طعام الغذاء ويتوجه الى غرفة زوجته. وعند الخامسة كان يغادر الفيلا ويذهب الى مكتبه ويظل هناك حتى الثامنة «وفي السعودية يقسم يوم العمل الى مرحلتين الاولى تبد من التاسعة حتى الواحدة ظهرا وتبدأ الثانية من الخامسة حتى الثامنة مساء».

وعندما كنت اشاهد نظرات رندا المكسورة فكرت ان اسأل والدي عن تعاليم القرآن واوامر الله في انه ينبغي على الرجل ان يقسم وقته بين زوجاته الاربع، ذلك انه منذ ان تزوج رندا تجاهل زوجاته الاخريات، لكني عدلت عن الفكرة.

وهكذا كانت الامسيات تكرارا لوقت الظهيرة.. حيث تطلب رندا طعام العشاء... قبل الثامنة ثم تذهب الى جناحها حتى تستحم في صباح اليوم التالي بعدا يغادر الوالد المنزل.. اذ ان تعليماته لها تقضي بأن تظل في غرفتها الى ان يغادر المنزل.

ووصرت اشفق على حياة رندا وكان لي صديقتان جريئتان اكثر مني، وفكرت ان جرأتهما قد تشجع رندا على ان تصبح اكثر ثقة بنفسها، ولم أفكر بالقوى التي سأطلقها من مكمنها عندما اشكل نادي بنات يتألف مني ومن صديقتيّ.. و اطلقنا على نادينا اسم «الشفاه الجريئة» لأن هدفنا كان الدفاع عن حقوق المرأة في مجتمعنا المتخلف واقسمنا ان نلتزم بالاهداف التالية:

١ ـ ان نتحرك ونتحدث من منطلق حقوق المرأة

٢ ـ ان تسعى كل عضوة لتجنيد عضوة جديدة في النادي شهريا

٣ ـ والهدف الاول ايقاف تزويج الفتيات الصغيرات الى رجال طاعنين في السن.

ونحن النساء في السعودية ندرك منذ زمن طويل بأن رجالنا لن يحاولوا تغيير مكانة النساء وستظل المرأة خاضعة لهم.. واتفقنا على

أن كل سعودية مسؤولة عن رفع صوتها لاسترداد حقوقها ولو كان ذلك في نطاق منزلها فقط.. فالسعوديات محبطات جدا بعد قرون من القهر وكان هدفنا ايقاظهن.

ولم تكن صديقتاي نادية ووفاء من الاسرة الملكية لكنهما من اسرتين معروفتين في الرياض.

فوالد ناديا يملك شركة مقاولات كبرى ولأنه كان يرشي الأمراء كانت شركته تفوز بالمناقصات الحكومية. وكان لديه الاف العمال من سريلانكا والفيلبيين وكان ثراؤه في مستوى ثراء الاسرة المالكة... ومتزوجا من ثلاث نساء ولديه اربعة عشر ولدا وبنتا. وكانت نادية في السابعة عشرة من عمرها.. وسبق ان شعرت باستياء كبير عندما شاهدت زواج شقيقاتها الثلاث الاكبر منها وقد تم زواجهن لمآرب ومقاصد تجارية ومع ذلك توفقن في زواجهن لكن الحظ لا يستمر كما تقول نادية.. وكانت تشعر بنوع من التشاؤم وبأنها ستتزوج رجلا طاعنا في السن وبشعا وقاسيا . والحقيقة انها كانت محظوظة اكثر من معظم السعوديات لان والدها قرر ان تستمر في الدراسة حتى تبلغ الواحدة والعشرين وهذا القرار حفزها على العمل.. ولأنه لم يكن امامها سوى اربع سنوات من الحرية فأنها ستتذوق كافة جوانب الحياة حتى يكون لديها ذكريات سارة اذا ما تزوجت من رجل لا تحبه.

اما والد وفاء فكان احد رؤساء المطوعين.. وكان متطرفا في الشؤون الدينية وهي على النقيض منه تماما، ولم يكن لوالدها سوى زوجة واحدة وهي والدة وفاء ، لكنه كان رجلاً قاسيا وخشناً ورغم أيمان وفاء بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم لكنها كانت تؤكد بأن السعوديين لا يطبقون التعاليم الاسلامية الصحيحة لان الله لم يأمر بأن تتحمل النساء كل هذا العذاب مع انهن يشكلن نصف سكان العالم.

كان والدها يحظر عليها الخروج من المنزل... اما والدتها فكانت

حبيسة المنزل. وكان لها خمسة ابناء وبنت واحدة وهي وفاء التي كانت آخر العنقود وقد استاء رئيس المطوعين من ولادتها ولذلك كان يتجاهلها على الدوام ويأمرها بالبقاء في البيت وتعلم الخياطة والطبخ.. ومنذ ان كانت في السابعة ارغمت وفاء على ارتداء العباءة وتغطية شعرها.. عندما بلغت التاسعة بدأ والدها يسألها من حين لاخر ما اذا جاءها الحيض، ذلك انه كان يخشى اغضاب الله حسب اعتقاده اذا خرجت ابنته من البيت وهي بالغة دون حجاب.

وكان لها بضع صديقات، لكنهن سرعان ما تخلين عنها لان والدها اعتاد على سؤالهن امامها ما إذا اتاهن الحيض.

وبعد ان تعبت والدة وفاء من اوامر زوجها الصارمة، ، اتخذت قرارا بخداعه والتمرد على تعليماته، اذ كانت تساعد ابنتها على التسلل الى خارج المنزل وتخبر زوجها ان وفاء نائمة، أو تقرأ القرآن.

وكنت اعتقد نفسي جريئة وثائرة، لكن جرأة وفاء ونادية جعلتني ادرك بأن موقفي من حقوق المرأة موقف مهادن وضعيف وأن جهودي بهذا الصدد لن تجدي.. ولعل ما يثبت ذلك ان حياتي لم تتغير وهذا يعني انهما على حق.

ولن انسى طيلة عمري ما حدث ذات يوم وسط المدينة في عمارة ضخمة مخصصة لوقوف السيارات وقريبة من منطقة السوق وما يسميه الاجانب «ساحة تقطيع الرؤوس والايدي» وهي الساحة التي يتم فيها انزال العقاب بالمجرمين ايام الجمعة بعد الصلاة بقطع الرأس او اليد حسب الجريمة.

كنت قد اخفيت بلوغي عن والدي لأني لم أكن في عجلة لارتداء الملابس السوداء والحجاب، لكن احمد ونورا اخبراني بلهجة غاضبة بأني اجلت الموضوع كثيرا ولا بد ما ليس منه بد، وهددتني نورا بانها ستخبر الوالد اذا لم اخبره بنفسي...وهكذا جمعت صديقاتي بما في ذلك رندا وذهبنا لشراء ملابسي الجديدة وهي غطاء رأس وحجاب

اسود وعباءة سوداء.

اخذنا عمر بالسيارة الى مدخل السوق. فانطلقنا في السوق على ان يقابلنا عمر بعد ساعتين في نفس المكان.. وكان عمر عادة يرافقنا داخل السوق لمراقبتنا، لكنه في ذلك اليوم كان مشغولا بشيء ما فاستغل الوضع وذهب لشأنه على ان يعود بعد ساعتين ولا شك بأنه اطمأن لأن زوجة والدي معنا.. ولمْ يلاحظ عمر بأن رندا بدأت تستيقظ وتتحرر من القيود التي فرضه الرجال علينا.

ودخلنا عدة متاجر نتفحص الملابس واغطية الرأس والعباءات وكنت اريد شيئا متميزا، ولمت نفسي لأني لم افصل عباءة خاصة اثناء وجودنا في ايطاليا من افضل انواع الحرير الايطالي وزخارف جميلة بحيث تشير العباءة الى ان التي ترتديها فتاة متميزة.. فتاة لها شخصية وذوق.

كانت وفاء ورندا ونادية محجبات.. وواصلنا طريقنا داخل السوق نبحث عن الملابس المناسبة.. ولاحظت ان وفاء ونادية يتحدثنَ ويتهامسن مع بعضهما وتضحكان..فتبعتهما مع رندا وسألتهما عن الشيء الذي يثير ضحكهما.. ونظرت اليّ ناديا وقالت انها تذكرت مع وفاء رجلا قابلناه في اخر مشوار لهما الى السوق الذي كنا نتجول فيه.

واستغربت مع رندا مما قالته ناديا بل وشعرت بالارتباك، اذ كيف قابلتا رجلا؟!

وبعد زهاء ساعة عثرنا على العباءة المناسبة كما عثرنا على غطاء الرأس والحجاب المناسبين.. وكان مجال الاختيار محدودا على اي حال.. لقد تغيرت الحياة بسرعة اذ اني دخلت السوق فتاة تضج بالحياة ووجهي يعبر عواطفي، وغادرت السوق مغطاة من رأسي حتى اخمص قدمي بملابس سوداء وتحولت الى مخلوقة بلا وجه ولا شخصية.

و لا بد أن اعترف بأني شعـرت بالاثارة عنـدما ارتـديت الحجاب لأول مرة.. فقـد وجدته شيئا جـديدا خاصة بعـد ان لاحظت الشباب يحدقون بي..اصبحت مخلـوقا غامضـا ملفوفا بـالسواد، كنت ادرك بأن الـذكـور يتمنـون هبـة نسيم تـزيل الحجـاب عن وجهي حتى يشاهدوا ولو جزءا من بشرتي المحرمة.

وشعرت لفترة بأني جميلة وانه ينبغي ان احافظ على نفسي مغطاة على هذا النحو لمنع الرجال من رؤيتي، سيما وأنهم من النوع الذي لا يسيطر على غرائزه.

وسرعان ما تبدد سروري بارتداء الحجاب. فعندما غادرنا السوق المغطى والمكيف الى الخارج حيث لهيب الشمس وجـدت صعـوبـة في التنفس بسبب الحجـاب مع انـه كان من النـوع الخفيف، وتسـاءلت كيف تتنفس النساء من وراء حجـاب كثيف بل كيف يتبين الطريق؟.. واختلف لون السماء طبعا من خلف الحجـاب.. وشعرت بالقلق فجأة اذ انني من الان وصـاعـدا لن ارى الالـوان على حقيقتهـا.. وأصبح العالم امامي شاحبا وخطرا ايضا.. وبدأت أمشي متعثرة اتبين الطريق بشيء من الصعوبة.

وبدأت وفاء ونادية ورندا يضحكن عليّ وعلى حركاتي وأنا احاول تثبيت الحجاب، وكدت اتعثـر بأطفال أمرأة بدويـة وقد حسدت تلك المرأة البدوية لأن حجابها عملي، فالبدويات يرتدين حجابا يستقر على الانف بينما تكون العيـون ظاهـرة.. وتمنيت لو اني بـدوية بحيث لا أغطي عيني بـالحجاب وان تظل عينـاي ظاهـرتان حتى أرى الـوان الحياة الحقيقية وارى ما يحدث حولي.

ووصلنا مبكـرا الى المكان الـذي اتفقنا مع عمـر ان ينتظرنـا فيه، ونظرت رندا الى ساعتها.. وقالت ان معنا ساعة اضافية واقترحت ان نعود الى السـوق لأنه مكيف. وتساءلت نـاديا ووفاء مـا اذا كنا نحب التسليـة واجبتهـا بالايجاب دون تـردد، لكن رنـدا لم تعجب بكلمـة تسلية لكنني وبقدرتي على الاقناع اقنعتها بمـرافقتنا.. كنت فضولية

ولم انتهك في حياتي القواعد التي وضعها السعوديون للنساء.

وتبادلت وفاء ونادية الابتسامات وطلبتا منا ان نلحق بهما.. وتوجهتا الى موقف سيارات تحت عمارة ضخمة وجديدة ليست بعيدة عن السوق. وكان الرجال الذي يعملون في مكاتب تلك العمارة وفي المتاجر المجاورة يوقفون سياراتهم في ذلك الموقف.

شققنا طريقنا باتجاه العمارة.. وصرخت في رندا عندما رفعت حجابي حتى ارى طريقي.. ولا شك ان معظم الرجال في الشارع شاهد وجهي.. ويبدو انهم ابتهجوا لحسن حظهم لأنهم شاهدوا وجه أمرأة في مكان عام.

واخيرا وصلنا الى مصاعد الموقف.. وشعرت بالذعر عندما اقتربت وفاء ونادية من شاب سوري وسيم وسألناه ما اذا كان يرغب في التسلية.. وجمد الشاب في مكانه ولعله فكر بالهرب في البداية.. ثم انه تلفت يمنة ويسرة وسأل ناديا «وما نوع التسلية؟ فسألته ماذا اذا كان يملك سيارة وشقة خاصة . واجاب بالايجاب وانه له صديقا لبنانيا يعيش معه في الشقة، وسألته ناديا ماذا كان صديقه اللبناني يبحث عن صديقة.. فابتسم الشاب السوري واجاب بالايجاب.

وصعقت مع رندا وهربنا من الموقف فزعا وخوفا على حياتنا..وفي اثناء ذلك فقدت غطاء رأسي وعندما عدت لالتقاطه لحقتني رندا وتعثرت وقعت على ظهرها وظهر ساقاها.

وعندما لحقت بنا وفاء ونادية كنا نتنفس بصعوبة ونتكيء على نافذة متجر.. وبدأتا تضحكان علينا لأنهما رقبتانا في اثناء فرارنا وشاهدتا كيف وقعت رندا وكيف ظهر ساقاها.

واعربت مع رندا عن غضبنا من هذا المزاح الثقيل وكيف باستطاعتهما فعل هكذا شيء فضيع؟ مصادقة رجل اجنبي بهذه البساطة.. وما هي التسلية التي كانتا تخططان لها على اي حال؟ الا تدركان بأن الحكم ةى رندا في هذه الحال هو الرجم بالحجارة لانها

متـزوجـة وان مصيرنا نحـن الثلاثـة هـو السجن وربما أسـوأ من السـجن.. ان التسليـة شيء آخـر.. وأن مـا فعلتـاه لم يكن تسليـة بل انتحارا.

ولم تكترث ناديا ووفاء بفـورة غضبنا بل انهما واصلتا الضحك، كانتا تدركان بأن في حالة الامساك بهما فانهما ستتعرضـان للعقاب.. لكنهما بسبب سنوات الحرمـان لا تهتمان بالعقاب كما يبدو.. كـانتا تعتقـدان بان مستقبلهما حـالك السـواد.. وانهما بطريقتهما تلك قـد تجدان رجلين اجنبيين يتزوجانهما..

فالسعودية تعتبر ان اي رجل افضل من السعودي.

كـانت رنـدا في حـالـة قـريبـة من الاغماء.. وكـانت تنظـر في كل الاتجاهات بحثا عن عمر.. وكانت تدرك بأن الوالد لن يرحمها اذا علم بما حـدث.. وهذا مـا يفسر حالـة الذعـر التي كـانت تعانيهـا في تلك اللحظات.

وحضر عمر... ولاحظ ذهولنا فسألنا عما حـدث فأجبته نيابة عن الجميع واختلقت قصـةبأنا شـاهدنـا شـابا يسرق طـوقا من سـوق اذهب... وان الصائغ امسك بـه وانهال عليه ضربـا حتى اتت الشرطة واعتقلته وبـأننا تأثـرنا لهذا المشهـد لعلمنا بـان الشاب سيفقـد يده نتيجة فعلته.. وانتعشت روحي لان عُمر صـدق القصة.. وقد شدت رندا علي يدي تأييدا وعرفانا لأن انقدتها من موقف حرج.

وبعد ايام عـرفت من ناديا ووفاء مـا هي التسلية التي تقصدانها فقد كانتـا تتقابلان مع رجال اجانب من الاقطارالعـربية المجاورة في مواقف السيارات. وكانتا تختاران الشباب الوسيمين.. وكان الشبان احيانا يشعرون بالذعر ويهربـون عندما تعرض عليهما ناديا ووفاء التسلية.. بينما كان بعض الشبا ن يتجاوب معهما.. كانتا تقتربان من الشباب وتعـرضان عليـه التسلية.. فـاذا تجاوب مع العـرض حددا موعدا في وقت لاحق.. وتذهب الصـديقتان الى السوق بحجة التسوق

حيث يشترين بعض الحاجيات ثم تـذهبـان الى الموعـد.. وفي بعض الاحيان كان الشباب يشعرون بالذعر ولا يحضرون الى الموعد.. بينما كان بعضهم يحضرون وينتظرون بعصبية.. واذا كان للشاب سيارة «فان» تقفـز داخلها الصـديقتان ويقـوم الشاب او الشـابان بقيـادة السيارة نحو الشقـة.. ولا بد من الحذر الشديد عنـد ركوب السيارة وعند الترجل منها.. لأن الامساك بهمْ يعني عقابا صارما قد يصل الى حد الموت.

اما سبب تفضيل سيارة «الفان» فهو ان القانون السعودي يحظر على النساء ركوب سيارة فيها رجال الا اذا كـان ثمة قرابة وثيقة بين الرجـال والنسـاء.. واذا شكـك المطوعـون في ركاب احـدى السيارات فانهم يطلبون اوراق اثبات الشخصية. كما يحظر على الشاب الاعزب غير المتزوج استقبال نساء في شقته، ولـدى ادنى بادرة شك قد يقوم المطوعون بمحاصرة بيت الاجنبي ومـداهمته والقاء القبض على كافة الذكور والاناث فيه ووضعهم في السجن على ذمة التحقيق.

ومن الطبيعي ان اخاف على وفاء ونـاديـة.. وقد حذرتهما غير مرة من العواقب الوخيمة.. كانتا شابتين تشعران بالضجر من حياتهما... وتحدثتا لي عن تجارب اخرى لهما.. كانتـا تتصلات بالهاتف بشكل اعتباطي الى ان يرد عليهما رجل اجنبي وكانتا تفضلان الفلسطينيين والسـوريين واللبنانيين وعنـدما يـرد الشاب او الـرجل على الهاتف تسألـه وفاء او نادية ما اذا كان اعزبـا ويشعر بالوحدة ويرغب برفقة أمـرأة.. ويكـون الجواب بـالايجاب في كثير من الاحيـان.. عنـد ذلك تطلبان منه ان يصف جسده.. فيقـوم بوصف جسده ثم يطلب منهما نفس الطلب فتقـومان بتصـويـر «وصف»جسـديهما له بـالتفصيل ..وكانتـا تستمتعان بذلك... وتقـابلان الـرجل في وقت لاحق في احد مواقف السيارات.

واستغـربت المدى الذي ذهبت اليـه صديقتـاي في هذا النـوع من التسلية.. مع عشاق مواقف السيارات وشعـرت بالفزع عندما علمت

بأنهن كن يمارسن الجنس مع الشبـان مع الحفـاظ على عـذريتهن.. لانهن كن يـدركن نتائج فقـد البكارة.. فأذا تـزوجت فتاة سعـودية افتقدت بكـارتها لسبب او آخر فأن زوجها يعيدهـا الى اهلها في نفس الليلـة، بينما يقوم اهلهـا باعـادتها للـزوج عند ذلك يبـدأ المطوعـون تحقيقاتهم.. وربما تفقد الفتاة حيـاتها.. واذا لم تفقد حياتها فأنها لا تجد مكانا تذهب اليه.

وقالت وفاء انها ونادية كانتا يمارسان الجنس مع الرجال الغرباء دون ازالة احجبتهن وكـانتا تتعـريان تمامـا وتحتفظان بـالحجاب. وكـان الـرجال يتـوسلـون اليهما ا ن يـزلن الحجاب لكنهما كـانتـا ترفضـان ذلك بشدة لاحساسهما بانهما ستكونان في امان اكثر اذا لم يشـاهد الـرجل وجيهما.. لكنهما اضطرتـا للكشف عن وجيهما غير مرة امام الحاح بعض الرجال.. وكان صديقتاي تحاولان وعلى نحو يائس ايجاد مخرج من مستقبلهما الـذي كان يتراءى لهما ليلا مظلما وطويلا.

وبكيت مع رنـدا ونحن نتبـاحث في سلـوك صديقتينـا وشعـرت بكراهية وتقـزز شديد من تقاليد بـلادي وعاداتهما الهمجية حيث لا تتمتع المرأة بأدنى قدر من الحريـة او الاحترام وهو ما يدفع شـابات مثل وفاء ونـاديا الى هكذا سلـوك مشين، وكنت على قناعـة بأنهما قد تتعرضـان للقتل اذا اكتشف امرهما.

وقبل نهاية العام تم اعتقال وفـاء وناديا.. ولسوء حظهما ان احد اعضـاء لجنة الاخـلاق العـامة التي يتجـول اعضـاؤها في شـوارع الرياض يقنعون الناس بالتقيد بتعاليم القرآن سمع من شاب مصري ان فتاتين سعوديتين اقتربتا منه في مصعد مواقف السيارات وعرضتا عليه الذهاب معه الى شقته.

وهكذا بدأ ا عضاء لجنـة الاخلاق العامة يراقبون المنطقـة خاصة بعد اخبـارية اخرى تقـدم بها شاب سـورري في ان فتـاتين محجبتين اقتربتا منه في موقف السيارات وعرضتا عليه صداقتهما.

وذات يوم دخلت وفاء وناديا في سيارة فان يقودها سوري... وقام اعضاء لجنة الاخلاق العامة بمطاردة السيارة وايقافها واعتقال السوري والصديقتين اللتين زعتما بأنهما طلبتا من السوري ايصالهما للبيت بعد ان تأخر سائقهما.. وتم فحص الصديقتين وتبين انهما تحتفظان بعذريتهما وهو ما انقذهما من القتل الفوري.

واجرى المجلس الديني استجوابا واسعا مع العاملين في المنطقة وشهد (١٤) شخصا بأن فتاتين محجبتين سبق ان حاولتا الاحتكاك بهم.

وبعد سجنهما زهاء ثلاثة اشهر وعدم ثبوت واقعة الزنى قررت اللجنة اطلاق سراحهما وترك موضوع عقابهما لأهلهما.

والعجيب ان والد وفاء وهو رجل الدين المتعصب جلس مع ابنته وسألها عن دوافع سلوكها المشين وعندما انهمرت دموعها واخبرته بمشاعرها ويأسها شفق عليها وتعاطف معها وابلغها ان قراره هو ابعادها عن اي اغراء، وامرها بمواصلة قراءة القرآن وان تقبل حياة بسيطة بعيدا عن مدينة الرياض.. وسرعان ما رتب زواجها الى مطوع بدوي من قرية صغيرة يبلغ عمره زهاء الخمسين سنة بينما كانت وفاء في السادسة عشرة من عمرها والادهى من ذلك انها ستكون الزوجة الثالثة لذلك المطوع المحظوظ.

اما والد نادية الذي كان في فورة غضب شديدة فقد رفض الحديث معها وأمرها بعدم مغادرة غرفتها حتى يتخذ قرارا بشأن العقاب المناسب لها.

وبعد ايام عاد والدي مبكرا من مكتبه وطلب رندا كما طلبني الى غرفة الجلوس ابلغنا بأن والد نادية سيغرقها في برك السباحة في اليوم التالي مباشرة وعند الساعة العاشرة.. واضاف الوالد بأن كافة افراد اسرة ناديا سيشاهدون عملية اعدامها غرقا في البركة.

ورقص قلبي هلعا بين ضلوعي عندما وجه والدي سؤاله الى رندا

ما اذا سبق ان رافقت نادية او وفاء في سلوكهما المشين.. وتقدمت نحو ابي وبدأت أؤكد له ان ذلك لم يحدث. فدفعني بيده الى الخلف بعد ان صرخ بي وعند ذلك انهارت رندا واجهشت بالبكاء واخبرت الوالد بما حدث ذلك اليوم عندما اشترينا العباءة والحجاب.. وذهل الوالد ووجلس بلا حراك دون ان ترمش عيناه حتى انتهت رندا من القصة.. ثم سألنا عن «نادي النساء» الذي شكلناه وطلب منا قول الحقيقة لأن نادية اعترفت بكل شيء قبل بضعة ايام.. وتجمد لسان رندا، فتح والدي حقيبته وتناول منها اوراق نادينا... ثم توجه الى غرفتي وبحث فيها ووجد قوائم العضوية.. وجف حلقي لأول مرة في حياتي ولم أعد اقدر على النطق. واعاد والدي الاوراق الى حقيبته ونظر الى عيني رندا قائلا: «انت طالق.. وسيرسل والدك سيارة خلال ساعة حتى تعودين الى اسرتك.. ومحظور عليك الاتصال بأولادي».

والتفت الي بهدوء قائلا : «لقد كانت والدتك إمرأة صالحة يا سلطانة.. فلماذا شاركت وفاء ونادية في هذا السلوك المشين.. إن القرآن يأمر بقتلك.. لكني لن اقتلك وارجو ان تهتمي بدروسك بينما ابحث لك عن زوج مناسب» ثم سكت لحظة واضاف: «سلطانة.. إقبلي مصيرك... ينبغي عليك الطاعة ولا بديل عن ذلك» ثم انه غادر الغرفة دون ان ينظر لي او لرندا.

شعرت بالمهانة وتبعت رندا الى غرفتها وراقبتها وهي تجمع مجهوراتها وملابسها وكتبها.. كان وجهها خاليا من اي تعبير.. ولم استطع التفوه بأي شيء.. وسرعان ما قرع جرس الباب..ووجدت نفسي اساعد الخدم في حمل حقائبها الى السيارة. وغادرت رندا منزلنا دون كلمة وداع لكنها لم تغادر قلبي.

وفي اليوم التالي في الساعة العاشرة جلست وحيدة على الشرفة انظر في الفضاء اللانهائي.. وفكرت في نادية وتخيلتها مقيدة بالسلال وهم يغطسونها في البركة... واغلقت عينيي وتصورتها وهي تقاوم والماء يملأ رئيتها.. وتذكرت عنييها العسليتين واسلوبها في وضع يد على

دقنها عندما تضحك ولعنت قسوة الرجال.. ثم نظرت الى ساعتي لقد مرت عشر دقائق وهذا يعني ان نادية ماتت ولن تضحك ثانية.

كانت لحظة درامية في حياتي.. وكنت على قناعة بأن ما فعلته صديقتاي يدعو على الخجل ، لكن ما فعلتاه لا يستدعي قتل نادية ولا زواج وفاء القسري من بدوي لا يعرف قيمتها فضلا عن كونه متزوجا من اثنتين.. فلماذا يفعل السعوديون ذلك؟ ولماذا يدمرون حياة واحلام نسائهم دون عاطفة او ادنى اهتمام؟

النساء الاجنبيات

بعد مغادرة رندا المفاجئة وزواج وفاء وموت نادية شعرت باحباط شديد وبأني لم أعد بحاجة الى نسمة الحياة وتمنيت لو أن باستطاعتي ممارسة البيات الفصلي كتلك الحيوانات التي تبات الشتاء بأسره ولا تستيقظ الا في الربيع ... كنت أستلقي في سريري وأفكر ساعات طويلة وكثيراً ما كنت أحبس أنفاسي حتى أحتاج الى الاكسجين فأفتح فمي وأشهق شهقة وربما شهقات حتى أعوض رئتي الاكسجين الذي افتقدته أثناء امتناعي عن التنفس .

وأدرك الخدم في المنزل مدى حزني وما كنت أعانيه من احباط وكانت الخادمات يعرفن مدى حساسيتي وكن يحببني لتعاطفي معهن .

وفي محاولة لاثارة اهتمامي بالحياة بدأت خادمتي الفليبينية (مارسي) في تنشيط أفكاري عن طريق رواية قصص عن أناس في بلادها وكان من شأن أحاديثنا الطويلة أن أزالت الحواجز بيننا ولم تعد علاقتنا علاقة خادم بسيد .

وذات يوم أخبرتني بأمنيتها وهي أن تجمع ما يكفي من المال عن طريق الخدمة في منزلنا حتى تعود الى الفليبين وتدرس التمريض . والمعروف أن ثمة طلباً واسعاً في العالم على المرضات الفليبينيات ... كما أن التمريض مهنة مغرية للنساء في الفليبين . وقالت مارسي أنها عندما تتخرج كممرضة ستعود الى السعودية حتى تعمل في أحد المستشفيات .. ثم ابتسمت وهي تقول ان الممرضة الفليبينة في السعودية تحصل على زهاء أربعة الاف ريال سعودي كراتب شهري وهو ما يساوي ألف دولار تقريباً بينما لا تحصل على أكثر من مائتي دولار في مهنتها الراهنة كخادمة عندنا .. وانها عندما تصبح ممرضة

وتحصل على ألف دولار شهرياً يكون باستطاعتها مساعدة أسرتها كلها في الفليبين .

وعلمت منها أن والدها توفي في أحد المناجم عندما كانت في الثالثة من عمرها ، وكانت والدتها حاملاً في الشهر السابع .... فتجهمت الحياة أمام الاسرة ... لكن جدتها تطوعت برعايتها وشقيقها الصغير بينما بدأت أمها تعمل خادمة في الفنادق على فترتين . وكانت أم مارسي تكرر أمامها بأن المعرفة هي الحل الوحيد للفقر ولذلك كانت تدخر لتعليم ولديها .

قبل سنتين من دخول مارسي الى كلية التمريض تعرض شقيقها الاصغر (توني) الى حادث سير مؤسف أدى الى بتر ساقيه وقد أتت نفقات علاجه على مدخرات العائلة ... وقد بكيت لدى سماعي قصة مارسي وسألتها كيف تستطيع الابتسام وحياتها تعيسة الى هذه الدرجة ... فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها وهي تقول أن لديها حلماً وأنها تسعى لتحقيقه وطالما أن لديها حلماً وثمة احتمالات لتحقيقه فلماذا تيأس وتقنط ؟

ولأنها نشأت وعاشت في منطقة فقيرة وبائسة في الفليبين ، كانت تشعر بأنها محظوظة جداً لأنها وجدت عملاً في السعودية وأنها كانت تأكل حتى الشبع ثلاث وجبات في اليوم ... وعلمت منها ان الناس في المنطقة التي كانت تعيش فيها في الفليبين لا يموتون من الجوع بل من سوء التغذية ... لأن نقص الغذاء يجعل أجسادهم أشد عرضة للأمراض وأقل مقاومة لها .

كانت مارسي تصور لي الحياة في بلادها بالتفصيل وأدركت بأني لم أقدرها حق قدرها هي والخادمات الفليبينيات الاخريات لأني كنت أعتبرهن قبل ذلك خادمات بالوراثة أو الفطرة .

بعد بضعة أسابيع وسعت مارسي نطاق حديثها اليومي معي وأخبرتني عن صديقتها مادلين ، وهو ما دفعني للتساؤل عن القيم

الاخلاقية في بلادنا . فقد علمت من مارسي أن السعوديين يستعبدون نساء العالم الثالث جنسياً في بيوتهم . كانت مارسي ومادلين أصدقاء منذ الطفولة ، وأسرة مادلين أفقر من أسرة مارسي لأن مادلين وأخوانها كانوا يتسولون على الشارع العام الذي يربط منطقتهم بالعاصمة مانيلا . وكان الناس يتصدقون عليهم من حين لآخر ... أي أن مادلين كانت تتسول لتأمين الطعام عندما كانت مارسي طالبة في المدرسة .

كان لمادلين حلم تخطط لتحقيقه منذ وقت مبكر ، وعندما بلغت الثامنة عشرة صنعت لنفسها ثوباً من ملابس مارسي المدرسية القديمة وارتدته وسافرت الى مانيلا وراجعت مكتباً متخصصاً في توظيف الفليبينيات في أقطار الخليج .. وقدمت مادلين طلباً للعمل كخادمة ... لكن الرجل اللبناني صاحب المكتب رآها أجمل من أن تعمل خادمة ، وعرض عليها العمل في ناد ليلي وألمح لها بأنها ستحصل على راتب مرتفع ، وأدركت مادلين ما يرمي اليه الرجل اللبناني ... ورغم أنها عاشت في بيئة فقيرة لكنها كانت كاثوليكية متدينة فرفضت بيع جسدها بكل اصرار . عند ذلك أعطاها اللبناني طلباً عبأته وانتظرت .

وعاد اللبناني ليخبرها أنه استلم توه عقداً لتزويد منطقة الخليج العربي بأكثر من ثلاثة الاف خادمة فليبينية ، وأنه سيعطيها الاولوية لأن الاثرياء العرب يحبون الخادمات الجميلات ثم أنه ربت على عجيزتها وهي تغادر مكتبه .

أحست مادلين بالدهشة والذعر في ان واحد عندما أبلغها اللبناني بعد أيام ستعمل خادمة عند أسرة سعودية في الرياض .. وفي ذلك الوقت تبددت آمال مارسي في دراسة التمريض وقررت أن تسير على خط مادلين وتبحث عن عمل خارج الفليبين ... وعندما انطلقت مادلين الى السعودية أكدت لها مارسي بأنها ستلحقها وودعتها ووعدتها بأنها ستكتب لها .

بعد أربعة أشهر علمت مارسي من مكتب التوظيف بالموافقة على

طلبها للعمل كخادمة في السعودية وذلك قبل أن تستلم أي رسالة من مادلين . وفكرت أنها عندما تصل الى السعودية لا بد أن تجدها لأنها ستعمل أيضاً عند عائلة في الرياض.

وأنا أذكر المساء الذي وصلت فيه مارسي الى بيتنا ... وكانت والدتي مسؤولة عن شؤون البيت وأناطة المهمات المختلفة بالخادمات ، وأذكر بأن مارسي كانت مذعورة وسرعان ما تعلقت بأكبر خادمة فليبينية عندنا .

ولوجود أكثر من عشرين خادمة في بيتنا ، فلم تكن مارسي موضع اهتمام أحد ، ولأنها بلا خبرة ولا يزيد عمرها عن تسع عشرة سنة فقد انيطت بها مهمة تنظيف غرفتي أصغر البنات وهما أنا وسارة ، ولم أعرها أي اهتمام خلال الستة عشر شهراً الماضية حيث كانت تتبعني بهدوء وتسألني ما إذا كنت أريد شيئاً .

وأدهشتني مارسي عندما أخبرتني بأن الخادمات الفليبينيات الاخريات اعتبرنها محظوظة في عملها لأني وسارة لم نحاول ضربها ولا حتى الصراخ في وجهها ... وسألتها ما اذا كان في منزلنا من يضرب الخادمات ، وشعرت بالاطمئنان عندما أجابت بالنفي لكن بعض السعوديين الاخرين يضربون الخادمات بوحشية ... واعترفت بأن علي صعب المزاج وأنه يتحدث مع الخادمات بصوت مرتفع وأنه يوجه لهن الاهانات أحياناً ... وأنها شاهدته ذات يوم يضرب عمر وضحكت دون أي تعاطف مع عمر .

وأخبرتني مارسي عما تتحدث به الخادمات . وهو أن زوجة والدي الثانية وهي امرأة من احدى أقطار الخليج تضرب الخادمات على الدوام حتى أن خادمة باكستانية تعرضت لرضوض شديدة في دماغها نتيجة تدحرجها على الدرج .. وان زوجة والدي هي التي قذفت بها على الدرج . فسقطت الفتاة تئن من الالم وتبعتها زوجة والدي ترفسها وتصرخ عليها لكن الخادمة الباكستانية ظلت مستلقية لا تتحرك .. وأخيراً أخذوها الى الطبيب ، لكنها اختلفت كلياً رغم

الادوية اذ أنها أصبحت لا تتوقف عن الضحك .

وبناء على أوامر من زوجة والدي عبأ الطبيب بياناً ذكر فيه ان الخادمة الباكستانية وقعت عن الدرج وتعرضت لارتجاج دماغي وأنه ينبغي تسفيرها الى الباكستان والادهى من ذلك أن زوجة والدي لم تعط الخادمة الباكستانية بقية أجرتها ولم ترسل معها سوى مائة ريال أي ما يساوي (٣٠) دولاراً .

كنت أستمع بدهشة لهذه القصص ... وأدركت أن معظم الخادمات يتعرضن لمعاملة سيئة في بلادي وكان منزلنا استثناء ... وقلت لمارسي بأني زرت العديد من بيوت صديقاتي ولم أشاهد خادمات يتعرضن للضرب أو سوء المعاملة ... لاحظت أحياناً أن صديقاتي يصرخن على الخادمات لكني لم أشاهد سعودياً أو سعودية يعتدون على خادمة .

وتنهدت مارسي بأسى وهي تؤكد بأن الخادمات يتعرضن للضرب والاعتداء الجنسي أيضاً ، لكن ذلك يتم سراً في معظم الاحيان ... ولفتت انتباهي بأني أعيش على بعد أمتار من قصر تتعرض فيه الخادمات الشابات لأهوال فظيعة .. وواصلت حديثها بعد أن أدركت تعاطفي معها وقررت أن تخبرني بقصة صديقتها مادلين .. وما زلت أذكر صديقتها وكأنه جرى أمس .

قالت مارسي : « أريد أن تعرفي كل شيء عن مادلين .. فأنت أميرة وربما يأتي يوم تستطيعين فيه مساعدتنا نحن الفليبينيات » ثم انها وضعت المساند والمخدات وراء ظهري حتى أرتاح في جلستي على سريري وطلبت منها قبل أن تبدأ القصة احضار كوب من عصير الفواكه وكوب لبن بارد .. ثم أخرجت ساقاي من تحت الغطاء وطلبت منها أن تدلكهن أثناء رواية القصة .

وعندما أذكر ذلك اليوم الان أشعر بالخجل وكيف كنت أنانية ... كنت أتوقع قصة مأساوية ومع ذلك لم أجلس للاستماع قبل تلبية رغباتي في عصير الفواكه واللبن وتدليك الساقين .... وأنا أشعر الان

بالاسف لذلك .. انها عادات سعودية في منتهي الانحطاط والانانية .. فالسعودي لا يمكن ان يظهر اي اهتمام بحياة خدامه بل أنه لا يتحدث معهم الا بصيغة الامر والتعالي وكأن الناس لم يخلقوا الا لخدمتهم .. حتى ان والدتي ورغم رقتها وحنانها نادراً ما كانت تهتم بمشاكل الخادمات ، وأنا أعزو ذلك للمسؤوليات الكثيرة التي كانت تضطلع بها بالاضافة الى ارضاء رغبات ونزوات والدي .. ولا أجد لنفسي عذراً لأني كنت أيضاً أعتبر مارسي وبقية الخادمات بمثابة الانسان الالي (روبوت) مهمتهن الوحيدة تنفيذ أوامري ورغباتي . ولا شك بأني أخجل من ذلك الان سيما وانني أقدم نفسي للقراء كفتاة حساسة

وهكذا بدأت مارسي في تدليك ساقاي ورواية القصة على النحو التالي : « قبل أن أغادر الفليبين رجوت الرجل اللبناني أن يزودني بعنوان مادلين .. لكنه رفض بشدة ... فكذبت عليه وزعمت بأن معي اغراضاً لها من والدتها .. وبعد ان توسلت اليه أعطاني رقم هاتف في الرياض وهو البيت الذي تعمل فيه مادلين».

وسألتها ما اذا كان سيد مادلين أميراً فنفت مارسي ذلك وقالت انه يعيش على بعد نصف ساعة بالسيارة في منطقة (الملاذ) في الرياض .

وينتصب قصرنا في منطقة الناصرية وهي أرقى منطقة في الرياض معظم سكانها من الاسرة المالكة وكبار الاثرياء . وأذكر بأني زرت منطقة الملاذ قبل فترة طويلة وفيها عدة قصور فخمة تعود لرجال أعمال سعوديين أثرياء . وكنت أعرف بالخطر المفروض على مارسي من مغادرة المنزل باستثناء رحلة تسوق مرة في الشهر كان ينظمها عمر الخادمات . ولأن الخادمات يعملن سبعة أيام في الاسبوع على مدار السنة فقد استغربت كيف استطاعت مارسي زيارة صديقتها مادلين ... سألتها عن ذلك فأجابت :« انك تعرفين السائق الفليبيني انطوان » وكان لدينا أربعة سواقين أثنان مصريان والاخران فليبينيان ، وكان الذي يقود سيارتي عادة عمر او المصري الاخر .. أما

السائقان الفليبينيان الاخران فكانا يضطلعان باحضار الخضار واللحوم وبعض المهمات الاخرى ... وسألتها : « انطوان ذلك الشاب المبتسم باستمرار ؟» فأجابت :« نعم ....فأنا أراه من حين لآخر وقد وافق أن يأخذني لرؤية صديقتي » وضحكت وأنما أقول لها ان قلبها طيب وتساءلت كيف استطاعت الاحتيال على عمر ؟

قالت مارسي : « انتظرنا حتى ذهب عمر مع الاسرة الى الطائف فانتهزنا الفرصة .. اتصلت أولاً برقم الهاتف وقلت للشخص الذي رد علي ان معي أغراضاً الى مادلين من أمها ... وبذلت جهداً في اقناع المتكلم بضرورة أن أرى مادلين ... وأخيراً وصفوا لي العنوان والفيلا .... وانطلق بي انطوان بسرعة الى العنوان لتسليم الرسالة ... وبعد أسبوعين اتصلت بي مادلين وبالكاد كنت أسمع صوتها ... كانت تهمس همساً وتخشى كما يبدو أن يمسكها انسان متلبسة بجريمة التحدث بالهاتف .... واخبرتني أنها في وضع غاية في السوء ورجتني أن أحضر لمساعدتها ... وقد رسمت خطة معها بواسطة الهاتف » طلبت منها التوقف عن تدليك قدمي ... وشعرت بخطورة مقابلتها لصديقتها وزاد اهتمامي بهذه الفليبينية الجريئة ، واستطردت مارسي : « مضى شهران وكنا ندرك ان أشهر الصيف ستوفر لنا الفرصة المناسبة وكنا نخشى أن تسافر مادلين الى اوروبا مع سيدها ، لكنها بقيت في الرياض .... وعندما ذهبت أنت وأسرتك مع عمر الى خارج المدينة وضعني انطوان في صندوق سيارة المرسيدس وأخذني الى مادلين » وتهرج صوتها بعاطفة مفاجئة وهي تصف ورطة مادلين ... ومضت تروي بقية القصة : « كنت في صندوق السيارة عندما أوقفها انطوان وقرع جرس الفيلا ... ولم أطق الصبر بل فتحت صندوق السيارة فتحة صغيرة وبدأت أتطلع الى جدار الفيلا ... كان الطلاء متشققاً والبوابة صدئة أما نباتات الزينة فكانت جافة لعدم ريها بانتظام ... وشعرت أن المكان موجود وأن صديقتي في وضع خطر اذا كانت تعمل في هكذا بيت .. وشعرت بالاحباط والاكتئاب

حتى قبل السماح لنا بالدخول ... وكان انطوان قد قرع الجرس أربع أو خمس مرات قبل أن يسمع صوتاً داخل البيت ... وفتح الباب رجل يمني يتثاوب . وطلب منه انطوان رؤية مادلين .. ولم يكن اليمني يجيد الانكليزية فخاطبه انطوان بلغته العربية المكسرة وسرعان ما تفاهما .. غير ان اليمني رفض ادخاله الى الفيلا عندما عرف غايته وهي مقابلة مادلين ... وعند ذلك قفزت من صندوق السيارة وشرعت بالبكاء وأخبرت اليمني بأن مادلين شقيقتي واني وصلت الى الرياض لتوي واني أعمل في قصر أحد الامراء ... فكرت أن ذلك قد يخيفه غير ان تعابير وجهه لم تتغير ... ولوحت بمغلف أمام وجهه وقلت انها رسالة وصلت أمس من الفليبين وان والدتنا مريضة جداً ولا بد أن أتحدث مع مادلين بضع دقائق حتى أبلغها ما قالته الوالدة قبل وفاتها .. وسرعان ما غير اليمني رأيه عندما سمع كلمة أم ... ونظر في وجهي أولاً ثم في وجه انطوان ... وطلب منا الانتظار لحظة عند بوابة الفيلا وتوجه نحو الفيلا ... وعرفنا أنه سيسأل مادلين وربما يطلب منها أن تصف شقيقتها ... وابتسمت بوجه انطوان وأنا أمل ان تنجح خطتنا » وسكتت مارسي لحظة وهي تتذكر احداث ذلك اليوم ثم استطردت : « كان اليمني صارماً وفي وسط حزامه جنبية (خنجر معقوف) وكان تفكيري بصديقتي يمنحني القوة رغم نظرات ذلك اليمني الحازمة .. وكانت مادلين قد أخبرتني بواسطة الهاتف ان يمنيين يحرسون الفيلا ويراقبون الاناث في البيت .. كانوا يمنعون أي خادمة من مغادرة الفيلا .. ولان صاحب القصر كان في اجازة في اوروبا مع كافة اسرته ... فقد سافر اليمنيان الاخران الى اليمن في اجازة أيضاً ولم يبق في الفيلا سوى هذا اليمني وباكستاني يعتني بالحديقة ... ونظرت الى ساعتي ثم سمعت وقع أقدام اليمني حيث عاد وفتح بوابة الحديقة بما يكفي لدخولنا .. واعتراني احساس بأننا سندخل الى الجحيم .. وأشار اليمني الى انطوان بالبقاء خارجاً بينما سمح لي بالدخول »

وسألتها : « كيف وجدت الجرأة على هـذا العمل ... لو كنت مكانك لاستدعيت الشرطـة » وهزت مارسي رأسهـا ساخـرة وهي تقول ان الشرطة لا تساعد الفليبينيات في هـذه البلاد .... بل ان الشرطة تعيدنا الى مستخدمنا او تسجننا او تطردنا من السعودية .. فالشرطة في هذه البلاد تخدم الاقوياء ضد الضعفاء . وكنت أعرف أن ما قالته صحيح ... فالخادمات الفليبينيات في بلادنا أسوأ حظاً من السعوديات . ورغم أني أميرة فإن شرطة بلادي لا تساعدني ضد رغبات ونزوات الذكور في أسرتي حتى لو كنت على حق . وطلبت من مارسي اكمال القصة وأنا أتخيل ممارسات ذلك الذانكشتاين السعودي . ومضت مارسي تقول : « تبعت اليمني وأنـا أنظـر في كـل الاتجاهـات ... كـانت الجدران غير مطلية وثمـة بضع غرف بـلا أبواب خشبيـة بل مجرد بطانيـة تتدلى مكان الابواب .. وثمة حصائر قذرة ومعلبات مفتوحة وروائح قمامة .. وأدركت بأن هـذه الغرف مخصصـة لليمنيين .. وسرنا الى جـانب البركة الخاليـة من الماء باستثناء بقـايا سوداء عنـد المصرف وهياكل ثلاث قطط صغيرة كما يبدو عند حافة مصرف البركة .»

وصرخت بفـزع : « قطط صغيرة ؟» وكانت مـارسي تعرف مـدى حبي للقطط .. وأوضحت لي ان القطط ربما ولـدت داخل البركة ولأن الام لم تستطع اخـراجهم منها فماتـوا . وواصلت مارسي القصـة :« كـانت الفيلا واسعـة وكبيرة لكن منظـرها بشع حتى من الـداخل ... وكان ثمة حديقة لكن النباتـات ذبلت كلها لنقص التروية .. وشاهدت أربعة أو خمسـة طيور في قفص يتدلى من غصن شجـرة كبيرة وبدت الطيور حزينـة ونحيفة ولا تغرد كما هي عادتها ... وعنـد باب الفيلا صرخ اليمني بكلام عربي لم أفهمه يخاطب شخصاً لم أره .. ثم التفت لي وهز بـرأسه يأمرني بـالدخـول .. وترددت عندمـا انطلقت رائحة عفنة من داخل الفيلا .. وشعرت بالفـزع وأنا أنادي مادلين بينما عاد اليمني ليـواصل النوم كما أعتقـد ... وحضرت مادلين من ممـر شبه معتم وركضت نحـوي وعانقتني ودهشت عنـدما شـاهدتها نظيفـة

وينطلق منها شذى عطر ثمين لكنها كانت أنحف قليلاً »

وانتابني شعور بالراحة لاني كنت أتوقع ان تخبرني مارسي بأنها وجدت صديقتها نصف ميتة مستلقية على حصيرة أو فراش قذر وتوصي بنقل جثمانها الى مانيلا .. وطلبت من مارسي مواصلة القصة ... وخفت صوت مارسي وهي تستحضر ذكريات أليمة وأضافت : « بعد أن تعانقنا وبكينا بما يكفي ... رافقتني مادلين الى داخل الممر نحو غرفة صغيرة واجلستني على مقعد مريح بينما جلست هي على الارض أمامي .. وسرعان ما انهالت دموعها ووضعت رأسها حضني فداعبت شعرها الجميل وطلبت منها ان تخبرني بما حدث لها ... وبعد ان كفت عن البكاء أخبرتني بما جرى لها منذ أن غادرت مانيلا .. لقد قابلها يمنيان في المطار يحملان بطاقة عليها أسمها باللغة الانكليزية . ورافقت الرجلين مع أنها لم تشعر بالود نحوهما ... ووصلوا الى الفيلا في وقت متأخر من ذلك المساء ... كان البيت شبه معتم ، ولذلك لم تتبين تفاصيله او نظافته وترتيبه ... وعلمت مادلين أن أصحاب القصر في مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ... وحضرت امرأة عربية عجوز وأرشدتها الى غرفتها وقدمت لها طعاماً خفيفاً وكوباً من الشاي ثم سلمتها ورقة كتب عليها بخط مشوش أنها ستتلقى التعليمات فيما يتعلق بمهماتها في اليوم التالي وبعد ذلك غادرت المرأة الغرفة . وفي اليوم التالي أشرقت الشمس ونهضت مادلين من النوم وصعقت مما شاهدته ... كان الفراش الذي نامت عليه وسخاً والصحون التي أكلت منها بالامس تعج بالصراصير . وبحثت عن الحمام واكتشف ان الدش معطل لكنها نظفت جسدها في البانيو بصابونة صغيرة وماء فاتر .. كانت دقات قلبها تتسارع عندما دخلت المرأة العجوز عليها في الغرفة وطلبت منها أن تتبعها وقادتها المطبخ حيث سلمتها قائمة بالمهمات التي ينبغي عليها القيام بها وهي مساعدة الطاهية والعناية بالبيت والاطفال وأشارت المرأة لها ما معناه أن تحضر لنفسها شيئاً من الطعام وبعد ان تناولت الافطار

بـدأت في جلي الصحون والاواني القـذرة .. وكان في البيت الى جـانب مادلين ثلاث خادمات اخريات : طـاهية من الهند وخادمة جميلة من سريلانكا واخرى من بنغلادش ... كانت الطاهية في الستين من عمرها والخادمتان الاخريان في أواسط العشرينات من العمر .. ولاحظت ان الطـاهية تـرفض الحديث مع أي شخص ذلـك أنها ستعود الى الهنـد خـلال شهـرين حيث ستنعم بـالحرية ودفء بيتهـا ..بينما كـانت الخادمة البنغـلاديشية صـامتة وتبـدو عليها التعـاسة أمـا الخادمة السيريلانكية الجميلة فكـانت لا تعمل كثيرا وتقضي معظم وقتها أمام المرآة ... وتتمنى أن تعـود الاسرة من مكـة بالسرعـة الممكنـة بل انها ألحت لمادلين بأن سيـد القصر يحبهـا وانها تتـوقع ان يحضر لها من مكة قلادة ذهبية واستغربت مادلين عندما طلبت منها السريلانكية ان تستدير حتى ترى مدى تناسق جسدها ثم وضعت يديها على أرداف مادلين قائلـة ان سيد القصر سيجدها نحيفـة ... لكن ربما يحبها أحد أبنائه ... ولم تفهم مادلين ما ترمي اليـه السريلانكية فواصلت عملها في تنظيف البيت .

وعاد أصحـاب القصر من مكة بعد أربعة أيـام ... وأدركت مادلين منذ البـداية بأن أسيادها من طبقـة وضيعة ومنحطة ... كانـوا قساة وبلا أخلاق وسرعان أثبتت تصرفـاتهم انطباعها عنهم .. ويبدو أنهم أصبحوا أثريـاء بالصدفة وكـان القرآن الكريم هو ثقـافتهم الوحيدة لكنهم مع جهلهم حـوروا تعـاليم القـرآن بحيث تنـاسب حـاجـاتهم ونزواتهم .

وتبين أنهم يعتبرون أي امـرأة مجرد خـــادمـة واذا لم تكن المرأة مسلمة فهي سـاقطة .. والادهى من ذلـك ان سيد البيت كان يـرافق ولديه الى تايلاند أربع مرات في العام ويتردد معهما على بيوت الدعارة في بـانكوك . ولأن بعض النســاء في الشرق الاقصى يبعن أجســادهن أعتقـد سيـــد البيت وأبنـاؤه ان كـافـــة النســاء غير المسلمات يبعن أجسادهـن ... وكان اذا استخدم خـادمة يفترض سلفـاً بأنها مجرد

حيوان ينبغي عليهـا أن تلبي رغبات ونزوات كافة الـذكور في البيت . وعن طـريق سيدة البيت عـرفت مادلين أنـه تم استخدامهـا لاشباع غريـزة الجنس لدى ولـديها وانها ستنام يومـاً مع باسل ويـوما مع فارس ... قالت سيدة البيت (اي الوالدة) هذا الكلام بدون أي عاطفة وهو أثار دهشــة مادلين .. والذي حدث بعـد ذلك ان سيد البيت (اي الوالـد) استلطف مادلين وقرر الاستئثـار بها قبل ولديه بل انـه قال لهما ان باستطـاعتهما النوم معهـا بعد ان يشبع هـو منها . وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه العائلة من مكة قام الوالد باغتصاب مادلين ... وواصل اغتصابها بعد ذلك يومياً .

وسـألت مــارسي : « ولماذا لم تهرب وتبحث عمـن يسـاعـدهـا ؟ »
وأجابت مــارسي : « لقد حاولت وتوسلت الى الخادمــات الاخريات ان يساعدنها . لكن الطـاهية الهندية والخادمة البنغاليـة خشيتا التدخل بينما كانت الخادمـة السريلانكيـة تكره مادلين أمـا الزوجـة ونساء البيت فكن مـوضع معاملـة سيئة أيضاً فتجـاهلنها وقلن لها انـه تم استخدامها أصلاً لاشباع غرائز الرجال في البيت . »

قلت لمارسي : « لو كنت أنا مكان مادلين لقفزت من النافذة وهربت »

وأجـابت مــارسي : « لقـد حـاولت الهرب غير مـرة لكنهم كـانـوا يمسكونها قبل ان تنجح في الفرار ... وصدرت الاوامر الى كافة من في البيت بضرورة مراقبتها وحراستها .. وذات ليلة عنـدما كانت العائلة كلها تغط في النوم صعدت مادلين الى سطح القصر والقت بقصاصات ورق في الشارع المجـاور تطلب فيها المسـاعدة ... ومر سعـوديون في الشـارع وعثروا على قصاصات الـورق وسلموها الى اليمنيين وكانت النتيجة أنها عوقبت بالضرب » وسـألت مــارسي :« وماذا حدث بعد أن وجدت مادلين ؟ »

فتنهـدت وواصلت القصــة : « لقـد بــذلت جهـدي وقمت بعـدة محـاولات ومن ذلك اتصلت بـالسفـارة الفليبينية فـرد علي رجل من

السفـــارة بأنهم يتلقـــون شكـــاوي كثيرة من هـــذا النـــوع وليس باستطـاعتهم ان يفعلوا شيئـاً بهذا الصدد ... وان بلادنـا تعتمد على حـوالات الخادمات الفليبينيـات ولا تـرغب حكـومة الفليبين ازعـاج الحكومة السعودية بتقديم شكاو رسمية من هذا النوع لأن من شأن ذلك طـرد كـافة الفليبينيين من السعـوديـة ... وقام أنطـوان كـذلك بالتشـــاور مع عدد من السائقين حول تقـديم شكوى الى دوائر الامن السعوديـة . لكن السائقين أخبروه بأن الشرطة السعوديـة ستصدق فقط ما يقوله السعودي وبالتـالي فان وضـع مادلين سيزداد سوءاً ... وهكذا لم أعد أعرف ماذا أفعل بل ان انطوان نفسه شعر بالفزع وقال اننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً . وأخيراً كتبت رســالة الى والدة مادلين وأخبرتها بكل شيء فذهبت الى مكتـب اللبناني في مانيـلا لكنه طـردها وقال أنه لا يعرف شيئاً عن الموضـــوع ... فذهبت الى رئيس البلدية في بلدتنا لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ... ويبدو أن أحداً لم يشأ التدخل في هذه المأساة المروعة . »

سـألتها : « وأين مادلين الان ؟ » وقالـت مارسي : « استلمت رسالة منها قبل شـهر ... فقد عادت الى الفليبين بعـد انتهاء عقد عملها ومدته سنتان . وجاء محلها شاباتان فليبينيتان .. وهل تصدقي بأن مادلين غاضبة مني لاعتقادها بـأني لم أحاول مساعدتها ؟ وسكتت مارسي . ولم أستطع الدفاع عن الرجال في بلادي وكيف يمكن الدفاع عنهم ؟

كانت القصـة مروعة وتبعث على الخجل ... وفكرت بما ستقـوله مادلين على السعـوديين ... المهم لم أشعر بأني أفضل من هـذه الفتاة مارسي التي كانت الى ما قبل لحظات خـادمتي وأنظر لها نظرة فوقية متعالية .. وطلبت منها أن تتركني لوحدي ... وبقيت بضعة أيام هادئة أفكر بما تعانيه النساء سواء كن سعوديات أو أجنبيات في هذه البلاد التي أسميها وطني .

لاشك ان في بلادي الاف الشـابات عانين ويعـانين مثل مادلين ... وقررت الاتصال بصديقـاتي والتحقيق معهن حول كيفية معاملتهن

للخادمات في بيوتهن ... وعلمت منهن ان الوضع لا يختلف كثيراً عن ذلك البيت الذي عملت فيه مادلين وان جرائم يندى لها الجبين خجلاً ترتكب في بلادي ضد الاجنبيات . سمعت بقصة شاكونتيل ... فتاة هندية في الرابعة عشرة من عمرها باعها أهلها بألف ريال سعودي أي ما يساوي (٢٥٠) دولاراً تقريباً وكيف أنها كانت تعمل في النهار خادمة ويتم الاعتداء عليها ليلياً مثل مادلين .. لكن سيد شاكونتيل اشتراها شراء وبالتالي كانت من ممتلكاته ولا تستطيع العودة الى بلادها .

وشعرت بالهلع عندما سمعت ان امرأة سعودية ضحكت كثيراً عندما شكت لها خدامة تايلاندية بأن ابنها اعتصبها ... وان المرأة السعودية قالت لها ان ابنها بحاجة لممارسة الجنس ولا يستطيع ذلك مع بنات سعوديات ولذلك يتم استيراد الخادمات الاجنبيات للقيام بهذه المهمة وهي اشباع غرائز ذكور العائلات السعودية المستوردة (!؟) وان النساء الاسيويات خاصة من الشرق الاقصى لا يهمهن شخصية من يضاجعهن وان الذكر السعودي يعتبر ملكاً في عيني والدته !!

وفكرت فجأة ان اسأل علي عن سر رحلاته مع الوالد الى تايلاند والفليبين ثلاث مرات في العام ... فلم يجبني وقال ان ذلك لا يعنيني ، لكني عرفت الجواب لأن آباء وأشقاء صديقاتي كانوا يقومون بنفس الرحلات الى تلك البلاد التي تباع فيها الاجساد بأسعار بخسة . واكتشفت بأني لا أعرف الكثير عن الرجال وميولهم الجنسية .. وان ما يجري أمامنا في العلن هو مجرد واجهة مزيفة ... لكن ما يجري في السر هو الحقيقة ... ولأول مرة في حياتي أدركت صعوبة مساواة المرأة بالرجل خاصة في بلادي حيث تعتبر المرأة مجرد متعة ووسيلة للانجاب ... وان جدران سجننا عالية لا يمكن القفز من فوقها ... وان

ملكية جسـدي وروحي ستنتقل قريباً من والدي الى غـريب سأدعوه زوجي .. ذلك ان والـدي أخبرني بأنـه سيـزوجني عنـدمـا أتجاوز السـادسـة عشرة من عمـري بثـلاثة أو أربعـة أشهـر ... وشعـرت بسـلاسل التقاليـد تلتف حـول جسدي وروحي ، اذ لم يبق أمـامي سوى أربعـة أو خمسة أشهر من الحرية ... كنت أنتظـر مصيري بلا رجاء أو أمل مثل أي حشرة .

هُـدى

كانـت الساعـة العاشـرة مساء اليوم الثاني عشر من كانون ثاني (ينـاير) ١٩٧٢ وكنت مع شقيقـاتي التسع نستمع بـاهتمام الى ما تقوله عبدتنا السودانية القديمة (هدى) عن مستقبل سارة .

وكانت سارة منذ طلاقها قد درست الفلك والتنجيم وتولدت لديها القناعة بان القمر والنجوم أضطلعت بدور رئيسي في توجيه حياتها . . أما هـدى التي ملأت آذاننا منـذ وقت مبكر من حياتنـا بقصصها عن السحر الاسود فكانت تشعر بـالسرور عندما نتحلق حولها ونستمع الى قصصها التي تسلينا من رتابة الحياة المملة في الرياض .

وكنا نعـرف ان هدى ضلت عن امها التـي كانت تبحث عن الكماة في الارض عام ذات يوم عام ١٨٩٩ وكانت هدى في الثامنة من عمرها آنذاك وان تجار عبيـد عرب اختطفوهـا من السودان . . وفي طفـولتنا اعتادت ان تسلينا باعادة قصة اختطافها من السودان واحضارها الى الجزيـرة العربيـة ، وكـانت هدى تمثل العمليـة بتفـاصيلها وتقـوم بحركات مضحكة . . لقد مثلت لنا الدراما عشرات المرات . . حيث تلف شرشفاً على رأسهـا ووجهها حتى تـوضح لنا كيف لـف تجار العبيد رأسها ثم تتلوى وتحرك يديها ورجليها وكأنها تقاوم اولئك الاوغاد ثم تقع ارضاً وتصرخ وتنـادي على امها . . وبعد ذلك تقفـز الى مائدة الطعام وتنظـر من عل (وبذلك تـوضح لنا كيف تم نقلهـا الى سفينة أبحرت من السودان باتجاه الجزيرة العربية) .

وكـانت تروي لنـا كيف كـان البعض يسرق طعامهـا . . ثم تضع يديها خلف ظهـرها وتمشي ببطء موضحـة لنا كيف تم اقتيـادها الى سوق العبيد .

المهم ان تاجـر العبيد بـاعها مقـابل بندقيـة لاحد افـراد قبيلة ان الـرشيـد الـذي اقتادهـا الى قلعـة (مسماك) حصن آل الـرشيـد في

العاصمة الرياض .

وبدأت هـدى تعيد امامنـا تمثيل اختطافها وبيعهـا وما شاهـدته عندما هاجم عبد العزيز (جدي) الرياض واشتراها من آل الرشيد . . كانت تركض هنا وهناك امامنـا تمثل الذعر الذي أصابها لدى هجوم عبد العزيـز ورجاله على الرياض وكيف احتل القلعـة وأعاد سلطة آل سعود . . وكان عبد العزيز هو الـذي انقذ هدى وغالباً ما كانت تنهي قصتها بـان تهجم على واحدة منا وتشبعهـا تقبيلاً وتقسم لنـا بانها قبلت جدنا عبد العزيز عنـدما انقذها . . كيف انتقلت الى ملكية والدي بعد وفاة جدنا .

كانت هدى احياناً تثير ذعـرنا بقصصها عن السحر والسحرة . . ولاني صرت احلم بـالسحرة واستيقظ مـذعورة منعتها والـدتي من مواصلـة قصص السحر والسحـرة ، لكنه بعـد وفاة والـدتي عادت هدى الى عادتها القديمة في رواية قصص الجن والعفاريت والسحرة .

أخذنا نراقب هدى باهتمام بـالغ وهي تتفرس في خطوط راحة يد سارة وتدقق نظرها وكأن مستقبل سارة يتكشف امامها . اما سارة فلم تبد اهتمامـاً بالامر لانها كانت تتـوقع ما ستقوله هـدى وهو ان سارة لن تحقق امنيـاتها وشعرت بالاستيـاء من ذلك لاني كنت اريد لســارة السعادة ، ولـذلك انـزعجت من هدى وقلت لها ان نبـوءاتها ليست صحيحـة . لكنهـا واصلت بنـــوءاتها . . وبعـد لحظـة صمت وضعت هـدى يـدهـا على ذقنهـا قـائلـة : « مـا هـذا ؟ . . . أرى بأنك ستتزوجين قريباً يا سارة » .

عند ذلك سحبت سارة يدها ذلك ان اخـر ما كانت تود سماعه هو كابوس زواج اخر بعد كل ما عانته في زواجها الاول .

وضحكت هدى برقـة وقالت لسارة انها لا تستطيع ان تهرب من مستقبلهـا وانها ستتزوج فعـلاً شخصاً تحبـه وتنجب ستة اطفـال يملأون حياتها سروراً وسعادة . لكن سارة هزت كتفيها غير مصدقة

وربما لا مبالية ونظرت مبتسمة وطلبت مـن هدى ان تقرأ راحة يدي قائلة : « اذا استطعت ان تكشفي لنا مستقبـل سلطانة فسأصدق كل ما تقوليـه عني او عن غيري » وضـحكت شقيقاتي كلهن ووافقن على ما قالته سارة وكنت اعرف بان شقيقاتي يحببني جداً .

وناولت كفـي لهدى وطلبت منها ان تخبرني ماذا وكيـف سأكون بعد سنة من ذلك التاريخ .

وتجاهلت هدى وقاحتي وأخـذت تتفرس وتدرس خطوط راحتي ومضت الدقائق تلـو الدقائق قبل ان تنبس بكلمة . . ثـم هزت رأسها وتمتمت بكلمات لم نفهمها ونظرت في وجهي نظـرة غير طبيعية وهو مـا دفعني للتشـاؤم من نبوءاتها . . وقـالت هـدى بصـوت واثق ان والـدي سيخبرني عـاجلاً عن زواجي واني سـأعاني من التعـاسـة وأشعـر بـالسعـادة في نفس الـوقت مـع زوجي وان تصرفـاتي في المستقبل تنطوي على خير وشر للأسرة . . وسأكون موضع حب كبير وكـراهيـة شديـدة . . وبأن في أعماقي قـوى خيرة واخـرى شريـرة وسأكون لغزاً لكل من يحبني .

ورفعت هـدى يديها الى السماء وسألت اللـه ان يتدخل في حيـاتي ليحميني من نفسي ثم عـانقتني واجهشت بـاكيـة . وقفـزت نـورا وخلصتني من يدي هدى وطيبـت خاطري وواستني بينما انسحبت هدى من الغرفة وهـي تدعو الله ان يحمـي اصغر بنات فضيلة .

شعرت بـالفزع من نبوءة هـدى وسالت دموعي وتـذكرت بأنها وصفتني ذات يـوم بكلمة (سـاحرة) وفكـرت ان هدى ربما تكـون ساحرة .

وربتت شقيقتي (تهاني) على كتفـي وأسكتتني قـائلـة ان كل النبوءات كـلام سـخيف . . وبدأت شقيقاتي تبادل النكـات والطرائف والضـحك على اساليبي في استفزاز علي واستغفاله ومن ذلك أني طلبت من احدى صديقاتي ذات يـوم ان تتصل بعلي وتخبره بانها متيمة في

غرامه ، وكنا نسترق السمع على هاتف اخر في المنزل وهو يتحدث مع صديقتي ويحاول ترتيب موعد معها خلف فيلا جديدة كانت قيد الانشاء في المنطقة . . وتم الاتفاق على الموعد فذهبت مع شقيقاتي الى منزل صديقتي الذي تطل شرفاته على الفيلا قيد الانشاء وغرقنا في الضحك عندما شاهدنا علي واقفاً ينتظر الحبيبة المجهولة . . وقف اكثر من ساعتين ينتظر ويتلفت بلهفة في كل الاتجاهات . . والأدهى من ذلك ان صديقتي عادت للاتصال به وطلبت منه انتظارها في نفس المواقع وذهب علي مرة اخرى واخرى بدون جدوى . . وفكرت ايامها ان هذا الحجاب السخيف المفروض على النساء لا يلحق الاذى بنا فقط بل بالرجال ايضاً .

وبعد جلسة المرح والضحك استعدت ثقتي بنفسي ونسيت نبوءات هدى بل وطردتها من رأسي لانها تجاوزت الثمانين وربما تكون خرفانه .

لكن مخاوفي عادت فجأة عندما زارنا الوالد في ذلك المساء وابلغني بأنه عثر على الزوج المناسب لي . . وبذلك تحققت أولى نبوءات هدى . . وبسبب الافكار المعقدة والمتشابكة التي عصفت برأسي نسيت ان أسأل الوالد عن اسم الزوج المقترح وانسحبت من امامه والسواد نعيش عيني والغصة في حلقي وانا أتذكر كلمات هدى ولأول مرة في حياتي صرت اخاف من مستقبلي .

عادت نورا الى بيتنا في اليوم التالي لابلاغي بأني سأتزوج كريم احد ابناء عمومتنا . . وكنت في الطفولة العب مع شقيقة كريم التي كانت تصفه بالعنجهية والتعالي . وكان في الثامنة والعشرين من عمره وسأكون زوجته الاولى . . وقالت نورا انها شاهدت صورة كريم وأكدت بانه وسيم جداً فضلاً عن كونه مثقفاً حيث درس المحاماة في لندن وانه بعكس معظم افراد الاسرة المالكة بنى لنفسه مركزاً مرموقاً في عالم الاعمال وافتتح لنفسه مؤخراً مكتب محاماة في الرياض . . وأضافت نورا بأني فتاة محظوظة لان كريم اخبر الوالد بانه يريدني

ان أكمل تعليمي حتى يكـون زواجنـا شراكة عقليـة وروحيـة وحتى افهمه ويفهمني .

وبعد مغـادرة نورا اتصلت بشقيقة كـريم وطلبت منها ان تنصح شقيقهـا ان يعيـد التفكير في مسألـة زواجـه مني لاني لن اسمح لـه بالزواج علي واني سأدس السم لاي واحد يفكر بالزواج منها بعدي . . وفضلاً عن ذلك قلت لها اني مشوهة لان زجـاجة أسيد اندلقت على وجهي ورقبتي منـذ ايـام الـدراسـة فتشـوه وجهي نتيجـة ذلك . . وابتسمت عندما طلبت منـي الانتظار على الهاتف ويبدو انها اسرعت لتخبر شقيقها .

وفي وقت لاحق ذلك المساء حضر الـوالد غـاضباً وبرفقتـه خالات كريم . وأرغمت على الوقوف امـامهن حيث حدقوا في وجهي واطرافي لمعرفة ما اذا كان ثمة تشوهات وغضبت جداً من ذلك الفحص المباشر والـوقح وفتحت فمي وطلبت منهن ان يفحصن اسنـاني ايضاً وانـا اسخـر منهن كما صرخت في وجوههن وقلبـت حذائي امـامهن وهي حركة تعني اهانة كبيرة في السعودية .

كـان والدي واقفـاً يصارع أحـاسيسه ولشـدة دهشتي لم يفعل شيئاً بل غرق في الضـحك فجأة بينما كنت اتوقع ان يضربني . . وآخر مـا كنت اتـوقعه ان يغـرق في الضـحك على ذلك النحـو الـذي دفعني للضـحك معه .

وجاء علي وسـارة الى الغرفة ووجـداني اضحك مع الوالد فـوقفا وعلى وجهيهما علامات التساؤل والدهشة .

وتهالك والدي على مقعد مريح يمسح دموعه التي سالت من شدة الضـحك . . ثم نظر اليّ قائلاً : « لماذا لم تحاولي عضـهن باسنانك عندما فتحت فمك . . لقد أفزعت النسوة يـا بنت . . لكنك رائعة ولا اعرف ما اذا كنت سأشفق على كريم او احسده على زوجة مثلك لان الحياة معك مشكلة بالفعل » وعاد الوالد للضـحك مرة اخرى . . فجلست الى جانبه

حيث وضع يده على كتفي وهــو ما شجعني على سؤال والــدي ما اذا كان بأمكاني مشاهدة كريم قبل الزواج .

والتفت والــدي ونظر الى سارة . . ومســت تعابير وجههـا وتراً في قلبه . فأشــار لـها ان تجلس الى جانبه . . ولم ينبس احدنـا بكلمة لكن الاتصـــال حدث بيننـا بصمت رغم فـرق العمـر . اما علي فقـد دهش لاهتمام الوالد بنـا على ذلك النحو فاستند الى البـاب والذهول واضح على وجهه .

كريــم

دهش والدي كما دهشــت لأن اسرة كريم لم تفصل الخطـوبة. بل أن كريم ووالــده زارا والدي في مكتبـه في الاسبوع التالي وطلبنـا منه السماح لكـريم برؤيتي بـوجود اهلي طبعـا.. وكـان كريم قـد سمع بتصرفاتي غير الطبيعية المتمـردة على التقاليد يريـد ان يعرف ما اذا كنت مجنونة ام واثقة من نفسي زيادة عن اللازم واتمتع بروح عالية.

ولم يستجب الوالد لطلبي في مقابلة كريم، اما عندما جاء الطلب من عائلة كـريم فقد اختلف الامر.. فبعد ان تباحث الوالـد مطولا مع عدد من عماتي وشقيقتي نورا وافق على طلب كريم في رؤيتي.

وسررت جدا عندمـا اخبرني الوالد بذلك.. اذ انني سـاقابل الرجل الذي سيتـزوجني. واستغربت شقيقاتي الامـر فليس من المألوف في مجتمعنا ان يتقـابل الرجل والمرأة قبـل الزواج.. كنا اسرى سـلاسل التقاليـد البالية وتم الاتفـاق بين والديّ كريم وبين والـدي ونورا ان يحضر كريم بـرفقة والدته الى بيتنـا لتناول الشـاي بعد الظهـر خلال اسبوعين.. وسيجلـس معي ومع كريم عنـد تناول الشــاي شقيقاتـي سـارة ونورا واثنتان من عماتي ووالدة كريم.

ومع هذه البوادر المشجعة بأني سأسيطر على حياتي ازداد الامل في اعماقي.. وتساءلـت مع نفسي فيما اذا كنت سأجد كريـم من النوع الذي احترمه واحبه.. ثم روادتني فكرة غير سارة وهي كيف سيكون الوضع اذا لم يشعـر كريم نحـوي بالحب او لم أعجبـه.. وتمنيت لو كنت جميلة مثل سارة حتى يشتهيني كل الرجال.

وصرت اقف سـاعـات امـام المرآة واشعـر بـالاستيـاء لأني غير ممتلئة.. كان انفي صغيرا بـالنسبة الى وجهي وعيناي غير جميلتين.. لعله كان من الافضل اخفائي وراء الحجاب حتى ليلة العرس.

وحاولت سارة تطميني بقولها ان الرجال يحبون الفتيات المرحات خاصة ذوات العيون الضاحكة والانف الصغير.

امـا نـورا التي كان الجميع يحترم رأيها فقـالت ضـاحكـة ان كل النسـاء في الأسرة يعتبرنني جميلــة.. لم اكن قبل ذلك اسعى للجمال وبالتالي فكرت ان الوقت قد حان للاهتمام بمظهري.

ولرغبتي الشديدة في ان اصبح امرأة مرغوبة اخبرت والدي فجأة بأني لا أملك ثيابا مناسبة ارتـديها. ونحن السعوديات رغم الحجاب والعباءة فأننا حـالما ندخل بيوت الصديقـات نخلع الحجاب والعباءة فورا. ولأننا لا نستطيع اغراء الرجـال باستثناء الازواج فإننا نتفنن في اختيارنا لملابسنا حتى نثير فضـول بعضنا بعضا... اي اننا نلبس لنتباهى امام النساء في حفـلات الشاي التي تقيمها النساء لبعضـهن البعض.

وكثيرا ما دهشت النسـاء الاجنبيات من اناقة الملابس التي نرتديها تحت العباءات. ذلك أننـا في السعودية نهتـم بملابسنا وانـاقتنا تحت العباءة اكثر بكثير من من النسـاء الاوروبيات اللواتي يرتدين ما يحلو لـهن.

وابتهج الوالد لأني اظهرت اهتماما بـالزواج الذي خططه وبالتالي وافق على طلبي بسرور. وســافـرت الى لندن بـرفقـة نورا وزوجهـا للتسـوق من «هارودز».. وكت اشعر بـالخجل عندما اخبر البائعات في هارودز بأني سأقابل خطيبي خلال الاسبوع التالي. ولم اشأ بصفتي اميرة سعودية ان يشعرن بأني افتقـد حرية الخيار لكنهن مع ذلك لم يظهرن اي دهشــة مما قلته لهن.. فـالنساء المتحـررات لا يدركن قيم الانتصارات الصغيرة التي تحققها نساء في بلاد شبه متحجرة.

وفي لنـدن اخذتني نـورا الى صـالـون تجميل واستدعت بعـد ذلك خبراء في الجمال والالـوان المنـاسبـة وتقـرر ان افضل الالـوان التي تناسبي هو الاخضر الزمـردي، فاشتريت (١٥) طقما من هذا اللون،

كما تم تسريح شعري حتى تحولت الى امرأة اخرى.

وفي يوم حفلة الشاي المتفق عليها ساعدتني سارة ومارسي في ارتداء ملابسي وشعرت بالاستياء الشديد لأن التسريحة التي عملتها في لندن اختلفت قليلا. وفجأة ظهرت هدى عند باب غرفة نومي وقالت: «احذري وتذكري.. ستعرفين السعادة في البداية ثم تأتي التعاسة مع زوجك نفسه» فقذفتها بفرشاة الشعر وطلبت منها بصوت عال الا تفسد عليّ يومي.. وغضبت سارة مني وقالت: «أخجلي من نفسك» فهدى إمرأة طاعنة في السن ولا يجوز مخاطبتها بهذه اللهجة.. لكن ضميري لم يؤنبني واخبرت سارة بذلك فقالت: «لأنك عديمة الضمير». وتناقشت مع شقيقتي فترة الى ان قرع جرس باب المنزل وعند ذلك عانقتني وقال: «انك فائقة الجمال بهذا الطقم الاخضر الزمردي».

كنت سأرى زوجي المتفرض لأول مرة.. وتسارعت دقات قلبي وشعرت وكأن كل العيون مركزة عليّ وهو احرجني واربكني حتى نسيت نوع المشية التي كنت سأمشيها لدى دخولي على العائلة وبينهم كريم.. وتمنيت لو اعود الى عهد الطفولة.

ولم يكن ثمة حاجة لكل تلك المشاعر لم يكن اوسم شاب رأيته في حياتي فقط، بل انه التهمني بنظراته ووقع في غرامي من اول نظرة. وبعد دقائق ادركت انه لن يتخلى عني اطلاقا مهما فعلت، واكتشفت في نفسي موهبة خفية وهي طلاقة لساني والقدرة على التمثيل اذ انني تصنعت دور الخجولة.

كانت والدته تراقبني عن كثب ربما كانت سارة ونورا وعماتي يتبادلن النظرات المختلفة. اما كريم فكان كالمسحور وهذا ما كان يهمني اكثر من اي شيء آخر.

وقبل ان يغادر البيت مع والدته تساءل ما إذا كان بالامكان ان يتصل معي هاتفيا خلال الاسبوع لبحث خطط وترتيبات الزواج،

فأجبته بنفسي: «طبعـا تستطيع ذلك اي وقت بعد التـاسعة صبـاحا» وابتسمت له باغراء ابتسامة واعدة عندما ودعنا .

بـدأت اردد احـدى اغنيات فيروز عن الحب وانـا استمع الى نـورا وسارة وعماتي عن الاخطاء التي ارتكبتهـا، وقلن لي ان ام كريم ربما تثني عزمه عن الزواج بي لانها شـاهدت مدى هيامه بي...واتهمتهن بالغيرة مني لأني تمكنـت من مشاهدة خطيبي قبـل الزواج بعكسـهن جميعاً.. وقلت لعماتي كـذلك بأنهن عجائز لا يفهمن خفقـات القلوب الشابة.. وتركتهن ذاهـلات من اجوبتي الحاسمة ودخلت الى غرفتي اغني باعلى صوتي.

وفي وقت لاحق فكرت بأدائي امام كريم، فلقـد احببته ولذلك كان يهمني ان يحبني ويغرق في حبي. وفكرت لو أني وجدته ذميماً واراد الغاء الخطبة لسكبت الشاي في حضنـه، واخرجت لساني لأمه.. لكن لحسن حظه وجدته جذابا ولطيفا وطيب المعشر.. وشعرت بالابتهاج طبعا لأني لـن اتزوج رجلا في السبعين مـن عمره لا يعرف شيئـا عن الحب.

ومع هذه الافكار السارة التي ظلت تـراود خاطري اعطيت مارسي ستـة اطقم من ملابسي القـديمة الثمنيـة واخبرتها بأني سأطلب من والدتي ان ترافقني الى بيت الجديد.

واتصل كـريم تلك الليلة وكم كـان سروري عظيما عندمـا ابلغني بأن والـدته نصحته الا يتـزوجني لأنها استاءت من جـرأتي وتنبأت بأني سأسبب له الصـداع وربما كارثة لـلاسرة كلها. وضحكت على الهاتف وقلت له ربما تكون نصيحة والـدته في مكانها والافضل له ان يرد عليها.

وبادلني كـريم الضحك قائلا انـه رأى في فتاة الاحـلام التي كان يبحث عنها.. فتـاة جميلة وذكية ومـرحة. وأنـه يرفض كافـة البنات اللـواتي عـرضتهن والـدتـه عليـه..وأضـاف انـه يحب الفتـاة ذات

الشخصية القوية.. ثم همس «لقد سعدت عيناي برؤياك».

ثم سألني كريم سؤالا محرجا وهو ما اذا تم ختاني وانا طفلة واخبرته بأني سأسأل الوالد لكنه حذرني قائلا: «اياك ان تسأليه.. فاذا كنت لا تعرفي فهذا يعني انهم لم يختنوك» وبدا لي انه سر من اجابتي.

وبكل براءة طرحت موضوع الختان على مائدة الطعام، وكان والدي عند زوجته الثالثة ولذلك كان علي يتصدر مائدة الطعام، ودهش علي جدا من سؤالي وازال نظاراته عن عينيه والتفت الى سارة حتى تجيبني. بينما واصلت انا التهام الطعام،

وحضرت لحظات شاهدت خلالها قلقا يغشى عيني سارة، ورفعت رأسي واكتشفت ان الاستياء يشمل الجميع.

ولأن علي يعتقد بأنه زعيم الاسرة في غياب الوالد، ضرب على المائدة بقبضته وطلب ان يعرف من اين سمعت بكلمة «الختان» فادركت ان شيئا خاطئا حدث وتذكرت تحذير كريم وقلت اني سمعت بعض الخادمات يتحدثن عن ذلك.

واستبعد علي جهلي ورمقني بنظرة حادة وطلب من سارة ان تدعو نورا في صباح اليوم التالي حتى تتحدث « مع هذه الطفلة» على حد تعبيره.

وكانت نورا وهي شقيقتنا الكبرى مسؤولة عن تعريفنا بهذ الامور بعد وفاة والدتنا. ووصلت في اليومالتالي عند الساعة العاشرة واتجهت مباشرة نحو غرفتي وأخبرتني بأن علي غاضب منها لأنها الاخت الكبرى، وأنها لا تقوم بواجباته نحونا كما ينبغي وانه سيخبر الوالد بذلك.

وجلست نورا على طرف سريري وسألتني بصوت رقيق عما اعرفه عن العلاقة بين الرجل والمرأة، واجبتها بثقة بأني اعرف كل ما ينبغي معرفته. وابتسمت نوار قائلة: «اخشى ان لسانك هو سيدك..

فربما لا تعرفين كل شيء عن الحياة» لكنها اكتشفت بأني اعرف الكثير عن الوصال الجنسي.. وفي السعودية كما هو الشأن في اقطار الخليج يعتبر الحديث عن الجنس من الامور المحرمة «تابو» غير ان نساءنا لا يتحدثن عن شيء آخر انهم لا يتحدثن في اجتماعاتهن الا عن الجنس والرجال والاطفال.

وفي بلادي حيث لا توجد نشاطات تشغل عقول النساء، فعملهن الوحيد هو الاجتماع مع بعضهن في هذا القصر او ذاك على مدار الاسبوع باستثناء يوم الجمعة حيث يأكلن الحلويات ويحتسين القهوة والشاي ويواصلن الثرثرة، وما ان تبدأ المرأة في التحجب حتى تنضم الى هذه الاجتماعات النسائيةبشكل اوتوماتيكي.

ومنذ ان تحجبت كثيرا ما استمعت بمتعة الى عرائس صغيرات يتحدثن عن ليلة عرسهن «ليلة الدخلة» كن يتحدث عن كل شيء بالتفصيل... وكانت بعض الشابات المتزوجات يعلن صراحة بأنهن يستمتعن «اثناء الوصال الجنسي ويبلغن النشوة» بينما تقول اخريات بأنهن كن يتظاهرن بالاستمتاع في سبيل الاحتفاظ بالازواج وحتى لا يفكر اولئك الرجال بالزواج مجددا.. وثمة نساء يحتقرن الجنس ويقلن انهن يغمضن اعينهن اثناء الوصال ويتحملن العملية على مضض. وهناك نساء كن يلذن بالصمت خلال هذه الاحاديث وهن النساء اللواتي كن يتعرضن الى ممارسات سادية من ازواجهن كما كان الشأن مع شقيقتي سارة.

واقتنعت نورا بأني اعرف الكثير عن الحياة الزوجية، لكنها ابلغتني بأن واجبي كزوجة ان اكون جاهزة لممارسة الجنس مع كريم في اي وقت يشاء مهما كانت مشاعري او احاسيسي.. واجبتها بأني سأفعل ما أريد وان كريم لا يستطيع ارغامي على ممارسة الجنس دون رغبة مني. فهزت نورا رأسها محتجة وقالت ان كافة الرجال بما في ذلك كريم لا يمكن ان يتحملوا رفض الزوجة للوصال... لأن سرير الزوجية حق مطلق للرجل.. ولفت انتباهها بأن

كـريم يختلف عن السعوديين الاخـرين وانه لا يمكن ان يـرغمني او يستمعل القـوة معي.. واكدت لي نـورا بان الـرجال لا يفهمـون هذه الامور وان رغباتهم بهذا الخصوص مطلقة وستخيب آمالي بكريم اذا اعتقدت بأنه يختلف عن باقي الرجال.

وحتى أغير مجرى الحوار سـألت شقيقتي عـن الختــان فخفت صوتها وهي تخبرني بأنها اختتنت عندمـا كانت في الثانية عشرة من عمرها.. وان الثلاث شقيقات التاليات اختتن ايضـا اما الست شقيقات الاخريـات بما في ذلك انا فلم يختتـن بناء على نصيحة طبيـب غربي. واضـافت نورا بأني محظوظة إني لم احتمل آلام عملية الختان.

ثم شاهدت حزنا عميقا في عينيها فسألتها: ماذا حدث؟

قالت نورا ان كل النساء منذ عدة اجيال يختتن وان والدتي نفسها اختتنت عنـدما اصبحت امرأة اي قبـل بضعة اسابيع مـن زواجها.. وعندما بلغـت نورا الثانية عشرة من عمـرها اخذتها الوالـدة الى قرية قريبة من الـرياض وتم ختانها هناك. حيث اقيمت حفلـة خاصة على شرف ختـانها وقبل الشروع في المراسم اخبرتها والـدتي ان العجـائز سيقمن بشعائر بسيطة وان من الضروري ان تستلتقي نورا بهدوء.. وضربت احـدى النساء على الطبل بينما انطلقت في الغنـاء، واجتمعت العجائز حول الطفلـة المذعورة نورا وكانت عـارية من خصرها حتى قديمها.. واتت اربع نســاء وامسكن بها فوق شرشف نظيف. ورفعت احدى العجـائز يدها في الهواء حيث شــاهدت نورا في يدهـا اداة حادة كـالموسى وصرخت نـورا وشعـرت بـالم حـاد في اسفل بطنهـا.. ثم حملتها النســاء وهنأنها بأنها اصبحت امرأة... وشــاهدت نـورا الدم يسيل بين ساقيها.. واتت امرأة وضمـدت الجرح والبستها ملابسها وبذلك انتهت مراسم الختان

والتأمت جـراحهـا بسرعــة، لكنها لم تفهـم اثار الختـان الا ليلـة زواجها لانـها تألمت كثيرا وسـال منها دم غزير.. ولذلك صـارت تخشـى الجنس رغم حبهـا لزوجها وبعـد ان حملت اول مرة راجعـت طبيبا

أجنبيـاً صدم لـدى مشاهـدته الجروح لان المرأة التي ختنتهـا ازالت جزءا كبيرا من لحمها، ولذلك ستظل تعاني الالم من الوصال الجنسي.

وعند علم الطبيب ان ثلاثة شقيقات اخريات لنوار تم ختانهن وان ستـا اخريـات لم يختتن بعد سألها ان تطلـب من والدهـا زيارتـه في العيادة.

وقامت شقيقـاتي الثلاث المختتنات بـزيارتـه وفحصـهن وقال ان حالـة شقيقتي باهر اسـوأ من نورا. وكـانت نورا قد شـهـدت عملية ختان شقيقاتي الثلاث وتذكرت كيف ان باهر استطاعت التخلص من ايدي العجائز والهرب والدم يسيل منهـا وكيف تم الامساك بها مرة اخرى واكمال العملية حيث سال دم غزير.

واستغرب الطبيب ان والدتي هي التي كانت تصر على ختن بناتها وانها هي نفسـها اختتنت وعانت الام الختان.. وفي النهاية اقنع الطبيب والدنا بلا جدوى الختان والمخـاطر الصحية التي ينطوي عليها وهو ما انقذنا من هذه التجربة الاليمة انا وشقيقاتي الخمس.

وسألت نـورا ولماذا يسأل كريم عن هـذا الموضوع. وردت نـورا بأني محظـوظـة لانـه رجل متعلم وصـاحب رأي.. لكن الكثير من الرجال يصرون على اختتنان زوجـاتهم وذ لك يعتمد على المنطقة التي يعيش فيها الـرجل كما يعتمد على رأي العـائلة التي تنتمي لها البنت. وان بعض العائلات ما زالت تمارس ختان البنات بينما تخلت عائلات اخرى عن هذه العادة الهمجية واعربت نـورا عن اعتقادها بان كريم يريد كما يبدو زوجة تشاركه المتعة وليس وعاء للمتعة فقط.

وتركتني نورا مع افكاري.. وشعرت بالسرور لأني من الشقيقات الصغيرات اللواتي لم يعانين آلام الختان ولأن كـريم يريد اسعادي. وبدأت افكر ان بعض النساء سعيدات في بـلادي رغم التقاليد البالية التي ينظـر منها اي مجتمع متمـدن.. ثم عدت وتـذكرت الظلم الـذي تعانيـه معظم النساء في بـلادي وان مصير المرأة منا يعتمـد على رقة

ودماثة الرجل الذي يحكمنا وهو امر نادر.

وراودني النعاس فنمت وحلمت بأني ارتدي ثوب زفاف اخظر زمرديا انتظر عريس كريم، لكنه لم يصل لاصطحابي وتحول حلمي الى كابوس فاستيقظت ا تصبب عرقا.. وتذكرت تفاصيل الكابوس وهو ان نساء مرعبات يرتدين السواد كن يركضن خلفي وبأيديهن امواس يردن ان يختنني.

وناديت مارسي وطلبت ان تحضر لي ماء باردا.. كنت منفعلة لأني ادركت معنى الحلم وهو ان ثمة عقبة لا بد من ازالتها وان التخلص من العادات البالية يعتمد على النساء السعوديات انفسهن.. كانت نساء جيل والدتي غير متعلمات وكن لا يعرفن شيئاً الا ما يخبرهن به ازواجهن.. والنتيجة المأساوية ان التقاليد البالية كالختان استمرت مع ان النساء هن اللواتي كن يعانين الالم ومع ذلك هن اللواتي حافظن على هذه التقاليد. وبسب ارتباكهن واضطرابهن بين الماضي و الحاضر عززن مواقف الرجال في جهودهم لابقائنا جاهلات ومنعزلات. اذ ان والدتي حتى بعد ان ادركت مخاطر الختان الصحية ظلت متمسكة بهذا التقليد لانها لم تستطع تصور طريق اخر لبناتها غير الطريق الذي سارت فيه لاعتقادها بان اي تمرد على التقاليد سيؤثر على فرص بناتها في الزواج ولا يوجد من يستطيع تغيير حياة النساء في بلادنا سوانا نحن المتعلمات... ان في مقدورنا ذلك.. وانتظرت يوم زواجي بفارغ الصبر لأني سأكون اول أمرأة سعودية تصلح وتعدل اجواء منزلها.. وستكون مهمة اولادي وبناتي بعد ذلك تغيير السعودية لتصبح دولة جديرة بمواطنيها ذكورا كانوا ام نساء.

الــزواج

كانت غرفة تجهيزي للزواج مفعمة بالمرح والحبور ونساء عائلتي يحطن بي يتحدثن ويضحكن بحيث يصعب سماع احداهن منفردة ، ذلك ان مناسبة زواجي حدث غير طبيعي بالنسبة اليهن جميعاً ، وكانت عملية التجهيز تتم في قصر نورا واحمد حيث انهما استلماه من المقاول قبل بضعة أسابيع من زواجي ، وكانت نورا مسرورة وراضية عن القصر الجديد لكنها كانت تخشى الحسد سيما وان الجدران الداخلية مطلية بماء الذهب والاسراف واضح في التشطيبات الداخلية والخارجية .

وكرهت قصر نورا لاسباب رومانتيكية ذلك أني كنت أرغب في ان يتم الزواج في مدينة جده قرب البحر لكن والدي اصر ان يكون الزواج تقليدياً ، ولم اظهر اي احتجاج فقد قررت ان ارضخ لرغبات الرجال الا في الامور ذات الاهمية القصوى .

وكانت نورا تتنقل بين الحضور والبهجة واضحة على وجهها بينما يبارك لها الاقارب بالقصر ويشيرون الى جماله وأبهته . . وتبادلت مع سارة الابتسامات لانني وافقتها الرأي قبل ذلك بان القصر يخلو من الذوق ويفتقر الى اللمسات الفنية والحضارية .

انه قصر رخامي كبير اشرف على بنائه مهندسون المان وكانت نورا واحمد يتدخلان في كل شيء ابتداء بلون الطلاء الى اعمال النجارة والحدادة وحتى التصاميم الهندسية الداخلية والخارجية ولذلك ليس للقصر شخصية محددة بل انه بلا شخصية لوجود تناقضات كثيرة سواء في التصاميم او التنفيذ وحتى التشطيبات .

الصالات مطلية بماء الذهب . وثمة (١٨٠) لوحة زيتية في مدخل القصر الرئيسي لا يوجد اي تناسق او انسجام بينها . بالاضافة الى انواع مختلفة من السجاد الثمين . . اما زخارف غرف النوم فتدفع

الانسـان للغثيـان وهو مـا جعلني أتسـاءل كيف ان الشقيقـات قـد يختلفن كثيراً عن بعضـهن في الذوق والتذوق الجمالي والفني .

ورغم فشل نورا في زخرفة قصرها لكن حدائق القصر كانت قطعة فنيـة . . فثمـة بحيرات وعـدة نـوافير وممـرات تحيط بها الـزهـور والاشـجار . . بـالاضـافـة الى تماثيل رخاميـة جميلة واقفـاص طيور شتى وملاعب للأطفال .

وكنت سأتزوج من كـريم في الحديقة في التاسعـة من ذلك المساء ، ولان نورا تعرف مدى حبي لـلازهار الصفراء فقد أوصت على الاف الزهـور الصفراء مـن هولنـدا ونثرتها في البرك والبحيرات الصغيرة بالاضـافة الى سلال الزهـور المعلقة في المكان الذي سيقف فيـه كريم قبل ان يصطحبني . . وأعلنت نورا بشيء مـن المباهاة والاعتـزاز بان الناس يعترفون بان زواجي وحفلة زواجي هي الاروع والاكثر بذخاً واسرافاً منذ زهاء عشر سنوات .

ففي السعـودية لا يعلنـون أنبـاء الخطوبـة او الزواج ، لان هـذه الامور تعتبر خاصة جداً .

وصرخت كثيراً عنـدمـا كـانت عماتي يـزلن الشعـر عن جسـدي ولعنت النـاس الذين اوجـدوا هذه العـادة السيئة . وقالـت لي احدى عماتي ان سيدنا محمد (ﷺ) امر بالنظافة وازالة الشعر كل أربعين يومـاً مرة واجبتها باني اشكك في ذلك وانـه حتى لو امرنا الـرسول بذلك فلم يعد له ضرورة بعد ان توفر الماء والحمامات المريحة وانه لا ينبغي التقيد الحرفي بالتعاليم الدينية .

وواصلت عماتي عملهن دون الالتفـات الى وجهة نظـري بل انـهم اتهمنني بالتمرد على التعاليم الدينية .

وارتديت ثوب الزفاف ورفضت الاعتماد على احد ، كنت واثقة من نفسي . . وشعـرت بلحظـة من الحزن عنـدمـا بـدأت نـورا تضع المجوهرات التي ارسلها كريـم حول عنقي ، اذ اني تذكرت والدتي في

ذلك اليوم الحزين . . يوم زواج سارة عندما كنت جالسة على الارض اراقب الوالدة وهي تضع المجوهرات غير المرغوب فيها ولا في صاحبها حول عنق سارة . . كان ذلك قبل زهاء سنتين ، ثم اني شعرت بالسرور لخاطرة روادتني وهي ان الوالدة لا بد ان تكون مسرورة في هذا اليوم وانها ربما تراقبني من السماء . . وبعد فترة ابلغت شقيقاتي باني جاهزة ومستعدة . . فقد حان الوقت لان أبدأ حياتي الجديدة .

وقرعت الطبول وغطت اصواتها على الموسيقى التي كانت تعزفها فرقة مصرية تم حضارها من مصر خصيصاً لحفلة زواجي . . وسارت معي من الجانبين نورا وسارة وظهرت امام الضيوف اللواتي كن ينتظرن في الحديقة بفارغ الصبر .

وكما هو الشأن في كافة الزيجات السعودية كانت الحفلة الرسمية قد جرت قبل اسبوع حيث حضر كريم مع اهله وحضر شيخ قام بتوثيق عقد الزواج وبعد ذلك احتفلنا طيلة اربعة ايام ، كما سيستمر الاحتفال بعد زواجي طيلة ثلاثة ايام .

ولم أر كريم منذ اجتماعنا الاول . . لكننا كنا نتحدث فترات طويلة بواسطة الهاتف . . وشاهدت كريم برفقة والده يسير ببطء نحوي . . كان وسيماً وحلو الشمائل وزاد تعلقي به .

واستطيع القول بثقة كاملة اني سمعت دقات قلبه ، وكان مرتبكاً وذهبت بتخيلاتي الى داخل صدره . . الى قلبه . . سيكون قلبه لي وحدي وانا الوحيدة التي استطيع ان ادخل السعادة او التعاسة الى قلبه .

واخيراً وقف بقامته منتصباً امامي . . واجتاحتني فجأة عواطف جياشة واهتزت شفتاي بارتباك وكدت ان ابكي عندما كشف كريم عن وجهي ، لكني رغم ذلك انفجرت ضاحكة مع كريم وهو ما اشاع موجة من السرور بين الضيوف لسبب بسيط وهو انه من النادر جداً

في السعودية ان يضحك العريسان مع بعضهما لدى لقائهما الاول .

وغرقت في عيني كريم وغرق هو في نفس الوقت في عيني . . كنت لا اصدق ما يحدث . . فقد عشت في الظلام وكنت اخشى الزواج لكثرة المآسي التي سمعتها عن الزواج في بلادي . . لكن ها هو زوجي امامي يثير التفاؤل بدل التشاؤم ان وجهه صبوح وحلو القسمات ومن المؤكد انه سيمنحني الحرية والسعادة .

ثم وقفت مع كريم نتلقى التهاني من الاقارب ونثر كريم قطعاً ذهبية على الضيوف من كيس متوسط الحجم ، بينما تسللت لتغيير ثوب الزفاف بملابس السفر .

وفكرت بالتحدث مع والدي لكنه سارع بمغادرة الحديقة حالما انتهى دوره ومن المؤكد انه شعر بالسرور لان أصغر بناته من زوجته الاولى تزوجت بسلام ولم يعد مسؤولاً عنها .

وكان كريم قد وعدني بانه سيأخذني في شهر العسل الى حيث اريد وسيفعل كل ما ارغبه . . وكما هو شأن المراهقة سجلت الاماكن التي أرغب في مشاهدتها . كان توقفنا الاول في القاهرة ثم الى باريس ونيويورك ولوس انجلوس وهاواي . . لقد امضينا شهرين حول العالم في حرية كاملة بعيداً عن الحياة المتجهمة في السعودية .

عانقت شقيقتي سارة مودعة فبكت متأثرة وهي تهمس في أذني : « كوني شجاعة » وأدركت بانها لن تنسى ليلة زفافها ما عاشت .

ارتديت العباءة والحجاب وجلست في المعقد الخلفي في سيارة كريم المرسيدس وجلس هو الى جانبي بينما انطلقت سيارة اخرى تحمل حقائبنا الى المطار . وكان كريم قد جهز كافة مقاعد الدرجة الاولى على كافة الرحلات التي سنسافر عليها وذلك حتى نكون لوحدنا . . وابتسمت المضيفات اللبنانيات وهن يراقبن تصرفاتنا الصبيانية . . كنا كالمراهقين الذين يجهلون من الرفقة او كيف ينبغي ان يتصرف العريسان .

وصلنا الى القاهرة واجتزنا حاجز الجمارك وتوجهنا الى فيلا جميلة على ضفاف النيل . وهي فيلا قديمة يملكها والد كريم ويعود تارخ بنائها الى القرن الثامن عشر حيث بناها تاجر تركي . . وقد جددها والد كريم واعاد لها رونقها وتتألف من ثلاثين غرفة وحديقة مرتبة أنها فيلا رائعة جداً سحرتني وقلت لكريم ان الفيلا جميلة ومكان رائع لبداية الزواج .

وذكرتني هذه الفيلا الجميلة ببشاعة قصر نورا وادركت على الفور ان المال قد لا يعني في كثير من الاحيان الحصول على الجمال والذوق خاصة في بلادي وحتى بين افراد عائلتي وانه انساناً يتمتع بالذوق قد يحول منزله الى جنة بمبلغ زهيد بينما قد يبني احد الاثرياء قصراً فخماً ينفق عليه الملايين ولا تشعر بالراحة في داخله لانه يفتقد الى الذوق واللمسة الفنية .

كنت في السادسة عشرة وفهم زوجي معنى ذلك ولم يحاول الضغط عليّ ويمارس سطوته الذكورية فوراً واخبرني بانه لن يواصلني جنسياً الا بعد ان تزداد معرفتنا ببعض وتنمو الرغبة الجنسية لدينا معاً وانه لن يقترب مني قبل ان اكون مستعدة تماماً لذلك بل انه صمم على امر ادهشني وهو انه لن يقترب مني قبل ان اطلب منه ذلك بصراحة .

وهكذا كنا نمضي ايامنا ولياليناً نلهو . . نأكل ونمتطي الخيول حول الاهرامات ونتمشى في الاسواق المكتظة ونقرأ ونتحدث . . وكان الخدم مذهولين منا خاصة عندما نقبل بعضنا في الليل ويذهب كل منا الى غرفة نومه الخاصة .

وفي الليلة الرابعة سحبت زوجي الى سريري ووضعت رأسي على كتفه وكان ينتظر تلك اللحظة حتى يثبت ذكوريته ، وبعد منتصف الليل ابلغته بأني سأكون الزوجة السعودية الوحيدة التي تعترف بأنها استمتعت مع زوجها في ليلة الدخلة . . وضحك كريم كثيراً .

ولم يسبق لي زيارة امـريكا وكنت اتـوق لتشكيل رأي عن الشعب الامريكي الـذي نشر ثقافته وطـريقته في الحياة في العالم كلـه لكنه لا يعرف الكثير عن العـالم . وأدهشني سكان نيـوريوك بطبعهم العملي وخشونتهم . . بينما أستمتعت في لوس انجلـوس اكثر مما استمتعت في نيوريوك بل ان لوس انجلوس باعتقادي اجمل بكثير من نيوريوك .

وفي كاليفورنيا قابلنـا امريكيين كثيرين وأبلغت كريم باني أحببت الامريكيين وعندما سألني عن السبب . أجبته : (أنه احساسي الفطري ولان الامـريكيين مزيـج من عدة شعـوب وثقـافات وهـو مـا يجعل الحضارة الامريكية اكثر واقعيـة من أي حضارة اخرى في التاريخ) ولم يفهمني كـريـم . فأضف مـوضحـة : « ان الاقطــار التي تمنح مواطنيها مطلق الحرية دون فوضى هي اقطار معدودة . . لكن امريكا وفرت الحريـة لكافـة مواطنيها مع انها تتـألف من خمسين ولاية . . والجميع يتبادلـون الرأي ويحترمون الـرأي الآخر اما في السعـودية ومعظم اقطـار الخليج وحتى الاقطـار العـربيـة الاخـرى فـالنـاس يحتكـرون الحقيقة ويسفهـون الرأي الآخـر فضلاً عن الافتقـار الى الحرية » .

ورمقني كريم بدهشة ذلك انه لم يـر في حياته انثى سعودية تهتم بهذه الامور . ولذلك أخذ يسألني تلك الليلة عن عدة امور حتى يعرف افكاري حولها ، ويبدو ان زوجي لم يتعود على امرأة لها آراء خاصة . . ولذلك لم يخف دهشة عندمـا اكتشف بأني افكر واتحدث في الامور السياسيـة وفي اوضـاع العالم . . وفي النهـاية قبلني وكـرر وعده بأن اواصل تعليمي حال عودتنا الى الرياض .

أمضينا في شهر العسل عشرة اسابيع بدل الثمانية أسابيع حسب خطتنا الاولى . . ولم نفكر حتـى بالعودة الا بعد ان تلقى كريـم هاتفاً من والده . . وعـدنا الى الرياض لنعيش في قصر والـده مؤقتاً الى حين بناء قصر خاص بنا .

كنت أدرك بان والدته لا ترتاح لي ، ولا شك ان باستطاعتها تحويل حياتي الى جحيم ، وندمت لاني لم اتقيد بالتقاليد أمامها في السابق وهو ما جعلها تكرهني . . ولعنت نفسي لاني لم أفكر منذ البداية في كسب رضاها وودها . . وكنت اعرف يقينا ان كريم وكافة الرجال الشرقيين لا يمكن ان يقف مع زوجته ضد والدته وبالتالي يتعين عليّ ان ألوح بغصن زيتون وان اصلح حماتي وأرضيها وأكسب ودها .

وتبددت البهجة تدريجياً اثناء هبوط الطائرة خاصة عندما ذكرني كريم بالحجاب ، فوضعت غطاء الرأس والحجاب وتذكرت أيام الحرية التي قضيتها بعيداً بنوع من الحسرة . . ووصلنا الى قصر والده لنبدأ حياتنا الزوجية ولم يخطر ببالي ان والدة كريم كانت تكرهني لدرجة أنها بدأت تعد الخطط لطلاقي من ابنها حتى ونحن في شهر العسل .

الحياة الزوجية

اذا كان ثمة كلمة يمكن ان تصف نساء الجيل الذي تنتهي له امي فهي «الانتظار».. فنساء جيلها امضين اعمارهن في انتظار.. كن ممنوعات من التعليم او العمل .. وهكذا لم يكن امامهن سوى انتظار الزواج وانتظار الوليد الاول وبعد ذلك الاحفاد.

وفي معظم انحاء العالم العربي والسعودية واقطار الخليج على وجه الخصوص فأن التقدم في العمر يعني الراحة للنساء وربما تحظى المرأة بشيء من الاحترام اذا انجبت عددا من الذكور وهو ما يعني الحفاظ على استمرار الاسرة واستمرار اسمها.

كانت حماتي واسمها نورا تنتظر زواج ابنها البكر كريم.. والتقاليد السعودية منذ الايام الغابرة وحتى الان تعتبر زوجة الابن البكر بمثابة خادمة للام ويتعين عليها طاعتها... وكنت مثل كافة الشابات في عمري اعرف هذ التقاليد لكني نسيتها لفترة وقد جاء الوقت لمواجهة هذه الحقائق.

ولا شك ان تفضيل الذكور على الاناث امر شائع في معظم انحاء العالم، اما في السعودية وبعض الاقطار العربية فعندما تحمل المرأة تشعر بشيء من الخوف والترقب خشية ان تنجب انثى...فانجاب الذكور هو السبب الرئيس للزواج والعامل الاول في رضى الزوج عن زوجته.

ولأن الابناء الذكور بمثابة كنز تطور علاقة وثيقة بين الام وابنها.. علاقة لا يمكن ان تنفصل او يضعف الا اذا احبامرأة اخرى، ولذلك اعتبرتني والدة كريم «نورا» منافستها الاولى على حب كريم منذ الزواج.. اي انها لم ترحب بي كعضوة جديدة في اسرتها.. بل

اعتبرتني منافسة لها على كريم لانه سيوزع حبه عليّ وعليها.. وهذا ما يفسر عدم احساسها بالاحة من وجودي. وكانت نورا قد تعرضت لانعطاف غير سار في حياتها قبل سنوات.

كانت نورا هي الزوجة الاولى لوالد كريم وقد انجبت سبعة اطفال ثلاثة منهم ذكور. وعندما بلغ كريم الرابعة عشرة تزوج والده من امرأة لبنانية فائقة الجمال فانقلبت الحياة في القصر.

ولأن نورا من نوع النساء المترجلات لم تقبل ما جرى ببساطة وبدأت في استشارة ساحر من الحبشة كان يخدم في القصر الملكي ودفعت له مبلغاً طائلا حتى يعمل سحرا للمرأة اللبنانية بحيث لا تنجب ابدا.. وكانت نورا الفخورة بإنجابها ثلاثة ذكور على قناعة تامة بأن زوجها سيطلق اللبنانية اذا لم تنجب له اولاد ذكورا.

لكن الرياح لا تسير كما تشتهي السفن، فقد تبين ان زوجها يحب اللبنانية بل انه اخبرزوجته اللبنانية بأنه لا يهتم سواء انجبت اولاداً او لم تنجب.. ومضت السنون وتصاعدت غيرة نورا وعادت تستشير الساحر الحبشي ودفعت له مبلغا طائلا حتى يعمل سحرا من شأنه قتل المرأة اللبنانية التي خلبت عقل زوجها.

وعندما سمع ابو كريم بما تفعله نوار وتخطط له حضر غاضباً واقسم لها بأنه سيطلقها اذا ماتت زوجته اللبنانية قبلها.. بل انه سيمنعها بعد الطلاق من الاتصال باولاده وبناته.

واقتنعت نورا ان سبب عقم المرأة اللبنانية هو السحر الذي عملته الحبشي.. وخشيت ان تموت المرأة اللبنانية بسبب السحر الذي عملته لها. ومنذ ذلك الوقت اضطرت نورا لان ترعى المرأة اللبنانية وتهادنها وتفعل كل ما من شأنه توفير الراحة والصحة لها رغم ما في ذلك من معاناة لأنها تكرهها في اعماقها.

كان بيتا عجيبا. فنورا تشعر بالتعاسة، ولذلك كانت تفش خلقها في كل المحيطين بها باستثناء اولادها، ولأني لست ابنتها ولأن كريم

يحبني اصبحت موضع كراهيتها بشكل طبيعي.. وكانت غيرتها مني واضحة للجميع باستثناء كريم الذي كان يحب امه.. ويبدو انها تعلمت من الحياة اشياء كثيرة اذ انها كانت تتظاهر امام كريم بأنها متيمة بحبي.

وكنت ارافق كريم بسعادة غامرة في كل صباح حتى باب المنزل وقد اعتاد على مغادرة البيت في التاسعة صباحا لكثرة مشاغله في مكتب المحاماة.. وهو وقت مبكر للعمل في السعودية خاصة بالنسبة لامير. اذ ان الامراء لا يستيقظون عادة قبل الحادية عشرة.

وكنت اعرف بأن نورا تراقبنا من نافذة غرفة نومها حتى يغلق كريم البوابة خلف، فتبدأ بالصراخ عليّ باسلوب استفزاز.. ورغم وجود (٣٣) خادمة في القصر فأنها لا تشرب الشاي الا من يدي.

ولأني امضيت طفولتي اتعرض لسوء المعاملة من قبل رجال اسرتي. لم اكن مستعدة لقضاء بقية عمري أتعرض للاهانة وسوء المعاملة من أمرأة حتى ولو كانت والدة كريم.

صبرت فترة من الزمن.. وادركت حماتي كما يبدو بأني واجهت في حياتي مشاكل عويصة ربما اكثر منها، وبالاضافة الى ذلك هنا مثل عربي يقول: «الصبر مفتاح الفرج» وقررت الامتثال لهذه الحكمة.. أن أصبر وانتظر فرصة لتقليص سلطة نوار عليّ.

ولحسن الحظ لم يطل انتظاري، اذ ان منير شقيق كريم الاصغر انهى دراسته في امريكا وعاد الى الرياض... وكان غاضبا من عودته.

ورغم الكثير الذي كتب عن تعاسة الحياة التي تعيشها النساء في السعودية، فان احدا لم يكتب عن ضلال حياة الكثير من الشباب السعودي بما في ذلك الامراء.. صحيح ان حياتهم بالمقارنة افضل من حياتنا بكثير، لكنهم يفتقدون اشياء كثيرة ولذلك يمضون ساعات طويلة في اللهو والعبث وبلا اي هدف. فلا يوجد في السعودية دور سينما ولا نواد او مطاعم مختلطة، ويحظر على الرجال والنساء

تنـاول الطعام معـا في المطـاعم الا اذا كان زوج وزوجـة او رجل مع شقيقته او والد مع ابنته.

وكان منير في الثانية والعشرين من عمره وقد استمتع بالحرية في المجتمع الامريكي واعتاد عليها وبالتالي لم يشعر بالسرور لدى عودته الى وطنه بعـد ان تخرج من كلية ادارة اعمال في واشنطن.. لكنـه كان يأمل في ان يصبـح احـد المسـؤولين في دائرة العقـود والمقـاولات الحكومية.. وبينما كان ينتظـر الامر بتعيين في هذه الدائرة حتى يثبت قدرتـه على جمع مبالغ ماليـة طائلة من العمـولات «هي هواية كـافة الامـراء السعوديين» رافق مجمـوعة من الامـراء الشباب المعـروفين بتصرفاتهم المتهـورة وسمعتهم غير الحميدة لانهم كـانوا يحضرون حفـلات مختلطة مع نسـاء اجنبيـات مشكوك في اخـلاقهن يعملن في المستشفيات وخطوط الطيران الاجنبية.

وكانوا في تلك الحفلات يتعاطون المخدرات بل ان الكثير من الامراء ادمنوا على الكحول والمخـدرات... وخلال سكرهم وعربـدتهم كانوا يعربـون عن سخطهم على اقاربهم الـذين يحكمون البلـد ولا يكتفون بالمطـالبة بتحديث السعـودية بل يطالبون بـاقامة نظـام على الطراز الغـربي، يتخلى عن الاسلام ويعتبرون انفسهم ثـوريين ومع الـوقت صـاروا يطرقـون ويبحثـون مواضيـع خطرة وشأنهم معـروف في السعودية هذه الايام.

وتجدر الاشارة بأن الملك فيصل الـذي يحكم البلاد الان كان مثل هؤلاء الشبان في مطلع عمره وكان يحرض شباب الاسرة على التمرد على الحياة الفـارغة التي يعيشـونها.. وقد تم تـوظيف بعض الامراء المتمـردين في اعمال الاسرة السعـودية المالكـة المتشعبـة بينما وظف الاخرون في الجيش برتب عالية دون اي تدريب عسكري.

وبعـد ان تحدث الملك فيصل مع والـد منير واعـرب عن قلقـه من تصرفـاته سمعت صراخـا واصواتـا غاضبـة في مكتب حماي داخل القصر. وكغيري من الاناث في الاسرة هرعنا الى الغرفة المقابلة للمكتب

نسترق السمع.. وسمعنا منير يصرخ ويتهم الاسرة المالكة بالفساد والابتذال.. وأقسم بأنه مع اصدقائه من الاسرة السعودية سيقومون بتغيير الاوضاع في المملكة ويحققون الاصلاحات المنشودة.. واخذ يعلن ويشتم ثم فتح باب المكتب وغادر القصر كالعاصفة.

ومع ان منير يدعو الى الاصلاح غير ان نشاطاته وتصرفاته تثير القلق.. أنه ضحية الكحول والدلال، فالأموال الطائلة التي ينفقها لم يتعب فيها ومع ذلك فأنه يريد المزيد من هذه الاموال.

والمعروف ان المملكة لم تمنع الكحول عن الاجانب غير المسلمين الا عام ١٩٥٢ وكان الملك عبدالعزيز هو الذي منع الكحول حتى عن غير المسلمين نتيجة حادثين منفصلين ومأساويين تورط فيهما امراء سعوديون.

ففي اواخر الاربعينات عاد الامير ناصر بن عبدالعزيز من امريكا رجلا مختلفا. فقد اكتشف متعة خاصة في تعاطي الكحول برفقة النساء الامريكيات وصار يعتقد ان الكحول شيء اساسي وضروري لرفقة المرأة.

وعين ناصر اميرا على الرياض وبالتالي كان باستطاعته الحصول على الكميات التي يشاؤها من مختلف انواع الخمور. وكان يقيم حفلات محظورة يشارك فيها رجال ونساء، وفي صيف عام ١٩٤٧ وبعد حفلة صاخبة اقامها ناصر توفي سبعة من المشاركين فيها كان بينهم نساء لوجود زجاجة خمر مسمومة.

وثار غضب الملك عبدالعزيز عندما عرف بالقصة لدرجة انه انهال على ناصر ضربا بيديه وامر بسجنه.

وفي عام ١٩٥١ قام مشاري بن عبدالعزيز وهو تحت تأثير الخمر باطلاق النار على مساعد القنصل البريطاني وارداه قتيلا كما جرح زوجته وعند ذلك نفذ صبر الملك عبدالعزيز فاصدر امرا قاطعا بمنع الخمر في السعودية حتى على غير المسلمين.

والشعب السعودي كغيره من الشعوب يستجيب للمحظورات بشكل عكسي اي يزداد اقباله عليها سرا.. وانا اعرف كثيرين من السعوديين والسعوديات يتعاطون الخمر بل ان بعضهم ادمن الخمر والمخدرات.. ولم ادخل بيتا سعوديا في حياتي يخلو من افخر انواع الخمور التي يتم تقديمها للضيوف علنا وفي بعض الاحيان سرا.

ومنذ عام ١٩٥٢ ارتفعت اسعار الخمور على نحو درامي في السعودية، اذ يبلغ سعر زجاجة الويسكي زهاء ثلاثمائة دولارولا شك ان الذين يتاجرون في استيراد الخمور وبيعها في السوق السوداء يجنون ارباحا طائلة. ولأن منير واثنين من ابناء عمومته يؤمنون بضرورة رفع الحظر عن تعاطي الخمور بدأوا يتاجرون بها ويستوردونها من الاقطار المجاورة فجمعوا بذلك ثروة طائلة.

واذا شك حراس الحدود بحمولة الشاحنات تتم رشوتهم او اسكاتهم بالقوة بواسطة الامير منير والاميرين الاخرين ابناء عمومته وكانت العقبة الوحيدة هي لجان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر التي يشكلها المطوعون الذين يرتجفون غضبا اذا سمعوا بأن احد افراد الاسرة المالكة يتعاطى الخمر او يتاجر بها.. لأن الاسرة المالكة هي المسؤولة عن تطبيق الشريعة الاسلامية.. ومع ذلك ادرك كثير من المطوعين ان افراد الاسرة المالكة يعتبرون انفسهم غير مشمولين بتعاليم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وسرعان ما اكتشفت احدى لجان الامر بالمعروف سلوك منير المشين وهو ما وفرّ الحل ولو جزئيا لمشكلتي مع حماتي.

كان اليوم سبت وهو يوم لا يمكن ان ينساه احد في اسرة كريم.. في ذلك اليوم عاد كريم من عمله مرهقا من الحر ويبدو أن حماتي حزمت امرها على ايذائي والتلخص مني فاتجهت نحو ابنها وهي تتصنع البكاء وقالت له اني لا احترمها بل واعتدي عليها.. وعند انسحابها قرصتني من ذراعي، فثار غضبي وتبعتها حتى آخذ ثأري غير ان كريم اعترض طريقي.. والتفتت نورا نحو كريم واضافت باني

لست الزوجة المناسبة له وانه اذا حقق في نشاطاتي وتصرفاتي داخل البيت فأنه سيطلقني دون تردد.

ولو حدث ذلك كله في يوم آخر فلربما اكتفى كريم بالضحك على ما حدث. لكنه في ذلك اليوم تلقى خبرا من وكيله في لندن بأنه خسر زهاء مليون دولار في بروصة لندن ولذلك كان مزاجه حادا.. ولأن الرجل العربي عامة والسعودية خاصة لا يجوز له اغضاب والدته فقد صفعني على وجهي ثلاث مرات ارضاء لوالدته، وشعرت بألم كبير فضلا عن المهانة وهو ما دفعني لحمل اقرب فازة «مزهرية» اليّ وقذفه بها. لكنه تحاشاها وتحطمت الفازة بعد ان ارتطمت بلوحة للفنان الفرنسي مونيه يبلغ ثمنها زهاء نصف مليون دولار. ووجدت قربي تمثالا عاجيا ثمينا.. امسكته وقذفته باتجاه رأس كريم.

كان من شأن الصراخ وتحطيم الفازة والتمثال ان هرع الخدم نحونا. وادرك كريم بأني سأحطم الغرفة ما تحتويه من كنوز والده فهجم علي ولكمني على فكي الاسفل فغبت عن الوعي.

عندما فتحت عينيّ كانت مارسي الى جانبي تمسح وجهي بخرقة مبللة بماء بارد... وسمعت اصواتا عالية في الخلف وهو ما حملني على الاعتقاد بأن المعركة بيني وبين كريم مازالت مستمرة. لكن مارسي طمأنتني وابلغتني ان سبب الصراخ الذي اسمعه هو منير، اذ ان الملك فيصل استدعى والد كريم وبحث معه فضيحة كبرى بطلها منير، وهي ان شاحنة كبيرة محملة بالخمور اكتشفت في احد شوارع الرياض عندما توقف السائق المصري عند مطعم صغير لتناول وجبة خفيفة فانتشرت رائحة الكحول في الشارع، فتجمع السابلة وقام احد اعضاء لجان المطوعين باعتقال السائق المصري وسؤاله عن طبيعة حمولة الشاحنة وعندما شعر المصري بالفزع اخبر المطوعين الذين تجمهروا حوله بأن محتويات الشاحنة تعود للامير منير «والاميرين الاخرين» وتم ابلاغ رئيس المجلس الديني الذي اتصل بدوره مباشرة مع الملك.

بعد لحظات غادر كريم برفقة والده البيت باتجاه القصر الملكي بعد ان ارسلوا عددا من السائقين للبحث عن منير.. وفي خضم هذه الفضيحة وانسحاباتها المتوقعة رسمت خطة للانتقام من نورا كنت اسمع نحيبها حزناواسى وخشية على ولدها منير.. وتوجهت نحو مصدر النحيب حتى اتشفى بها.. كانت في غرفة الجلوس وشعرت برغبة في الضحك لكن الالام في فكي منعتني من الضحك وحتى الابتسام.. شاهدت حماتي في زاوية الغرفة تبكي بمرارة وتدعو الله ان ينقذ ابنها منير من فورة غضب الملك ورجال الدين.

عندما شاهدتني نورا كفت عن البكاء.. وران الصمت بضع لحظات ثم انها التفتت اليّ قائلة: «لقد وعدني كريم بأن يطلقك وهو على قناعة الان بان من شب على عادة شاب عليها.. وانت امرأة شرسة وليس لك مكان في هذه العائلة».

ولعلها كانت تتوقع ان ابكي وتوسل كما هي ادة النساء في بلادي، ولذلك كانت دهشتها كبيرة عندما اجبتها بأني انا سأطلب الطلاق من ابنها وان خادمتي مارسي تقوم بحزم حقائبي واني سأغادر بيتها خلال ساعة على الاكثر، وزيادة في اهانتها واذلالها لفت انتباهها الى نفوذ والدي عند الملك وان والدي سيطلب من الملك انزال اشد العقوبات بمنير حتى يكون عقابه عظة لغيره من الذين ينتهكون التعاليم الديني.. وانه سيتم جلد منير. علنا وربما يقرر الملك سجنه او انزال العقوبتين معا به، وكانت نورا اثناء تهديداتي هذه فاغرة فاها بفزع.

وهكذا انقلب الموقف.. كنت اتحدث معها بكبرياء وبصوت ينطوي على الثقة بالنفس، ولم تكن نورا في وضع يسمح لها بمعرفة ما اذا كنت املك النفوذ والتأثير على والدي بحيث انفذ تهديداتي.. ولا شك انها كانت ستشعر بالسرور لو ان ابنها طلقني وكانت ستشعر باستياء لو اني انا طلبت الطلاق، وثمة صعوبة في ان تطلب المرأة الطلاق من زوجها في بلادنا لكن ذلك ليس مستحيلا.. ولأن والدي

كان اقــرب من حيث القرابــة الى عبدالعزيــز «جدي» من والــد كريم. خشيت نورا ان انجح فعلا في التأثير على المحيطين بالملك لانزال اقسى عقــوبــة ممكنة بمنير.. ومـا كـانت تعـرف بأن والـدي على الارجح سيرفض تدخلي في هذه الامور.

كان لا بـد من اجراءات اخـرى بعد تهديـداتي الجريئة، فعنـدما خرجت من غـرفتي برفقـة مارسي نحمل حقائبنـا هرع كافـة سكان البيت بما في ذلك الخدم نحونا.. وبالصـدفة وصل منير في تلك اللحظة برفقة احد السواقين، لولم يكن يعـرف خطورة موقفه ولا ما حدث في البيت.و اقسمت له ان والدته ستكـون سبب طلاقي من شقيقه الاكبر كريم.

غمرتني موجـة من مشاعر التفاؤل عندمـا هرعت حماتي نحوي ترجونـي الا اغادر البيت ويبدو ان الازمـة المزدوجة قد شلت تفكيرها فتحولت الى امرأة ضعيفة لدرجة انها اخذت تتوسل الا اغادر البيت.

كنت نائمــة عندما عاد كـريم مرهقا من امسية عصيبـة وسمعته يناشد شقيقه منير ان يضـع باعتبـاره اسـم والده قبل ان يرتكب هذه الاعمال المحـرمة.. ورد منير بعنـف واتهم كريم بأنــه مجرد بـرغي صغير في ماكينة هائلة من الفساد اسمها السعودية.

وكـان الملك فيصل يحظى بـــاحترام معظم افـراد الاسرة المالكـة لتقشفه وتـدينه واسلـوبه المتـواضـع في الحيـاة، وكان كبـار الامراء يجلونه، فقد قاد سفينة البـلاد من ليالي سعود الحالكة السواد الى بر الامان وصـــارت المملكة تحظى بـاحترام دول العالم. لكن كـان هناك هوة سحيقة بين الامراء الكبار والامراء الشباب خاصة الذين درسوا في امريكا واوروبا.

فالامراء الشباب بسبب جشعهم ورغبتـه في جمع الثروات الطائلة بالطرق السهلة. كانوا يكرهون الملك فيصل الذي قلص مخصصاتهم

المالية وحظـر عليهم الاتـجار في كل ما من شـأنــه المس بسمعة الاسرة المالكة.ولا يتردد في معـاقبتهم اذا ضلوا، ولم يكن في الافـق اي بادرة للـوفاق او التسـوية بين المعسكـرين.. معسكـر الملك وكبار الامـراء ومعسكر الامراء الشباب، ولذلك لم تتوقف المشاكل

في تلك الليلة نـام كريم بعيـدا عني في سريرنـا الكبير، وكان يتقلب طيلة الليل وهو يقلب الامور على وجوهها المختلفة، وشعرت بالذنب لان عصبيتي ساهمت في مشاكله فقررت ان اكبح جماح نفسي فيما اذا استمر زواجنا.

في الصباح التـالي كان كريم رجـلا اخر مختلفـا.. لم يتحدث معي وتجاهل وجودي لدرجة ان ندمت على النوايا الطيبة التي روادتني في الليل، وخـاطبته بصوت مـرتفع بأن الطـلاق هو الحل الوحيـد لكني كنت في اعماقي اتـوق لأن يتراجع عـن تصلبـه ويسعى للصلح. ولم يلتفت لي بل واصل حلاقة ذقنه قائلا: « مهما كانت افكارك فسنبحث هذه الامور بعد ان تتجاوز العائلة الازمة الراهنة».

ارتدى كـريم ملابسه وقبل ان يغـادر البيت عاد الى غرفـة النوم وتـرك لي الملاحظـة التاليـة: «تعـرفين يـا سلطانـة بـانك خـدعتيني بابتسامتك التي تخفي وراءها امرأة شرسة» وما ان غادر البيت حتى اجهشت بالبكاء.

اما نورا فقد بدأت تسعى للصلح وتسوية الخلافات معي وتحاول اقناعي بأنها تحبني، اذ انها ارسلت احد السائقين الى صائغ في السوق فاحضر قـلادة من الماس قدمتها لي كهـدية. فذهبت الى سـوق الذهب فورا واشتريت قلادة ذهبيـة مرصعة بالماس بـربع مليون ريال «٧٥ الف دولار» وقـدمتهـا لها دون ان ابالي بما سيقـول كـريم. ذلك ان احتمال تحقيق السلام مع حماتي ربما ينهي المشكلة من اساسها.

ومضت اسابيع قبل ان يتقرر مصير منير. وقد رأت الاسرة المالكية

انها ستتضرر اذا اشيع الخبر وعوقب احد الامراء. ويبدو ان غضبة الملك هدأت بعد الجهود التي بذلها الامراء بما في ذلك والدي الذين اعتبروا الفضيحة مجرد زوبعة في فنجان ومجرد خطأ بسيط ارتكبه امير تأثر بتقاليد الغرب.

واعتقدت نورا بأني اثرت على والدي ولذلك عبرت عن شكرها وامتنانها لي بل قالت انها تفتخر كوني زوجة ابنها،أما الحقيقة التي لم تعرفها نورا فهي بأني لم اتحدث مع والدي بشأن ابنها منير اطلاقا وقد دافع والدي عن منير لعدة اسباب منها اني زوجة شقيق منير وبالتالي فأن معاقبته ستمس زوجي، ومنها انه مثل غيره من كبار الامراء كان يدافع عن نفسه وعن ابنه علي من خلال دفاعه عن منير، لكني على اي حال ابتهجت بالنتيجة طالما ان حماتي اعتبرتني بطلة في الدفاع عن اسم الاسرة.

واستطاع الملك فيصل ان يهدىء غضب المطوعين، وكان يحظى باحترامهم، فغضوا الطرف عن جريمة منير الذي سرعان ما ارسله والده الى جدة لادارة اعماله، وفي سبيل ارضائه.والتخلص من تمرده منح عدة مقاولات «عقود» حكومية. وبعد بضعة اشهر ابلغ والده برغبته في الزواج وتم العثور على واحدة من بنات العمات فازداد سروره كما ازداد وزنه خاصة بعد ان اصبح من الامراء الذين يعيشون لعقد الصفقات ومراكمة الاموال على بعضها بحيث ان فوائد اموال اي امير سعودي تضاهي وربما تربو عن موازنة دولة صغيرة وفقيرة.

وكان كريم قد انفصل عني واصبح ينام في غرفة نوم مستقلة منذ حوارنا الاخير والملاحظة التي تركها لي..وتحدث معه والده ووالدته بشأني لكنه لم يغير رأيه حتى اعتقدت بأنه يخطط للطلاق.

بعد زهاء اسبوع من انفصال كريم عني ونومه في غرفة مستقلة

اكتشفت بأني حامل.. وبعد تفكير عميق وجدت ان لا مناص من الاجهاض لقناعتي بان كريم لن يطلقني اذا عرف بأني حامل، لكني على غير استعداد لمواصلة الحياة مع زوج لا يحبني.

كنت في ورطة لان الاجهاض ممنوع في بلادي الا في حالات الضرورة القصوى وبموافقة الزوج. ولم اعرف الى اين اذهب او ماذا افعل.

واخيرا بحت بالسر الى احدى عماتي فاخبرتني بان شقيقتها الاصغر كانت في البندقية قبل سنوات وتعرفت على شاب عربي هناك واحبته وحملت منه سفاحاً ولم تكتشف انها حامل الا بعد عودتها الى الرياض. ولخوفها الشديد من والدها فكرت بالانتحار لكن امها حافظت على سرها وبحثت حتى وجدت طبيبا هنديا يجري عمليات الاجهاض سرا مقابل اجر مرتفع وخاصة للاميرات السعوديات وهكذا خططت لمراجعة هذا الطبيب الهندي على نحو سري برفقة خادمتي مارسي.

وذات يوم ذهبت الى عيادة الطبيب الهندي برفقة مارسي وجلست انتظر موعد المقابلة ودهشت عندما شاهدت كريم يقتحم العيادة غاضبا ويتفرس في وجوه النساء المحجبات حتى عرفني من بينهن فأمسك يدي وجذبني خلفه باتجاه الباب وصرخ بالمرضة مهددا بأنه سيأمر باغلاق العيادة واعتقال الهندي.

كنت ابتسم تحت الحجاب وشعرت بسرور غامر.. فقد اكتشفت بأن كريم يحبني فعلا بل انه اعترف بحبه لي وهو يلعنني. ثم بدد مخاوفي واكد لي بأنه لم يفكر في طلاقي وان موقفه كان مزيجا من الكرامة والكبرياء والغضب.

اما كيف اكتشف كريم السر، فهو ان مارسي باحت بالسر لخادمة اخرى في القصر.. وقامت تلك الخادمة بابلاغ حماتي، فاسرعت

حماتي للاتصال مع كريم في مكتبه وقالت له: «ان سلطانة حامل وانها ذهبت الى طبيب لاجراء عملية اجهاض» .

واعادني كريم الى البيت وهو يلعنني، لكنه ما ان وصلنا الى غرفتنا حتى انهال عليّ تقبيلاً وسالت دموعنا ونحن نعتذر لبعضنا. وانتهى الاشكال بأن عادت السعادة ترفرف علينا وعلى نحو اشد من السابق.

الــولادة

الولادة هي أكمل وأقوى تعبير عن الحياة ، فعملية الحمل والوضع أعمق وأجمل من أي معجزة فنية ... هذا ما أدركته وأنا أنتظر مولودي الاول بسعادة غامرة .

وخططت مع كريم عملية الولادة وبحثنا أدق التفاصيل وحجزنا التذاكر للسفر الى أوروبا قبل أربعة أشهر من الوضع وقررنا أن تتم الولادة في مستشفى (غاي) في لندن . وكما يحدث أحياناً تحدث أمور طارئة تؤثر على الخطط ، وقد تأجل سفرنا لعدة أسباب منها أن حماتي بعد أن صارت تستعمل حجاباً كثيفاً اصطدمت بامرأة بدوية في السوق ووقعت فانشعر كاحلها . كما ان أحد أبناء عمومتنا كان على وشك توقيع عقد مهم يشمل مقاولة بعشرات الملايين طلب من كريم أن يؤجل رحلته الى ما بعد توقيع العقد ، هذا بالاضافة الى ان شقيقتي نورا أفزعت العائلة عندما أخبرتنا بأن طبيبها يعتقد أن سبب آلامها زائدة دورية وفي هذه الحالة لا بد من اجراء عملية جراحية .

وما ان انتهت هذه الازمات حتى دخلت في شهري الاخير من الحمل ومنعني الطبيب من السفر ... وتقبلت مع كريم ما حدث وبدأنا ترتيبات جديدة للولادة في الرياض .

في تلك الايام كان مستشفى الملك فيصل ومركز الابحاث التابع له قيد الانشاء . ولذلك ستتم الولادة في أحد مستشفيات المدينة .

ولأننا من الاسرة المالكة فثمة خيارات كثيرة متاحة لنا ومن ذلك على سبيل المثال ان كريم اتفق مع ادارة مستشفى التوليد بتحويل ثلاث غرف فيه الى جناح ملكي وأرسل على نفقته نجارين وخبراء ديكور لتحويل الغرف الثلاث الى جناح ملكي .

وصحبتني شقيقاتي الى المستشفى حيث رافقنا المدير الى جناحي

الخاص الذي أنفق عليه كـريم مبالغ محترمة حتى حولـه فعلاً الى ما يشبه القصر .. وكـان الى جانب السرير سرير آخـر لطفلي تم تثبيته في أرضيـة الغرفـة خشية ان تتعثـر المرضـات به ويسقط طفلنـا على الارض وعندما علمت شقيقتي نورا بسبب تثبيت سرير الطفل غرقت في الضحك وأعربت عن مخاوفهـا من أن يدفع كـريم أفراد الاسرة الى الجنود بسبب خططـه واهتمامه غير الطبيعي بالطفل المتـوقع . وجاء كريم ليخبرني بأن فـريقاً طبيـاً من ستة أشخـاص سيصل من لندن للاشراف على ولادتي قبل ثـلاثة أسابيع من الموعد المتـوقع للوضـع . ولأن والـدتي متــوفيـة ، انتقلت ســارة للعيش معــي حتى الـولادة ولاحظت أن اكتئابها يزداد يومـاً بعد آخر ، وأخبرت زوجي بمخاوف عليهـا وأنها رغم مضي وقت على طـلاقهـا من ذلك الـوحش فإنها لم تسترد روحها المرحة .

ويا لسخريات القدر ... فقد كـانت سارة جديرة بزوج رائع ... أما أنـا فكنت مـؤهلـة أكثر منهـا للتعـامل مع زوج وحشي الطبـاع ، لأن الـرجال الـذي يتمرجلـون على زوجـاتهم يتوقفـون عن ذلك عندمـا يجدون امرأة قوية وشرسة ترد الصاع صاعين .. لكن سارة المسالمة الهادئة كانت هدفاً سهلاً لعنجهيـة زوجها المتوحش .. وعلى أي حال كنت أشعر بالاطمئنان لوجودها الى جانبي .

وبسبب وجود (أسد) شقيق كريم وعدد من أولاد العمومة الذين كانوا يحضرون ويـذهبون متى شاءوا ، كانت ســارة تتحجب عندما تغادر القسم المخصص الى كريم في الطابق الثاني من القصر ... وكان الخدم وحماتي يستقبلـون الضيوف العـازبين (غير المتـزوجين) في جناح آخـر لكنهم كـانوا يتجولـون في القصر على هواهـم ... وبعد ان أمضت ســارة اليوم الثالث في بيتنـا طلبت منها نـورا (حماتي) عن طريـق كريم أن لا حاجـة للتحجب بعد ان تـدخل القصر ... وسررت لذلك وترددت سارة في البداية لكنها سرعان ما أزالت الحجاب .

وذات مســاء كنت مع ســارة نستمتـع بـالنسيم في الحديقـة (في

القصور السعودية توجد حديقة مخصصة للنساء وحديقة أخرى للرجال) عندما عاد أسد مع أربعة من أصدقائه الى البيت .

عندما سمعت سارة وقع أقدام الرجال تقترب أدارت وجهها الى الحائط حتى لا تظهر وجهها للغرباء ، ولم أشأ احراجها فصرخت على أسد وأبلغته بأننا في الحديقة بدون حجاب .... ومر الرجال من أمامنا بسرعة دون ان يلتفتوا الينا ودخلوا من باب جانبي الى غرفة الجلوس .. وجاء أسد ليسألني أين يمكن أن يكون كريم في تلك الساعة المتأخرة وبالمصادفة وقعت عيناه على وجه سارة .

كانت ردة فعله حادة ومفاجئة لدرجة اعتقدت معها أنه أصيب بنوبة قلبية ... واهتز جسده فنهضت وأمسكت بذراعه وتساءلت ما إذا كان مريضاً ... كان مذهولاً لا يستطيع التحرك دون توجيه فأجلسته على مقعد وناديت الخدم بصوت مرتفع حتى يحضروا كوباً من الماء البارد .

وعندما لم يستجب لي أحداً نهضت سارة مسرعة ودخلت الى البيت لاحضار الماء ، وشعر أسد بالاحراج وحاول ترك المكان لكني كنت على يقين بأنه سيصاب بالاغماء فالححت على بقائه ... وقال أنه لا يشعر بأي ألم لكنه لم يستطع توضيح السبب الذي جعله يفقد السيطرة على نفسه فجأة .

وعادت سارة تحمل كوباً وزجاجة من المياه المعدنية ، وسكبت الماء في الكوب وقدمته له دون أن تنظر اليه ، ولامست يد أسد أنامل سارة والتقت عيناهما فسقط الكأس من يده وتهشم ، وعادت سارة لاحضار كوب آخر .

وتركت أسد لأصدقائه الذين نفذ صبرهم وبدأوا يخرجون الى الحديقة ولا شك أنهم كانوا يتوقون لمشاهدة وجهي وهذا ما فعلته « اذ اني تجاوزتهم وطرحت التحية عليهم وجهاً لوجه . أيقظني كريم في منتصف الليل لدى وصوله الى القصر وكان أسد قد قابله ... وطلب

أن يعرف ماذا حدث في الحديقة وكنت أتثاءب نعساً وسألته عن صحة أسد . وجلست أخيراً على السرير وأخبرني كريم بأن أسد يصر على الزواج من سارة وأكد أسد في حديثه مع كريم بأنه لن يعرف السعادة اذا لم يتزوج سارة ... والطريف في الامر هنا أن أسد أقسم لوالديه قبل بضعة أسابيع بأنه لن يتزوج . ودهشت جداً ... وأبلغت كريم أنه لم يدر بخلدي أن يكون أسد قد وقع في غرام سارة من أول نظرة على هذا النحو . وان اصراره على الزواج بسارة أمر لا يصدق ... ثم اني استبعدت ذلك وفكرت ان الموضوع كله قد يكون مزحة ... ودخل كريم الى الحمام ليأخذ(دشاً) فأعدت التفكير في الموضوع ونهضت من السرير نحو غرفة سارة وقرعت الباب لكني لم أسمع جواباً ، ففتحت الباب ودخلت .. كانت سارة جالسة على الشرفة تراقب نجوم السماء ... جلست قربها لا أعرف كيف أبدأ الموضوع واذ بها تخاطبني دون أن تلتفت لي قائلة : « انه يرغب بالزواج مني » وأجبتها بالايجاب .

وبنظرات واثقة استطردت سارة « لقد شاهدت يا سلطانة أمامي عندما نظرت في عينيه .. انه الرجل الذي شاهدته هدى في خطوط راحتي عندما قالت اني سأعرف الحب واني سأنجب ستة أطفال » وأغمضت عيني في محاولة لاستذكار تعليقات هدى في ذلك اليوم في قصر والدي وتذكرت ما قالته لسارة ، وارتعشت أيضاً عندما لاحظت أن معظم ما تنبأت به هدى قد تحقق . وحاولت طرد فكرة الحب من أول نظرة ، لكني تذكرت عواطفي عندما شاهدت كريم لأول مرة ... ووضعت سارة يدها على بطني قائلة : « أذهبي الى سريرك يا سلطانة فالجنين بحاجة الى الراحة ... أما أنا سأرى ما كتب لي » وعادت تحدق في نجوم السماء ... ثم أضافت : « قولي لكريم أنه ينبغي على أسد مراجعة والدي بهذا الشأن » عدت الى السرير وكان كريم مستيقظاً ، وأبلغته بما قالته سارة فهز رأسه باستغراب قائلاً : « ان الحياة عجيبة بالفعل » وسرعان ما غفونا في نوم عميق .

في صباح اليوم التالي تركت كريماً مشغولاً بحلاقة ذقنه وهبطت ببطء على الدرج وسمعت صوت حماتي قبل أن أراها .... وكانت تكرر حكمة وهي : « الرجل الذي يتزوج المرأة بجمالها يخدع نفسه أما من يتزوج بعد تفكير وتروي فهو الذي ينجح في زواجه » وأصدرت صوتاً أعلن وجودي لكنها لم تسمعه واستطردت تقول : « لقد سبق لسارة أن تزوجت يا أسد وتم طلاقها خلال أشهر ولا يوجد من يعرف السبب ... ففكر يا ولدي لأن باستطاعتك الزواج ممن تريد والافضل ان تتزوج فتاة بكراً وليس مطلقة .. وبالاضافة الى ذلك يا ولدي أنت تعرف بأن شقيقتها سلطانة كتلة من النار ... فهل يمكن أن تختلف عنه شقيقتها ؟ » وهكذا كانت حماتي تحرض ابنها ضد سارة ليس ذلك فقط .. ان هذه اللبؤة لم تتغير انها مازالت تكرهني وتكن لي العداء سراً . ولأني كنت أعرف بأن أسداً شاب منطلق لم أكن أفضل زواجه من سارة ، لكني بعد أن سمعت حماتي سأبذل ما بوسعي لدعمهما ، وشعرت بالبهجة لأن تقاطيع أسد كانت توحي وعلى نحو قاطع بأنه لن يتراجع عن قراره ، فلقد سلبت سارة لبه . وتوقفت حماتي عن الحديث حالما شاهدتني ، ولم أستطع اخفاء غضبي ... كنت مستأثرة جداً من حماتي لاعتقادها بعدم صلاحية شقيقتي لابنها .. صحيح بأنني متمردة وثائرة وهذه طبيعتي منذ الطفولة وهي طبيعة لا أرغب في تغييرها . أما أن تدعي حماتي بأن سارة من طبيعتي فهو شيء لا يحتمل . وقد سمعت مثلاً في طفولتي وهو : « اذا وقفت قرب حداد فلا بد أن تتسخ أما اذا وقفت قرب بائع عطور فلا بد أن يصيبك شيئاً من شذاها » وفكرت ان ضرراً قد يلحق بسارة بسبب سمعتي ولذلك كان غضبي بلا حدود .

والحقيقة ان جمال سارة كان يدفعنا للغيرة منها أحياناً .. المهم نظرت الى أسد فهز لي رأسه وغادر الغرفة ... وبدت حماتي وكأنها تتلقى خنجراً في بطنها عندما التفت اليها أسد قائلاً : « لقد اتخذت القرار فاذا قبلتني سارة وأهلها فلا يوجد من يستطيع تأخيري »

وصرخت عليه حماتي واتهمته بالتهور وعدم الطاعة وأضافت بأنها ربما لم تعد صالحة لهذه الحياة ... لكن أسداً تجاهلها ومضى في طريقه فهزت رأسها أسى ولوعة ثم قطبت حاجبيها وبدأت تحتسي القهوة وربما تخطط للتآمر على سارة كما سبق أن تآمرت على ضرتها اللبنانية . قرعت الجرس للطاهية وطلبت بعض الفواكه وكوباً من اللبن لوجبة الافطار ... وحضرت مارسي وأخذت تدلك قدمي المنتفخة بأناملها الماهرة .. وحاولت حماتي الحديث ... لكنني كنت غاضبة فلم أرد عليها . وما ان بدأت في تناول الفواكه حتى انتابتني الام المخاض فوقعت أرضاً أتلوى وأصرخ .

ودبت الفوضى وانطلقت حماتي تنادي على كريم وسارة والممرضات الخاصات والخادمات .. وخلال لحظات حملني كريم بين ذراعيه ونقلني الى المقعد الخلفي في سيارة ليموزين وانطلق بي نحو المستشفى بعد ان أبلغ الفريق الطبي البريطاني بضرورة التوجه فوراً الى المستشفى .

وحاولت الممرضة ان تراقب دقات قلبي لكن الامي منعتها من ذلك ، وصرخ كريم على السائق بأن يزيد سرعته ثم عاد وطلب منه ان يبطيء وشتمه لأنه لا يحسن السواقة في الازمات .

ولعن كريم نفسه لأنه لم يطلب مراقب سير لمرافقةالليموزين ... وفعلت سارة ما بوسعها لتهدئة كريم لكنه كان كالعاصفة الهوجاء .. وأخيراً صرخت الممرضة البريطانية في وجهه وأكدت له بأن سلوكه يضر بي وبالجنين وأضافت بأن الافضل ان يتبعنا في سيارة اخرى اذا كان لا يستطيع السيطرة على نفسه .

وسكت كريم بعد ان سيطر على مشاعره القلقة وشعرنا بالراحة من ذلك .. وكان مدير المستشفى وعدد من الموظفين بانتظارنا عند باب المستشفى ، ولا شك ان المدير كان يشعر بالسرور لأن طفلنا سيولد في مستشفاه ،لأن الكثيرين من الامراء ، آنذاك كانوا يرافقون زوجاتهم الى أوروبا حتى يلدن هناك .

وزدادت الام المخـاض ... وكنت شابـة وصغيرة الحجم والجنين عنيد وكبير الحجم ، ولا أتذكر الان الا القليل عن عملية الولادة بسبب التخدير ... أذكر بأن الطبيب البريطاني كان يصيح على مساعديه ولا شك أنهم كانو مثل زوجي وأفراد الاسرة يدعـون الله ان يكون الوليد ذكراً ، لأنهم سيتلقون مكافأة مجزية اذا كان الوليد ذكراً ، أما اذا كان الوليد أنثى فستعم سحابة من الخيبة ،لكني في أعماقي كنت أتمنى ان أنجب أنثى ... فلا بد من تغيير التقاليد في بلادي .

وفجأة سمعت أصـواتـاً تنطوي على سرور ومـرح وبـدأ الطبيب يوقظني ويبشرني بأني وضعت طفـلاً ذكراً .. حينما همست في أذني كبيرة الممرضات « ان والده الاحمق سيملأ جيـوبنا ذهباً » وكدت ان احتج على هذه الاهـانة لزوجي لكني غبت عن الوعي مـرة اخرى ولم أتذكر مـا قاله ذلك الطبيب البريطاني الحقير الا بعـد أسابيع ... وكان كـريم قد كـافأه بسيارة جـاغـور بالاضـافة الى خمسين الف جنيـه استرليني بينما كـافأ الممرضـات بخمسة الاف جنيـه استرليني لكل واحـدة فضـلاً عن هـدايا ذهبيـة من أسـاور وأطواق . وكـافأ مديـر المستشفى بعشرة الاف دولار وساعة ذهبيـة . وتبخرت افكاري عن البنـات عندمـا وضعـوا ابني في حضني كان يتثـاءب وقلت في نفسي سأنجب بنتاً فيما بعـد وينبغي تعليم هذا الطفل بطريقـة مختلفة عن الاجيال السابقة .. وشعـرت بأني سأتحكم في مستقبله ويتعين عليه ان يحترم شقيقـاتـه ، وأن يتعرف على الفتـاة قبل أن يتـزوجهـا ولا يتزوجها الا اذا أحبها ... وذكـرت ان كثيراً من الرجال العظماء غيروا مجرى التـاريـخ واني سـأربي ابني بحث يضطلـع بعمليـة التغيير والاصلاح في السعودية .

أمـا كريم فلم يفكـر كثيراً بمستقبل ابنه ، كـان مسروراً بمشاعـر الابوة ويتحـدث عن عدد الذكـور الذين سـأنجبهم وكنت أضحك على ذلك ويبادلني الضحك في سعادة غامرة .

أحداث مظلمة وسوداء

ان اكتمال ولادتنا تنتهي بالموت ... وتبـدأ الحياة باتجاه أو مسار واحد ، لكن ثمة معان لا حصر لها للوجود والحياة ... وعندما يخطف الموت الحياة من انسان واعد يتدفق نشاطاً وحيوية يكون لهذا الحدث وقع أشد حزناً وألماً من أي شيء اخر ... أمـا عندما تنتهي حياة انسان على يد انسان اخر فهذا أبشع ما في الحياة .

بعد ان وضعت طفلي صدمت لدى موت طفلة بريئة وعلى عابث .

لقـد حاول كـريم والفريق الطبـي عزلي عن النسـاء السعوديـات الاخريـات اللواتي كن يقمن في غـرف على بعد خطـوات من جناحـي . وبينما كان طفلي ينام الى جانبي كاجراء احتزاري اضـافي . كان المواليد الاخرون ينامـون في الحاضنة ... وكنت أحب سماع قصص حياتهم ... وكما هـو الشأن مع معظم الاميرات فقد عشت معـزولة عن بقيـة المواطنين ، لكن طبيعتي الفضولية وحب الاستطلاع في أعماقي دفعني لتبادل الحديث مع هؤلاء النسوة وإذا كانت طفولتي قاتمة فقد علمت ان حياة معظم السعوديات أشد قتامة وتجهماً ... كانت حياتي مسيرة ومحكـومـة من قبل الـرجـال لكنـي كنت أنعم ببعض الحمايـة التي توفرها اسم عائلتي أما بقيـة النسوة اللواتي كن يتجمعن حول نافذة الحاضنة الزجاجية فليس لهن أي صوت في مصيرهن .

كنت في الثامنة عشرة عنـدما وضعت طفلي الاول ، وفي المستشفى قابلت فتيات في الثالثـة عشرة يحتضن أطفالهن ، كما قابلت فتيات من عمري أنجبن أربعة أو خمسة أطفال .

لقد حيرتني احـدى الشابات ... كانت عينـاها السوداوان زائغتين تنطويان على ألم دفين وهـي تنظر الى الاطفال في الحاضنة الـزجاجية ... وكانت تقف هادئة فترة طـويلة تحدق في الحاضنة وكأنها لا ترى

شيئاً لأنها غارقة أو مشغولة في دراما بعيدة عن المستشفى .

وعرفت بعد ذلك أنها من قرية صغيرة غير بعيدة عن الرياض . وقد جرت العادة في قبيلتها ان تلد النساء في بيوتهن ، لكن الام المخاض جاءتها فجأة وعلى نحو شديد استمر خمسة أيام ولذلك حملها زوجها الى المدينة ... وكنت أحييها صباحاً وبالتالي توطدت علاقتي بها وعلمت منها أنها تزوجت وهي في الثانية عشرة من رجل تجاوز الخمسين وكانت زوجته الثالثة لكنه تعلق بها أكثر من زوجتيه الاخريين .

وتنص تعاليم القرآن الكريم على العدل بين النساء ، لكن الزوج الذي أفتتن بزوجته المراهقة نسي زوجتيه الاخريين . لكنها ورغم هيام زوجها بها تشعر بالخوف لأنها أنجبت أنثى وليس ذكراً وهو ما سيغضب الزوج حتماً لأن زوجتيه الاخريين أنجبن ذكوراً منذ الحمل الاول .... ولذلك تخشى أن يوبخها .

وعرفت بأنها لا تتذكر تفاصيل طفولتها ... لكنها نشأت في أسرة فقيرة وعانت الكثير من المشقات والتضحيات ... وأخبرتني كيف انها كانت تساعد اشقاءها وشقيقاتها في رعي الماشية والابل . وأحببت أن أعرف مشاعرها حول الرجال والنساء والحياة لكن لأنها غير متعلمة فلم أتلق الاجوبة التي كنت أسعى لها .

وغادرت تلك المراهقة المستشفى قبل أن أتمكن من وداعها وشعرت بشيء من الاسى لحياتها التعيسة وحياة الكثيرات مثلها . وبسبب قلق كريم على سلامة ابنه وضع حراساً مسلمين على باب غرفتي ... وعندما كنت أقوم بالتمشي نحو الحاضنة دهشت لمشاهدة حراس مسلمين أمام غرفة أخرى ، وفكرت ان أميرة أخرى تقيم في تلك الغرفة أو لعلها جناح مثل جناحي . وسألت الممرضة عن اسم تلك الاميرة ، فأجابتني بأني الاميرة الوحيدة في المستشفى . لكنها تطوعت لأخباري بالقصة بعد أن شتمت كثيراً وأعلنت عن سخطها الشديد مما يجري في الغرفة رقم (٢١٢) وأن ذلك لا يمكن ان يحدث

في بلادها المتحضرة بريطانيا .

ورجوتها أن تروي لي ما تعرفه قبل أن يحضر كريم ، فقالت ان المستخدمين في المستشفى شعروا بالقرف في اليوم السابق لدى مشاهدتهم فتاة على وشك الوضع مقيدة الايدي والارجل وبرفقة حراس مسلمين . ثم حضر عدد من المطوعين الغاضبين فاستقبلهم المدير لكنهم نحوه جانباً وعينوا طبيباً خاصاً للفتاة المقيدة بالسلاسل دون استشارة المدير .

ودهش الطبيب عندما علم بأن الفتاة حوكمت بموجب الشريعة وثبتت عليها تهمة الزنى وهي من الجرائم التي تستدعي اقامة الحد . ولم يبد الطبيب الباكستاني أي احتجاج على المطوعين فمهمته هي توليدها . والمعروف أن الجلد هو عقاب الزنى لكن والد هذه الفتاة أمر بقتلها ، ولذلك عين حراساً لحمايتها الى حين الوضع وبعد ذلك لا بد من رجمها حتى الموت .

وهزت المرضة رأسها بأسف واستنكار قائلة ان عمر الفتاة لا يزيد على الرابعة عشرة ، ثم تركتني وانهمكت في حديث مع المرضات الاخريات .

وحضر كريم ورجوته ان يعرف تفاصيل القصة ، فتردد على أساس ان الموضوع لا يعنينا وبعد ان رجوته وسالت دموعي حزناً على الفتاة وعدني بأنه سيسأل ويعرف تفاصيل القصة ، بينما دخلت سارة لتبهجني بالتطورات السارة . فقد تحدث أسد مع والدي وأنها ستتزوج من أسد خلال ثلاثة أشهر .

ثم أخبرتني بشيء أفزعني وهو أنها خططت مع أسد ليتقابلا في البحرين خلال أسبوع وعندما أبديت اعتراضي على ذلك قالت أنها ستسافر الى البحرين لمقابلة أسد سواء ساعدتها أو لم أساعدها ... وتفاصيل خطتها ان تدعي للوالد بأنها موجودة عندي في بيت والد كريم لمساعدتي بينما تقول لنورا أنها عائدة الى قصر والدنا وأكدت لي

بأن أحداً لن يكتشف الحقيقة .

وتساءلت كيف ستسافر بدون موافقة الوالد لعلمي بأن كافة جوازات السفر موجودة في قاصة حديدية مغلقة في مكتب الوالد ، فضلاً عن حاجتها لتصريح من الوالد بالسفر ولا يسمح لها بدخول الطائرة بدون مثل هذا التصريح . واستغربت من جرأة سارة عندما أخبرتني بأنها استعارت جواز سفر وتصريح بالسفر من احدى صديقاتها كانت ستسافر الى البحرين لزيارة أقاربها لكنها ألغت الرحلة نتيجة مرض أحد أقاربها في الرياض .

ولأن النساء السعوديات محجبات ولا يجرؤ رجال الامن في المطار ان يطلبوا من المحجبة الكشف عن وجهها ، فان سعوديات كثيرات يستعرن جوازات سفر بعضهن البعض في هكذا مناسبات ، أما تصريح ولي الامر فبالامكان تدبر أمره أو تزويره عند اللزوم . وكانت سارة سترد الجميل بمثله في وقت لا حق بحيث تخطط لرحلة وتلغيها في آخر لحظة لمصلحة صديقتها . كانت عملية سرية مفصلة لا تخطر على بال أي رجل سعودي ، وكنت في الماضي أستمتع كثيراً بقصص السعوديات اللواتي يستغفلن المسؤولين في المطارات السعودية ، لكني شعرت بالقلق هذه المرة لأن شقيقتي هي التي ستقوم بذلك وفي محاولة لتثبيط همة سارة عن هذه المغامرة رويت لها قصة الفتاة التي سترجم حتى الموت لكنها لم تكترث بذلك مؤكدة بأنها لن تتراجع عن خطتها ولذلك اضطررت للموافقة بأن اضطلع بمهمة التغطية على العملية ... وكانت سارة تضحك عندما تفكر كيف أنها ستقابل أسداً دون وجود أي رقيب ذلك أنها ستنزل معه في شقة أحد أصدقائه في المنامة عاصمة البحرين .

وحملت سارة طفلي وحدقت في وجهه بمرح قائلة أنها ستصبح أماً أيضاً وأنها ستنجب ستة أطفال كما تنبأت لها هدى بذلك ... ولا شك بأني شعرت بالسرور لابتهاج شقيقتي لكني شعرت بالخوف أيضاً .

وعاد كريم ذلك المساء مبكراً ولـديه معلومات عن الفتاة التي حكم عليها والدها بالرجم وقال انها معروفة بالخلاعة وانها حملت بعد ان ضاجعت عـدة شباب في العشرينات مـن العمر ، وأظهر كـريم تقززه واستنكـاره من سلوكهـا لأنها تطاولت على شريعتنـا ولطخت شرف عائلتهـا وبالتالي لا يوجـد أمام أهلها خيـار اخر سوى انزال عقـوبة الموت بها رجماً .

وسألت زوجي وماذا عن معاقبة الشباب الـذين ضاجعوها ، لكنه لم يجبني .. ففي بلادنا تتحمل المرأة المسـؤولية الرئيسية في الجرائم الجنسيـة ... ولا شك بأني دهشت من مـوقف كـريم المؤيـد لانـزال العقاب الصارم بالفتـاة ... ورجوته ان يبذل جهداً لانقاذهـا بالتدخل لدى الملك لكنه رفض ذلك وطلب مني نسيان الموضوع . ثم حمل ابننا وطبع على وجهه عدة قبل وغادر المستشفى .

بعد يومين كنت أستعد لمغادرة المستشفـى عندما دخلت المرضة البريطانيـة الى جناحي ممتقعة الـوجه ولديها أخبـار عن الفتاة التي سترجم . وقالت المرضة ان الطبيب البـاكستاني أخبرها بالتفاصيل وان الفتاة ولدت طفلـة في ساعة مبكرة من ذلك الصبـاح ، وتم ابلاغ المطوعين فحضروا ووقفوا الى جـانب الحراس حتى منعوا أي أجنبي من محاولـة مسـاعدتها على الهرب ... بعـد الـولادة نقلت الفتـاة الى غرفتها وأبلغ المطوعـون الطبيب بأنهم سيأخذونها ويرجمونها حتى الموت في ذلك اليوم . أما مصير طفلتها فلم يتقرر بعد خاصة وأن أسرة الفتاة ترفض أخذها وتربيتها .

وقالـت المرضة والفـزع يغشى عينيها ان الفتـاة أخبرت الطبيب بالاحـداث التي أدت الى وضعها المأساوي وأن اسمهـا أمل وهي ابنة تاجر في الرياض وانها كانت في الثالثـة عشرة من عمرها عندما حدثت المشكلة التي ستقضي عليها .

كانت أمل قـد تحجبت منذ بضعة أشهـر قبل الحادث . وذات يوم سافر والد أمل الى الامارات العربية المتحدة في اجازة قصيرة ليومين .

وكان في المنـزل ثلاث خادمـات فليبينيات نائمات بينما كـان السائق نـائماً في غـرفتـه الصغيرة قـرب بوابـة الحديقـة ... أمـا اشقـاؤهـا وشقيقاتها الكبريات وكلهم متزوجون فيعيشون في أماكن أخرى من المدينة . ولم يكن في البيت عنـد مغادرة الوالدين الى الامـارات سواها وشقيقها الذي تجاوز السابعة عشرة من عمره والخادمات والسائق . ولغياب الوالدين استغل شقيقها الفـرصة للتسلية واللهو مع عدد من أصدقائه .... وفي تلك الليلة المشؤومـة سمعت أمل أصواتاً وموسيقى صاخبة تنطلق من الغرفة المخصصة للألعاب تحت غرفة نومها تماماً . فـاعتقدت بـأن شقيقها وأصـدقـاءه يـدخنون مخدر الماريجوانـا ، وكانت تعـرف بأن شقيقها يـدخن هذا النـوع من المخدرات أحيـاناً . وبعد ان ازداد الضجيج لـدرجة ان سريرهـا أخذ يهتز قـررت هبوط الدرج والطلب من شقيقها وقف تلـك الموسيقى الصاخبة أو تخفيض الصوت على الاقل حتى تنام . وكانت في ملابس النوم ولذلك قررت ان تطلل برأسها فقط داخل الغرفـة وتصرخ بشقيقها .. وكانت الاضواء خافتة ولم يستجب شقيقها لندائها وهو ما دفعها لدخول الغرفة بحثاً عنه .

ولم تجد شقيقها بل مجموعة من أصـدقائه المخدرين وسرعان ما هجموا عليها وبطحوها أرضاً . وأخذت تستغيث وتنادي على شقيقها وتحاول إفهام الشباب بأنها ابنة صاحب البيت وشقيقة الذي دعاهم ، غير أنهم لم يسمعوا مـا قالتـه ولا تعاطفوا مع تـوسلاتها وقـاموا بـاغتصـابها الـواحد تلـو الاخـر .. ورغم صراخهـا غير ان أحـداً لم يسمعهـا بسبب الموسيقى الصـاخبـة ، وفقـدت أمل وعيهـا بعـد ان اغتصبها الشاب الثالث .

كان شقيقها آنذاك في الحمام مخمـوراً ومخدراً لدرجة أنه أمضى ليلتـه نائماً في الحمام ... وعنـدما أشرقت الشمس وصحـا أصدقـاء شقيقها من الخمر والمخدرات وأدركـوا بأن أمل هي شقيقة صديقهم هربوا من الفيلا فوراً .

وقام السائق والخادمات الفليبينيات بنقلها الى مستشفى مجاور ، واتصل الطبيب المسؤول على الشرطة وأبلغهم بالحادث فأصبح للمطوعين علاقة بالامر ... ولم تستطع أمل معرفة أسماء الذين اعتدوا عليها وقالت إنهم أصدقاء شقيقها وهكذا تم التعرف عليهم من شقيقها وتم اعتقالهم للتحقيق معهم حيث زعموا بأنهم لم يتعاطوا المخدارات بل يستمعون الموسيقى وأن أمل دخلت ليهم شبه عارية بدأت تغريهم لمضاجعتها وأنهم رفضوا ذلك لكنها بدأت تعانقهم وتقبلهم وتجلس في أحضانهم وتعرض عليهم مفاتن جسدها بحث لم يستطيعوا المقاومة ... وأنها فتاة متهتكة أرغمتهم واغرتهم على الشر .

وعاد والدها من الامارات المتحدة وصدقت والدتها القصة لكنها لم تستطع اقناع زوجها ببراءة البنت . وكان والد أمل من النوع الذي يكره البنات ، وصعق مما حدث ورغم ذلك كان على قناعة بأن الاولاد فعلوا فيها ما يفعله أي ذكر في نفس الظروف ، ولذلك قرر إنزال العقاب بها لأنه لوثت شرفة .

أما شقيقها فقد كان يخشى من تهمة المخدرات ولذلك لم يحاول انقاذ شقيقته بتأكيد قصتها ..

وقد قدم المطوعون دعماً أخلاقياً لموقف الوالد الصارم وامتدحوا ايمانه وتمسكه بالتعاليم والتقاليد .

كانت أمل ستموت في ذلك اليوم ... وشعرت بالاسى والخوف معاً ولم أعد أسمع ما تقوله المرضة الانكليزية وأنا أتصور جهود والدتها لانقاذها من الموت سيما وأنها بريئة . ولم يسبق ان شاهدت في حياتي تنفيذ حكم الاعدام رجماً بالحجارة ، لكن عمر شاهد ذلك ثلاث مرات ، وكان يصف لنا مصير النساء اللواتي لا يحافظن على شرفهن . وتذكرت التفاصيل التي كان يرويها لنا عمر .

عندما كنت في الثانية عشرة من عمري ، أثبت المطوعون جريمة

الزنى على امرأة في قـرية ليست بعيدة عن الريـاض وتم الحكم عليها بالاعدام رجماً حتى الموت . وقد قرر عمـر وعدد من سواقي جيراننا الذهاب ومشاهدة تنفيذ الحكم .

ومنذ الساعات المبكرة تجمع حشد كبير من الناس لمشاهدة عملية الرجم والمشاركـة فيها ، وقال عمر ان صبر الحشـد نفذ في ذلك اليوم الحار وعند الساعة العاشرة حضرت سيارة شرطة وتم انزال امرأة في الخامسـة والعشرين من عمـرهـا بعنف من السيـارة .. كـانت المرأة جميلة ويـداها مقيدتـان بالسلاسل ورأسهـا منكساً ... ووقف رجل وقرأ من ورقـة بيده الجريمـة التي ارتكبتها المرأة ... كـان يقرأ بأعلى صوته حتى يسمع الحشد .... ووضعت خرقة في فمها حتى لا تصيح وتم سحبهـا بحبل من رقبتها وأرغمت على الـركوع حيث جـاء رجل ضخم وجلدها على ظهرها (٥٠) جلدة .

ثم جـاءت شـاحنـة (قـلاب) وأفـرغت حمولتهـا من الحجـارة المختلفة الاحجـام ، وعند ذلك قـال الرجل الـذي قرأ الـورقة يخاطب الجمهور أنـه ينبغي المباشرة في تنفيـذ الحكم .. وقال عمـر ان الحشد ومعظمه من الرجـال هرعوا الى كوم الحجارة وبـدأوا يرشقون المرأة بها ، فانبطحت على الارض وأخذت تتلـوى في كل الاتجاهات من الالم ... واستمرت الحجارة تتساقط على جسـدها من كل الجهات ... ومن حين لاخـر يتوقف رشق الحجـارة ويتقـدم طبيب من المرأة لفحص نبضـها ومعرفـة ما إذا كانت على قيد الحياة ... وبعد سـاعتين تقريباً من رجمها المتـواصل أعلن الطبيب انها مـاتت فتوقفت عمليـة الرجم قطعت المـرضة البريطـانية تأمـلاتي وذكـرياتي عنـدما عـادت الى جناحي وهي في حالة من التأثـر البالغ وقالت ان المطوعين سيأخذون الفتاة لانـزال العقاب بها واني اذا وقفت على باب غرفتي فسأشـاهد وجهها لأنها غير محجبة ... وسمعت ضجة في الممر فأرخيت الحجاب على وجهي وتحركت باتجاه الباب . كانت الفتاة المسكينة كالطفلة بين الحراس الاقوياء الذين كانـوا يقتادونها الى حتفها ورأسها يتدلى على

صدرهـا انها جميلة وكـانت ربما ستستمتع بحياة سـارة لو منحت فـرصـة الحيـاة . ثم انها رفعت رأسهـا بفـزع ونظـرت الى عشرات الوجوه حولها التي كانت تنظر اليها بفضول واضح .

وفكرت ان أحداً لن يرافقها الى قبرها .. ولن يرافقها سوى الغرباء في هذه الرحلة المظلمة والظالمة في آن واحد .

عدت الى غرفتي وحملت ابني برقـة زائدة وشعرت بالسرور لأنه ذكر وليس أنثى .. وحدقت في وجهه الصغير بدهشة .. فهل سيتمسك بهذه التقاليـد ويدعمها وهي التقـاليد التي لم تنصف أمه وخـالاته ؟ وفكرت لو أن كافة النساء في بلادي تعرضن لموت مفاجيء فلعل ذلك يدفع رجالنا لمعرفة قيمتنـا وتقديرنا ... ثم فكرت كيف تستطيع الام أن تحمي بناتها من قوانين بلادها التي عفا عليها الزمن .؟

وبكت الممرضة البريطانية وتساءلت لماذا لم أتدخل بصفتي أميرة لوقف هذا الجنون ؟ وأخبرتها بأني لا أستطيع ذلك وأنه لا يوجد رأي للنساء في بلادي حتى لـوكن أميرات من الاسرة المالكة ... وأضفت لها بأن الفتاة ستموت رجماً بالحجـارة بل ان وفاتها كولادتها ستمضي دون تسجيل ... واجتاحتني مـرارة وأنا أتذكر أولئك الشبـاب الذين اغتصبوها وكيف أنهم طلقاء لا يهتمون بقتلها رغم علمهم ببراءتها .

ووصل كريم وابتسـامة على وجهـه ... وكان قد نظم عـودتنا الى البيت وكأنها خطة حـربية اذ ان عدداً من مراقبي السير سيرافقـوننا من المستشفى حتى البيت عبر شـوارع الريـاض المكتظة بـالسيارات والناس... وعندما أبلغته بأن المطوعين أخذوا الفتاة أمرني بالسكوت ... أنه لا يرغب في سماع قصص حزينة .

وخـالجني شعور بـالاستيـاء من زوجي لأنه لم يبـد أي اهتمام بمصير فتاة من عامة الشعب ... وتنهـدت بعمق واحسست بالوحدة كما بدأت أخشى على بناتي اللواتي لم ألدهن بعد مما قد يواجههن في المستقبل .

موت ملك

كان عام ١٩٧٥ عام مسرات وكآبة بالنسبة لي ولعائلتي وبلادي في آن واحد.

في ذلك العام احتفلنا بعيد الميلاد الثاني لابننا عبدالله وتعاقد كريم مع فـرقـة سيرك صغيرة حضرت من فـرنسا خصيصـا للمنـاسبـة وكانت تقيم حفلاتها في الحديقة طيلة اسبوع كامل.

امـا سـارة واسـد فقـد تـزوجـا وكـانـا ينتظـران مـولـودهما الاول..وسافر أسد الى باريس لشراء كافـة مستلزمات الطفل في ثلاثة مخازن كبرى بينما كـانت والـدته نـورا تتهمـه بالجنـون.. وكـانت شقيقتي سارة سعيدة جدا بزواجها وعلى وفاق تام مع أسد.

وكان علي يدرس في امـريكا بعيدا عن التدخل في شـؤون شقيقاته وقد افـزع والدي عنـدما اخبره بأنـه يحب فتاة امـريكية مـن الطبقة العاملـة.. ثم عاد علي نتيجة تهديدات الـوالد وقال انـه يفضل زوجة سعوديـة... واكتشفنا بعد ذلك بأن الفتاة الامـريكية ضربت علي على رأسه بفازه عندما علمت بأنه تخلى عنها.

وفي السعـوديـة شعـرنـا بشيء من الـراحـة لجهـود الملك فيصل وزوجته عفت بتقليص القيـود الصـارمة المفروضـة على الاناث سواء في حق التعليم او غير ذلك.. كـان الملك فيصل وزوجتـه مصممين على الاصلاح لـدرجة ان عـددا من النسـاء تخلصن مـن الحجاب واكتفين بتغطية رؤوسـهن وكن يذهبن الى السوق ويحدقن في عيون المطوعين بنظارت تنطوي على التحدي، ولا شك ان ان شجـاعة أولئك النسوة القليلات زودتنا بـالامل، رغم ان بنات الاسرة المالكة لم يتمتعن بمثل هذه الحريـة التي اقتصرت على نساء الطبقـة الوسطى... وتـم افتتاح مدارس خاصة للبنات دون ان يجرؤ المطوعون على التظاهر احتجاجا

على ذلك.. وكنــا على قناعــة بأن تعليم البنات سيـؤدي في النهايـة الى مساواتنـا بالرجـال. لكن عقوبــة الموت للنساء استمرت خـاصة بين الاصوليين غير المتعلمين وكنــا نقول في انفسنا اننــا سنقضي على هذه القسوة بالتدريج، خطوة وراء خطوة.

وخلال فترة قصيرة نسبيا وهي ستة اشهـر اصبح لنا انا وكريم اربعة بيـوت بعد ان انتهى بناء قصرنـا في الرياض، وكـان كريم على قناعة بان صحة ولـدنا عبدالله ستكون افضل اذا تنشق نسيم البحر. فاشـترينا فيـلا جديدة على شاطيء البحر في جـدة. وكان والدي يملك شقة فخمة في لنـدن قريبة من هارودز وقد طرحهـا للبيع بسعر مغر فاشـتراهـا كريم كما قدم لي بمناسبــة السنة الثالثة على زواجنـا فيلا جميلة في القاهرة.

وبمناسبة ميلاد ابننـا عبدالله حضر صائغ الاسرة من باريس الى الريـاض ومعه مجمـوعة مختـارة من الماس والمجوهـرات على شكل قـلائد وبروشـات وحلق واشـترى كريم مجمـوعة منهـا وقدمهـا لي كهدية... وكنت اقضي مع كريم فترات طويلة في جدة.

اعتدنا في جدة على لعبة طـاولة الزهر والتمشي على الشاطيء بينما تقوم الخادمات الفليبينيات باللعب مع عبـدالله في مياه البحر الدافئة.. كنـا آنـذاك في اواخـر شهـــر اذار والطقس عليل ولم يتردد كـريم في مصارحتي بأنه يشعر بالسعادة حقا.

ان معظم العرب يـؤمنون بالحسد والعين الشريـرة ولذلك لم نكن نتحـدث امام النـاس عن سعادتنـا او عن جمال اطفالنـا لان الارواح الشريـرة قد تسمع ذلك وتخطف السعـادة منـا او تدفعنـا للتعاسـة والحزن على شخص نحبـه، ولأبعاد العيـون الشريرة نضع خـرزات زرقـاء في مـلابس اطفـالنـا وهــي عـادة شـائعـة حتى بين المثقفين السعوديين.

وذات يـوم حضر أســد متجهم الـوجـه وقـال: «لقـد مـات الملك

فيصل... قتلـه احـد افراد الاسرة المالكـة» وشعـرنـا بصدمـة كبيرة وجلسنا نرتجف هلعا بينما واصل أسد حـديثه يروي التفاصيل كما سمعها من احد اعمامه.

اما سبب موت عمنا فيصل فهو نزاع حول افتتاح محطة تلفزيون حدث قبل زهاء عشر سنوات.. لقد كان الملك فيصل حازما في مساعيه للاصـلاح والتقدم والتحديث ومجاراة روح العصر، وسمعـه كريم قبل ذلك يقول أنه «اي الملـك فيصل» سيمضي في تحديث البلاد سواء قبل السعـوديين ذلك او لم يقبلـوه. وانه مصمم على جـر المملكـة الى القرن العشرين جرا عند الضرورة.

وكـانت المشـاكل التي واجههـا مع المتـدينين لا تختلف كثيرا عن المشاكل التي واجههـاجدنـا عبدالعـزيز. فلقد كـافح المتدينـون ضد افتتاح محطة اذاعية وتغلب عبدالعـزيز. على اعتراضات المتدينين بأن امر مدير الاذاعة بث آيات من الذكر الحكيم على نحو شبه متواصل.. وهكذا وجد المتدينون المتطرفـون ان الاذاعة وسيلة جيدة لنشر كلام الله تعـالى.. وبعد سنـوات قرر عمنـا فيصل افتتاح محطـة تلفزيـون فـواجه كـوالده قبلـه نفس المشكلة مع المتـدينين الذين يطلقـون على انفسهم اسم العلماء (؟!)

ومما يبعث على الـدهشة والاسى ان بعض افـراد االاسرة المالكة، انضموا الى العلماء احتجاجا على افتتاح محطة التلفزيون في شـهر ايلو ل١٩٦٥ عنـدما كنت طفلـة.. واطلقت الشرطة النـار على المتظاهـرين فقتل احد اعمامنا الـذي كان يقود المظاهرة باتجاه محطـة التلفزيون على بعـد بضعة اميـال من الـريـاض . وتم تبـادل اطلاق النـار بين المتظاهـرين وبين الشرطة فقتل عمي وعدد من المتظـاهرين.. ومضت عشر سنـوات تقريبـا وتفاقمت الكـراهية في اعماق الشقيق الاصغـر لعمنا القتيل حتى اخذ بثأره وقتل «شقيقه من والده» الملك فيصل.

وعاد كريم مع أسد بالطائرة الى الرياض بينما اجتمعت مع سارة وعدد كبير من الاميرات في احد القصور وبدأنا نبكي على الملك الراحل

الذي كـان موضع حب الجميع تقريبا. لأنه اصـلاحي في توجهاته فضلا عن كـونه موضع احترام العلماء والامراء في آن واحـد.. وكان فيصل بقـوة شخصيتـه يفكـر في منح النسـاء بعض الحقـوق وقـد سمعتـه بأذني يقول ان دور الـرجل يختلف عن دور المرأة بـلا ريب لكن هذا لا يعطي للرجل حق التحكم بالمرأة كما يـريد، وانه لن يشعر بالسعـادة حتى يصبح كل انسان في هـذه البلاد سيـد مصيره سواء كان ذكرا او انثى.. وكان يؤمن بأن النساء لن يحصلن على حقوقهن الا عن طريق التعليم لأن الجهل هو الذي ابقانا في الظلام.. ومنذ وفاة فيصل لم يتعاطف اي حـاكم معنا مثله، بل ان اوضاعنـا بدأت تنزلق من سيء الى اسـوأو الحقيقة ان طمـوحاتنـا بالتحـرر دفنت مع الملك فيصل.

لقد شعرنا بكراهيـة وغضب وحقد لأن اسرتنا انجبت ذلك المجرم ابن عمنـا فيصل ابن مسـاعـد الـذي اغتـال احلامنـا وطمـوحنـا... وصرخت احـدى بنات اعمامـي بأن مساعـد بن عبـد العـزيز «والـد القاتل» كـان معتوها وانه لم ينجب سوى معتـوهين: الاول قتل اثناء محاولته منـع افتتاح محطـة التلفزيـون والثاني قـام باغتيـال عمه فيصل الـذي كـان مـوضع احترام وحب الجميع على اختـلاف توجهاتهم ومشاربهم.

كان الجو بشكل عام متجهما اذ كيف ستصبح المملكة بدون حكمة وحصافـة فيصل.. لقد عم الحزن الجميع بلا استثنـاء وفاقم الحزن ان الملك الذي اثبت جـدارته وحنكته وعمق بصيرته مـات على يد ابن شقيقه.

وكانت سارة قـد انجبت بنتا اطلقت عليها اسم والـدتنا «فضيلة» وكـانت مثل امهـا غـايـة في الجمال... وبسبب مخاوف سـارة على مستقبل ابنتها اقنعت أسد بتوقيع وثيقة تمنح فضيلة الحرية الكاملة في اختيـار زوجهـا. ذلك ان سارة حلمـت بانها ستمـوت مع اسـد في حادث تحطم طائرة.. وفكرت نتيجـة ذلك الكابوس بتأمين ابنها بهذه

الوثيقة كما فتح أسد حساباً خاصا بمبلغ مليون دولارلا باسم ابنته فضيلة في بنك سويسري.

وعاد علي من امريكا لقضاء اجازة الصيف ويخبرنا عن مغامراته النسائية ويصف الامريكيات جميعا بأنه ساقطات وان الرجال الامريكيين مجرد قوادين. وعندما تدخل كريم وقال انه قابل عدة امريكيات في واشنطن يتمتعن باخلاق عالية وادب جم ضحك علي ورد عليه بأن الامور تغيرت كثيرا وان النساء اللواتي كان يقابلهن في الحانات هن اللواتي يطلبن الرفقة والوصال الجنسي، واوضح له كريم ان ذلك لا ينطبق على كافة الامريكيات بل على اولئك اللواتي يشعرن بالوحدة ويتعاطين الخمور والمخدرات ثم ان النساء الامريكيات يتمتعن بالحرية كالرجال. ونصح علي بأن يحضر ندوات ثقافية او فنية في امريكا وسيدهش من سلوك واخلاق النساء اللواتي يشاركن في هكذا ندوات او مؤتمرات ، غير ان علي ظل على رأيه بأن كافة الامريكيات مومسات.

ويبدو ان علي لا يريد ان يفهم عادات وتقاليد البلاد الاخرى، ومثل العرب الاخرين يعتقد بأن افلام السينما والتلفزيون هي خير ما يمثل ويصور الشعب الامريكي، والاهم من ذلك ان السعوديين يسافرون لوحدهم عادة، وبسبب عزلتهم عن النساء في بلادهم فان اهتمامهم يتركز على النساء الاجنبيات، والمؤسف انهم لا يبحثون الا عن النادلات في الحانات او الساقطات وهذا هو سبب الصورة الشائنة التي يحملها السعوديون عن اخلاقيات الغرب.. ولأن معظم النساء السعوديات لا يسافرن فانهن يصدقن القصص التي يرويها لهن ازواجهن او اشقاؤهن وبالتالي يعتقدن بأن الغربيات ساقطات بشكل عام.

و قبل عودة علي الى امريكا ابلغ اوالد بأنه على استعداده للزواج الاول، فالحياة بدون ممارسة الجنس فيها مشقة حسب قوله ويجب ان تكون له زوجةفي الرياض لمعاشرتها اثناء اجازته الصيفية والاهم

من ذلك حان الوقت لان ينجب ولدا، فالرجل بلا اولاد في السعودية لا قيمة له ويكون موضع سخرية من معارفه.

ولن تـذهب الزوجـة مع علي الى امـريكا طبعـا بل ستظل في قصر الـوالد تحت حـراسة عمـر وبقيـة الخدم، وكان شرطـه في الزوجـة المطلوبة بعـد العذرية ان تكون شابة في السـابعة عشرة من العمر على الاكثر وان تكون جميلة بشكـل استثنائي ومطيعة. وتمت خطبة علي خلال اسبوعين على احدى بنات العمومـة وتم تحديد موعد الزواج في كـانون اول حيـث سيأخذ اجـازة بين فصـول الـدراسة ويعـود الى الرياض لهذه الغاية.

وكلما نظرت الى شقيقي اكاد ان احسـد نفسي لأني تزوجت رجلا طيبا وعاقلا مثل كـريم، ولا شك ان كريم ليس كاملا، لكن علي يعتبر رجلا سعوديا تقليديا تصعب الحياة معه.

قبل عـودة علي الى امريكـا اجتمعت اسرتنا كلهـا في بيتنا في جـده، وذات مسـاء احتسى الـرجـال الكثيرمن الخمر وبـدأوا يتجـادلـون بصوت مرتفع. وبعد العشاء طرح موضوع قيادة النساء للسيارات، ووقف كـريم وأسد معي ومع سـارة بضرورة تغيير النظام الغـربي الذي يمنع النسـاء من قيادة السيارات في بلادي تحت اي ظرف، وهو نظام ليس له اسـاس في الاسـلام فقد كانت خـولة بنت الازور تمتطي الحصـان وتحارب الـروم كـالرجـال.. وضربنـا امثلـة عن النسـاء الغـربيات اللـواتي يقـدن طائرات ويـذهبن مع الـرجال في رحـلات فضـائية حـول الارض، فكيف لا يسمح لنـا بقيادة السيـارة؟ ثم ان عائلات سعودية كثيرة لا تستطيع ان تستخدم اكثر من سائق واحد، فماذا تفعل مثل هكذا عـائلة عندمـا يكون سائقها في مهمـة او اجازة؟ وماذ يحدث في حالة الطوارىء كأن يحتاج احد افراد الاسرة الصغار او النساء الى طبيب على نحو مستعجل اذا لم يكـن هناك سائق يحمل هذا المريض او المريضة الى اقرب مستشفى؟ ولماذا يعتقد السعوديون بأن نسـاءهن قـاصرات وكيف يسمحون لابنـائهم المراهقين بقيـادة

السيارات وهم دون الرابعة عشرة من العمر بينما يمنعون نساءهم من ذلك حتى لو كانت المرأة في الاربعين او الخمسين من عمرها ولديها عدة اولاد وبنات؟ وهل يعتبرون المراهقين اكثر كفاءة وتدبرا في قيادة السيارات من المرأة!

كان علي ووالدي وأحمد من المتزمتين واعلنوا خشيتهم ان يؤدي السماح للنساء وبقيادة السيارات الى مواعيد غرام بينهن وبين الرجال في الصحراء. وقال احمد ان الحجاب لا يسمح للمرأة برؤية الشارع بشكل واضح، واستمر الحوار على هذا النحو حتى قال علي ان النساء طائشات ومتهورات وانهن سيقدن السيارات بسرعة وهو ما سيؤدي الى زيادة عدد حوادث السير في بلادنا.

وفي اليوم التالي دار حوار بيني وبين شقيقي علي، وتحدث عن ضرورة احتفاظ الفتاة بعذريتها حتى الزواج وليس كما هو الشأن في امريكا. وسألته ولماذا لا يحتفظ الرجال بعذريتهم بل يعرفون عدة نساء قبل زواجهم، وأجاب بأن القرآن يأمر النساء فقط بالحفاظ على عذريتهن.. قلت له ان القرآن يأمر الطرفين واستمر الحوار بيننا وتشعب حتى قلت له ان سعوديات كثيرات يفقدن عذريتهن وفي ليلة الدخلة يستعلمن كبد شاه او خروف طالما ان الزوج يريد ارضاء غروره وكبرياءه بمشاهدة الدماء. فاتصل علي بطبيب يعرفه وسأله ماذا كان بالامكان اجراء عملية جراحية لاعادة العذرية ببكارة اصطناعية وأجابه صديقه الطبيب بأن ذلك ممكن وهو ما زاد في دهشته واستغرابه وسألني فجأة ومن اين عرفت كل هذه المعلومات؟ واجبته بأني عرفتها من احاديث النساء.

وعاد علي الى امريكا بعد ان خطب له الوالد فتاة جميلة من الاسرة كنت اشفق عليها لمعرفتي بأن علي لن يعاملها باحترام كما ينبغي.

غرفة المرأة

كانت يد نورا تهتز وهي تقلب صفحات القرآن ، وأشارت الى آية هذا نصها : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً »

نظرت الى نورا والى شقيقاتي واحدة تلو أخرى ثم استقرت عيناي على وجه (تهاني) الذي بدا عليه الشحوب فقد تبددت كافة الامال بالنسبة الى صديقتها سميرة .

وتحدثت سارة قائلة : « لا يستطيع أحد مساعدتها فقد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه بهذا العقاب » ولم تكن سميرة فاسقة وكل ما في الامر أنها أحبت رجلاً غربياً (مسيحياً) .

وكان أهل سميرة ورجال الدين قد حكموا عليها قبل يوم بالسجن حتى الموت ، وكانت في الثانية والعشرين من عمرها وبالتالي سيطول عذابها .

وخلاصة قصتها أنها أثناء دراستها في لندن قابلت وأحبت رجلاً مسيحياً . ونحن نتعلم منذ الطفولة بأن المرأة المسلمة ترتكب خطيئة كبرى إذا أحبت أو عاشرت أو تزوجت شخصاً غير مسلم لأن أبناءها في هذه الحالة سيتبعون دين والدهم .

وبما أن الاسلام هو اخر رسالة سماوية فهو الاولى بالاتباع ، لكن الرجل المسلم يستطيع الزواج من غير المسلمات دون أية مضاعفات طالما أن أبناءه سيكونون مسلمين حتماً .

كانت سميرة من أعز صديقات تهاني منذ سن الثامنة وهي وحيدة والديها لأن أمها مرضت بعد ولادتها بسرطان الرحم وتم استئصال الرحم وبالتالي لم يعد بإمكانها الانجاب ومع ذلك لم

يطلقها زوجها كما هي العادة في السعودية .

وأنا أعرف مع شقيقاتي عدداً كبيراً من النساء تم طلاقهن لأنهن مرضن ، وإذا لم يكن أبناء المطلقة في رحلة الرضاعة يحتفظ بهم الوالد ، وإذا كانت المطلقة محظوظة فإن والديها يستقبلنها في البيت أو تذهب الى منزل ابنها الاكبر إذا كان لها مثل هذا الابن . واذا لم يستقبلها والدها أو ابنها فانها تضطر للذهاب الى ملجأ بني خصيصاً لهكذا نساء ، وإذا كانت المطلقة ثرية أو فائقة الجمال فإنها قد تتزوج ثانية ، ومهما كان سبب الطلاق تكون المرأة هي المتهمة وموضع اللوم . وكانت والدة سميرة احدى المحظوظات القليلات اذ ان زوجها يحبها فعلاً ولم يفكر بطلاقها بل انه لم يتزوج عليها لإنجاب ذرية من الذكور ... ولذلك يعتبر والد سميرة عينة غريبة في المجتمع السعودي . ولأن صداقة تهاني بسميرة حميمة فقد كنت مع سارة نلعب معها أيضاً في الطفولة ونحسدها من عدة نواح ومن ذلك أن والدها يحبها جداً بصفتها ابنته الوحيدة ولأنه منفتح بعكس الرجال السعوديين الاخرين فقد وعدها بأن تكون حرة من التقاليد المفروضة على النساء في بلادنا .

وشعرت سميرة بالامنا لخيبة أملنا بوالدنا ، وكانت تتعاطف معنا على الدوام بل أنها بكت في زواج سارة ، وها هي لأنها سجينة في غرفة مظلمة لا يستطيع التحدث معها حتى الخدم لأنها محرومة حتى من سماع أصوات الادميين ويقدم لها الطعام على صينية من تحت الباب

كانت ورطتها كبيرة ، وقلت لسارة لعل كريم وأسد يستطيعان مساعدتها ... وانفرجت أسارير تهاني لسماع هذه العبارة . وهزت سارة رأسها نفياً قائلة أن أسداً استفسر عن الموضوع وأن أحداً لا يستطيع رفع العقوبة عنها .

لقد قررت سميرة في العام الذي تزوجت فيه أن تدرس الهندسة ، وهي مهنة لم تدرسها أي امرأة سعودية ، وتنحصر دراسات

السعوديات على طب الاطفال والطب النسائي ومهنة التعليم أو العمل في الحقل الاجتماعي . وبالاضافة الى ذلك يحظر على الاناث السعوديات الاحتكاك بالاساتذة ، غير أن والد سميرة استخدم أستاذاً انكليزياً أحضره من لندن لتعليم ابنته في البيت ، وبعد سنتين من الدراسة والتركيز قبلتها كلية فنية في لندن ، فرافقها والدها الى هناك وهو فخور بذكائها وجمالها .

ووجد والدها في لندن منزلاً خاصاً واستخدم لها خادمتين هنديتين وسكرتيرة مصرية كن يعشن جميعاً مع ابنته في ذلك المنزل ، ثم ودع ابنته وعاد الى الرياض ولم يدر بخلده أو خلد زوجته (التي رافقته الى لندن) بأنهما لن يشاهدا سميرة مرة أخرى ... ومضت الشهور وأظهرت سميرة كما توقعنا نباهة وذكاء . وفي الشهر الرابع من اقامتها في لندن قابلت سميرة شاباً أميركياً يدعى لاري ، أشقر وطويل الجسم بينما كانت سميرة نحيفة ومعقدة بسبب الاجواء القمعية في بلادنا .

وكتبت إليّ تهاني آنذاك عن حبها قائلة أنها تشعر بالاسى لتحريم الزواج من مسيحي . ذلك أن لاري مسيحي يرفض اعتناق الاسلام .

وبعد فترة تلقت تهاني رسالة اخرى من سميرة جاء فيها أنها قررت العيش معه لأنها لا تحتمل فراقه وأنها ستهرب معه الى أمريكا وتتزوجه هناك . وباستطاعة والديها شراء بيت لهما قربها في أمريكا . وكانت على قناعة بأن فعلتها المقترحة لن تؤثر على علاقاتها بأسرتها وكل ما في الامر أنها ستفقد الجنسية السعودية وتحصل على جنسية أمريكية ، ولن يكون باستطاعتها بعد ذلك العودة الى السعودية بسبب زواجها من غير مسلم .

وما يبعث على الاسف أن والدي سميرة لم يعرفا شيئا عن ورطة أبنتهما لأنهما توفيا مع سائقهما بعد صدام سيارتها بصهريج ماء وسط الرياض .

وعنـدما يمـوت رب الاسرة في العـالم الاسلامي يضطلع شقيقـه الاكبر بمهمات وشـؤون أسرتـه ، وبعـد وفـاة والـد سميرة ، أصبح شقيقه الاكبر هو ولي أمرها .

ونادراً ما يتشـابه الاشقاء في طباعهم .... فبينما كـان يمتاز والد سميرة بالتسامح والانفتاح كان شقيقـه من النوع الصارم والمتشدد وينتقد استقلال سميرة والحريات الواسعة التي منحها لها والدها بل أنه قاطعه منذ أن التحقت سميرة بكلية في لندن .

وكـان عم سميرة ضد تعليـم البنات وان الافضل لهن الـزواج في سن مبكرة عن رجل كبير وحكيم . بل انه نفسـه تزوج من مراهقة في الثالثة عشرة وهي ابنة رجل يشبهه في أفكاره ومعتقداته .

ولعـم سميرة أربع بنات وثـلاثة أولاد وقـد زوج بناتـه في سن مبكرة .

وفي اليوم التالي لـوفاة والدي سميرة تلقت برقيـة من عمها أبلغها فيها الحادث المؤسف وطلب منهـا العودة فوراً الى الرياض مـع كافة ممتلكاتها . وبسبب خشيتهـا من قسوة عمها وصعوبـة الحياة تحت رقابته الصـارمة استجمعت شجاعتها وقـررت المضي في خطتها التي كانت خطأ فادحاً . ذلك أنها هـربت مع لاري إلى كاليفورنيا . والتهبت مشـاعر العم لعـدم طاعتهـا ، ولم يكن يعرف آنـذاك بوجـود عشيق أجنبي ومسيحي اسمـه لاري ، كما أنـه لم يفهم سبب تمرد سميرة سيما وأنه اعتاد على الطاعة المطلقة من الاناث.

وفي نهاية الشهر ومع عـدم وجود أية معلومـات عن مكانها اعتقد العم انها ربما مـاتت ودفنت في بلاد الكفـار ، وزاد اهتمامه بـالعثور عليها ، ونتيجة الحاح ابنـة الاكبر استخدم محققا خاصـاً لتقصي أثار ابنـة شقيقته . وذات صبـاح حضر عم سميرة مـدججاً بـالغضب الى قصر تهاني وفي يده تقرير المحقق الخاص وطلـب من شقيقته أن تدله على عنوان سميرة الفاسقة لأنها صديقتها ولا بد ان تعرف عنوانها .

ودهشت سميرة لشدة غضبه وهو يضرب رأسه بالجدار ويسأل الله مساعدته على قتل ابنة شقيقه وهدد بالثأر من عشيقها الكافر ولعن اليوم الذي ولدت فيه سميرة لأنها لطخت شرف العائلة لعدة أجيال .

وهربت تهاني من ثورة غضبه الى مكتب زوجها حبيب فعاد معها الى القصر ولم يجدا عم سميرة الذي هدد الخدم قبل مغادرته بأنه سيقتل أي شخص يأويها ... وذهب حبيب يبحث عن عمها حتى وجده وهدأ فورة غضبه وأكد له بأن ابنة شقيقه ليست على اتصال مع تهاني .

أما سميرة فكانت وحيدة في بلاد بعيدة لا تعرف بأن عمها يبذل جهوده لمعرفة مكانها وأنه يستولي على بريد أعضاء الاسرة وكان قد أرعب أفراد الاسرة بأنه سينزل عقاباً شديداً في كل شخص تتصل به سميرة ولا يجده ... وكان لا بد لسميرة من الاتصال مع أحد أقاربها .

في غضون ذلك تبين أن لاري غير واثق من حبه لسميرة وبالتالي أصبحت سميرة كالضائعة بعد ان خدعها لاري واتصلت مع تهاني وأبلغتها بمخاوفها من المستقبل وأنها لا تملك ما يكفي من المال ولا يوجد لها أصدقاء في أمريكا ... وطالما أنها لم تتزوج لاري فان السلطات الامريكية ستطلب منها مغادرة البلاد ... ومع ان حبيب لم يمنع تهاني من التحدث مع صديقتها سميرة لكنه رفض طلب زوجته بإرسال بعض المال لها .

وشعرت سميرة باليأس فاتصلت مع عمتها الصغرى ، وخشيت هذه العمة من شقيقها الصارم فأخبرته بالمكالمة وخططت معه لعودتها الى الرياض .

طلبت العمة من سميرة التوجه الى القاهرة مع وعد بعودتها الى الاسرة بسلام . وأرسلت لها ما يكفي لعودتها . واتصلت سميرة مع

تهاني وأخبرتها انها مضطرة للعـودة وليس أمامها خيـار آخر لأنها اتصلت بـالسفـارات السعـوديـة في واشنطـن ولنـدن لكن مـوظفي السفارات لم يتعـاطفوا معها وكـان الجميع يطلبون منهـا العودة الى السعودية ....وقـالت سميرة أن عماتها أخبرنها بأن موقف عمها لان بعض الشيء وأنه يوافق على عودتها لاكمال دراستها في لندن ... وانها تأمل أن يعاملها عمها بلطف لأنها وحيدة والدين متوفيين .. ولم تجد تهاني أي فائدة في تحذيرها لأن موقـف سميرة كان يائساً ومضطرة للعودة رغم أي تحذير .

وفي مطـار القاهـرة استقبلها اثنـان أبناء عمهـا وعمتان ، وهـدءا روعها بـالحديث عن عودتها الى لندن بعد ان تصلح الامـر مع عمها ، فعـادت معهم الى الريـاض وهـي على قنـاعة بأن الامـور ستسير على مايرام .

وعنـدمـا لم تتلق تهاني مكالمة مـن سميرة شعرت بأن شيئـاً مـا يحدث ، فاتصلت مع أقاربها الذين أبلغوها بأن سميرة مريضة وأنها ستتصل بها حتماً عندما تتحسن صحتها .

وبعـد أسبوعين من عـودتها أجـابت احـدى عمات سميرة قائلـة لتهاني ان سميرة ستتزوج وترغب الا تتصل معها تهاني لأن خطيبها يريد منها التوقف عن الاتصال مع صديقاتها القدامى .

واستطاعت سميرة في النهاية الاتصال مع تهاني . وقالت ان آمالها تبددت منـذ ان شاهدت عمها لـدى عودتها فقد كان ينتظـرها والشر يتطاير من عيونه .

ومنذ عودتها سجنت في غرفتهـا تنتظر حكم عمها ولم يجرؤ أحد من أفراد الاسرة أن يحتج على سوء معـاملته لها .... وهمست لتهاني بأن عمهـا سيزوجها خـلال شهر ، وأعـربت عن قلقهـا بهذا الصدد لأنها ليست عـذراء . واستطعنا بعـد ذلك معـرفة شيء عن تفـاصيل الـزواج لأن عمهـا لم يـدع أي شخص من خـارج الاسرة على حفلـة

الـزواج ولم يكن زواجـاً سـاراً على أي حـال لأن العـريس كـان في الخامسة والخمسين وكانت سميرة زوجته الثالثة .

وعـرف حبيب بعض التفاصيل من أحـد أبناء عماتها ، ففي ليلـة الدخلـة رفضت سميرة مواصلة زوجهـا وقاومته بكل قـوتها وكان زوجها قصيراً وسميناً لكنه ليس قوي البنية واشتبك معهـا في قتال حقيقي يحاول اغتصابها وسال شيء من الدم ليس منها بل من الزوج الاحمق الذي أعتقد أنه دم بكارتها لأنه في خضم القتال لم يفكر تمييز الدم ومعرفة مصدره .

وفي وقت لاحق سألت تهاني عمـة سميرة التي أعربت عن أسفهـا للدور الذي اضطلعت به لخداع ابنة شقيقها ... وقالت العمة أن الزوج في البداية أعجب بسميرة رغم شراستها وسـوء معاملتها له ، لكنه مع الـوقت شعـر بأنها تحتقـره وتنظر لـه نظـرة فـوقية وتصـارحـه بكراهيتها لـه بل انها اعترفت له بتجاربها السابقـة وأنه يعتبر صفراً بين الرجال وأنها أحبت أمريكيا ونامت معه .

عند ذلك قرر الزوج الطلاق وطلقها دون مراسم وأعادها الى عمها وأخبره بكل مـا قالتـه لـه سميرة عن تجاربها وبـالتالي فـان سميرة وأسرتها بلا شرف .

وثار غضب العم مـرة أخرى وعلى نحـو أشد من السـابق فاتخذ قراراً بسجنها في غـرفة منعزلة خاصة وأن مطلقهـا أقسم أمام عمها بأنه سيخبر الجميع بسلوك سميرة المشين مـالم يتأكد بأن العم أنزل فيها عقاباً صارماً .

وقال حبيب لتهـاني أن سميرة حكمت بالسجن في (غـرفة المرأة) وهي عقوبة بالغة القسوة . اذ ان العم حول غرفة صغيرة فوق سطح بيته الى سجن بعـد أن أغلق نوافـذها وعـزل جدرانها بحيث لا تسمع استغاثاتها ، ووضـع للغرفة بـاب خاص بحيث يتم ادخال الطعام لها من تحت الباب كما تم بناء دورة مياه صغيرة للتخلص من الفضلات

وكان العم قد أخبر العمال الـذين جهزوا الغرفة بأن الغـرفة ستأوي أحد أفراد الاسرة المجانين .

وحاولت مع شقيقاتي التسريـة عن تهاني لمصير صديقتها ، وكنا جميعـاً نشعـر بـالاسى والالم لهذا المصير ان سميرة سعـوديـة كالسعوديات الاخريات اللواتي لا يملكن حولا ولا قوة أمام هذا الظلم والاجحاف .

وبينما كنت أفكر بعدة خطط لانقاذها كانت شقيقاتي يدركن أبعاد الموقف بوضوح ، فقـد سمعن قصصاً كثيرة كقصة سميرة وكن على قناعة باستحالة انقاذ سميرة أو أي امرأة في مثل وضعها .

وجفاني النـوم عدة ليـال متتاليـة مع شعور بـاليأس والقنوط ، وكنت أيضـاً قد سمعت شائعـات عن نساء حكمت عليهـن عائلاتهن بالسجن في (غرفة المرأة) لكنني لم أتصـور أن تتعرض امرأة أعرفها تجسـد الحيـاة والامل لمثل هذا العقـاب الـلاإنسـاني حيث لا تسمع السجينة صوتا ولا ترى انساناً .

واستيقظت ذات ليلـة من كابـوس . كـانت سميرة عاريـة تصيح وتستغيث بي من خلف قضبان حـديدية صدئة . وفكـرت متساءلة : هل هناك قوة في الارض تستطيع اطلاق سراحها ؟ وأجبت على نفسي . بأن أحداً غير الله تعالى لا يستطيع تحرير سميرة .

زوجة ثانية

يوم الخميس الثامن والعشرون من آب ١٩٨٠ لا يمكن ان انساه، كنت قد عدت مع كريم الى الرياض من الطائف.وتمددت على مقعد وثير بينما كانت خادمة فليبينية تدلك ساقي، وكان اطفالنا الثلاثة في مخيم في دبي في الامارات العربية وكنت اشعر بالضجر والملل لعدم وجودهم.

ونظرت الى كومة الصحف التي تراكمت خلال غيبتنا طيلة شهرين، ولفت انتباهي عنوان فقفزت وتناولت الصحيفة وقرأت ان احد اقاربنا وهو الامير خالد الفيصل حاكم منطقة عسير قد اتخذ اجراءات للحد من كلفة ونفقات الزواج في منطقة وذلك بتحديد قيمة المهر الذي يدفعه العريس الى اهل العروس.

وحدد الامير خالد السقف الاعلى للمهر ب (٢٥) الف دريال سعودي «اي زهاء سبعة الاف دولار» وقالت الصحيفة بأن الشباب في عسير ابتهجوا لهذا القرار لان المعدل الوسطي للمهر في ذلك العام ١٩٨٠ كان مائة الف ريال سعودي «اي ٢٧ الف دولار» ولا شك أنه سيصبح في مقدور كثيرين من الشبان السعوديين الزواج نتيجة لهذا القرار.

وابلغت الخادمة الفليبينية بمضمون الخبر فلم تهتم به لانها غير معنية بمأساة النساء السعوديات اللواتي يتم بيعهن وشراؤهن كأي بضاعة، ثم ان الفليبنيات او معظمهن غير معنيات سوى ببكائهن ويعتقدن بأننا محظوظات للراحة التي نتمتع بها والاموال التي نملكها وننفقها كيف نشاء.

وبصفتي اما لطفلتين، لا أهتم بسعر العروس، وعندما يحين وقت زواج بناتي فان السعر لا يعنيني وكان كريم يزداد غنى وثروة ولم

تستطع الامـوال ان تخلصني من احبـاطـاتي شبـه اليـوميـة، لكني لاحظت تـوجهات رجعيـة في رجال اسرتي. في محيـط بيوتنـا كانـوا يتحدثـون عن تحرير المرأة اما في القـوانين والاوامر الـرسمية التي كانوا يكتبونها فقد كانوا يميلون بوضوح للحفاظ على الامر الواقع بل واعادة النساء الى العصر الحجري.

وكنت من دعاة الغـاء المهر او تقليصه ليصبح مبلغا رمـزيا، فألى متى سيستمر بيع وشراء المرأة وكأنها بضاعة كأي بضاعة اخرى في السوق؟

وبدأت اشعـر بالنرفزة لان كـافة شيقيقاتي باستثنـاء سارة كن خارج البلاد، وكانت شقيقتي العزيزة في الاسابيع الاخيرة من حملها الرابع، وبالتالي تنام معظم النهـار.. واعتقدت بأني لم انجز شيئا من طموحـاتي قبل الزواج بـل اني اعيش حياة روتينيـة تقليديـة كبقية الاميرات.

ولأن الخادمات كن مسـؤولات عن اطعام الاطفال وجبـة الافطار والاشراف عليهم بقيـة اليـوم كنت انـام حتى الظهيرة حيث استيقظ اواتناول كوبـا او اكثر من عصير الفواكه ثم اغطس في البـانيو اتمتع بالمياه الدافئة.

وبعـد ارتـداء ملابسي أنضم الى كـريم او الى شقيقـاتي «اذا كـان مشغولا» لتناول وجبة الغـذاء.. ثم نستلقي او نقرأ بعد الغذاء وربما نغفو قليلا.. وبعد ذلك يذهب كـريم الى مكتبه او يزور اقاربه الامراء بينما امضي بضع ساعات مع الاطفال.

كنت احضر حفلات نسائية بعـد العصر واعود للقصر قبل الثامنة او التاسعـة مساء على الاكثـر، وسبق ان اتفقت مع كريـم على تناول وجبة العشاء مع اولادنا بشكل يـومـي حتى نعرف ماذا فعلوا في ذلك اليوم، وفي كثير من الاحيان نحضر حفلات عشاء مع نخبة من الامراء والاميرات في حفـلات مختلطـة وربما يحضر مثل هـذه الحفـلات

شخصيات اجنبية مهمة كوزراء خارجية واثرياء سعوديين من غير الاسرة المالكة. ولعدم وجود حريات اجتماعية في السعودية قررنا نحن الجيل الشاب التمتع بهذا الحريات بالقوة. وكنا نعرف ان رجال الدين يتمزقون حنقا وغضبا من اجتماعاتنا المختلطة لكنهم لم يحاولوا الضغط على الملك خالد بن عبدالعزيز.

وكانت النساء في مثل هذه الاجتماعات يرتدين افخر الملابس مع اغلى المجوهرات، وكثيرا ما كنت اسهر مع كريم خارج المنزل الى ما بعد منتصف الليل ونادرا ما تغير هذا الروتين الا في حالة وجودنا خارج البلاد.

وكنت اتساءل: أهذا هو كل ما في الحياة؟ ولم استطع تجاهل الحقيقة اكثر من ذلك، فلقد تحولت انا سلطانة الى امرأة سعودية غبية عادية.. وصرت اكره كسلي والحياة الرافهة التي اعيشها لكني لم اكن اعرف ماذا افعل حتى اتخلص من الضجر والسأم.

بعد تدليك ساقاي من قبل خادمة او اكثر.. كنت اتمشى في الحديقة وكانت حديقة نورا مرجعا لي في ترتيب حيقة قصرنا الواسعة.. وكنت اشعر بالسكينة وانا اتمشى في ظلال اشجار الحديقة التي يشرف عليها عدد من الخدم السريلانكيين.

فنحن نعيش وسط صحراء، بيد ان قصورنا كالواحات محاطة بحدائق خضراء ندفع على تنظيمها وريها مبالغ طائلة . ويستطيع السعودي الثري ان ينعم بجو مريح وان يهرب من رمال الصحراء التي كادت ان تطمرنا.. وكانت الصحراء تزحف على قرانا ومدننا ولعلها كانت ستنتصر علينا لولا الثروات التي هطبت علينا من النفط.

جلست استريح في كوخ بنيناه خصيصا لابنتنا الكبرى «مها» التي ستحتفل بعيد ميلادها الخامس، وهي بنت حالمة تمضي ساعات طويلة في ساحة مغطاة بالدوالي تلعب العابا معقدة مع صديقات وهميات.. كانت تذكرني بطفولتي لكنها غير متمردة مثلي لحسن

حظها فقد كانت موضع حب وحنان والدها.

ونظرت الى الزهور المتدلية قرب كوخ مها ورأيت العابها المختلفة مبعثرة دون ترتيب وابتسمت وانا اتذكر شقيقتها الاصغر «امينة» وهي في الثالثة من عمرها لكنها مرتبة ومنظمة مثل خالتها سارة.

ومع تفكيري باولادي.. عاودني الشعور بالاحباط لكني شكرت الله لأنه رزقني ابنا بصحة جيدة وبنتين،ومع ذلك ترقرت الدموع من عيني عندما تذكرت حقيقة انني لن انجب غير هؤلاء الاطفال.

فقبل عام خلال فحص روتيني في مستشفى الملك فيصل ومركز الابحاث التابع له قال الاطباء بأني مصابة بسرطان الثدي، وصعقت مع كريم من التشخيص لاعتقادنا بأن هذا المرض لا يصيب غير الطاعنات في السن، ولم اصب في حياتي كلها بأي مرض وكانت ولادتي تتم بسهولة. المهم ان الاطباء اكدوا لي بأن مرضي غير قاتل وقاموا باستئصال احد نهدي وحذروني من الحمل مرة اخرى.

وكخطوة احترازية من الحمل قررت مع كريم ازالة الرحم وذلك لخشيتي من الموت وعدم الاشراف على تنشئة اولادي، وفي بلادنا لا تتوقف النساء عن حمل الاولاد الا بعد ان تعجز اجسادهن فسيولوجيا عن ذلك.

وعلى نحو مفاجىء قطع صوت كريم افكاري وراقبته وهو يقترب مني فوق حشائش الحديقة، وكنا قد تناقشنا غير مرة خلال العام الماضي حول هذا الموضوع وقررت ان ادخل السرور والبهجة الى قلب زوجي الذي يزداد حبي له وابتسمت له وهو يتقدم نحوي بجسده الرياضي، لكني شاهدت على وجهه عندما اقترب سحابة سوداء، وفكرت في الاحتمالات لأني اعرف مزاج زوجي، لأنه سيتردد قبل ابلاغي بهمومه واشرت له ان يجلس الى جانبي، لكنه جلس مقابلي ولم يرد على ابتساماتي الترحيبية،وفكرت ان يكون اطفالنا قد تعرضوا للاذى فنهضت وسألته ماذا هناك؟ ويبدو انه دهش لأني توقعت

شيئا يدعـو للتشـاؤم.. وعند ذلك نطق كريم بكلمات مـا كنت اتوقعها في حياتي منــه حيث قال: «لقـد اتخذت قرارا يا سلطــانة .. انــه قرار صعب لم ابحثه معك منذ عدة اشهـر لانك كنت مريضـة.. ومهما كان الامـر ستظلين اهم امـرأة في حياتي وقلبـي... انا رجل يـا سلطــاني واستطيع اعـالة اطفال كثيرين واريـد عشرة او عشرين طفلا ولـذلك سأتـزوج.. وهدفي هـو انجاب الاولاد امـا الحب فيظل مقتصرا عليك وحدك»

ولم اعد اسمع شيئا وها هي الحقيقة المريرة تنفتح على مصراعيها مع اني كنت استبعد مثل هذا القرار بل ولم يخطر على بالي.

انتظر كريم حتى يـرى ردة فعلي، ولم استطع الحراك في البداية.. ثم استجمعت قـواي وتذركت كل كلمـة قالها فهجمت عليـه في فورة غضب حقيقي ووقعت معه ارضا وبـدأت أركله واضربه بيديّ.. كنت احـاول ان اقتله. وحـاول كريـم تخليص نفسه. لكن بسبب جنـوني المفاجىء ازدادت قواي الجسدية، وحتى يـوقفني كريم عن مواصلة ضربه وركله لكمني على وجهي وبدأت اصرخ وأشتمـه شتائم مقذعة بل وبصقت في وجهه وكان مشدوها من فورة غضبي.

واخيرا خيم الصمت علينـــا.. وطلبت مـن كـريـم ان يطلقني فلن اتحمل الاهــانــة.. وزواجه من اخـرى اكبر اهــانة لي وقــال كـريم ان الطـلاق ليس موضـع بحث الا وافقت على ان تقـوم زوجتـه الثانيـة بتربية اطفالنا لانه لا يمكن ان يتخلى عنهم.

وتأملت في حياتي وهذا العالم فهـا هو كريم يتخلى عن المبادىء في سبيل المزيد من الاولاد انه لا يختلف عن السعـوديين في اعماله.. وأنا لا استطيع ان اتحمل زواجه عليّ.

ويستطيع كريم ان يخدعني بكلامه المعسول لكني اعرف معنى ان يتزوج علي ونتـائج هذا الـزواج، ان حافـزه على الزواج الثـاني ليس رغبتـه في المزيد من الاطفـال، بلا لأنــه يـريد التغيير فقـد مضى على

زواجنا ثمان سنوات ومن الواضح انـه مل من عشرتي ويريد تغيير الوجبة التي يتعاطاها منذ ثماني سنوات.

وازداد غضبي عندما فكرت بأن كريم يستغلني .. ثم قلت في نفسي ولماذا لا اقبل مشيئة الله؟ ونظـرت الى كريم وطلبت منـه ان يغرب عن وجهي لأني لن أتردد بعد ان عن ارتكاب جريمة قتل

ولأول مرة في حيـاتي شعرت بكراهيـة عميقة نحـو زوجي، فلقد كان مظهره لطيفـا وطيبا اما في باطنه فكان انـانيا ومخادعا... ورغم عشرتنا طيلـة ثماني سنوات شعرت بأنـه غريب عني وإني لا اعـرفه اطلاقا.

وراقبته وهو يبتعد عني مطاطىء الرأس... واستغربت كيف كنت احبه قبل اقل من سـاعة.. ثم فكرت بأن كـريم يظل افضل من رجال كثيرين في بلادنا لكنه للاسف لا يختلف عنهم في النهاية.

ولعل الاسوأ من ذلك كله ان باستطاعته ان يهدد المرأة التي حملت اطفاله... فقد هددني بحرماني منهم وانـاطة مهمة تربيتهم بزوجته الثانيـة اذا طلبت الطلاق.. وهذا مـا يذكـرني بسيطرة الذكـور علينا وبشكل ظالم.

وبدأت افكر في خطة، وشعرت بالشفقـة عليه، لأنه سيجد صعوبة في تجريدي من اولادي.. انه لن يتفوق عليّ في هذا الصدد.

الهــروب

بعكس معظم السعـوديين يحتفظ كـريم بجـوازات سفر أسرتـه وبعض الاوراق في مكان يسهل الوصول اليـه . كما كنت أجيد تزوير توقيعه أما خاتمه الشخصي فكان على الدوام فوق مكتبه في البيت .

بعد أن جمعت أفكـاري عدت الى البيت ولم أجد كـريماً وهذا يعني أنه جبان أيضاً ، وكنت على يقين بأنـه سيقيم في منزل والده تلك الليلة وربما عدة ليال أخرى .

وفكرت فجأة بحماتي نورا والتهب غضبي لايماني بأنها ستشعر بـالسرور الان وربما تكـون هي التي دفعتـه لقرار الـزواج ولعلهـا اختارت لـه أيضاً الزوجـة الجديدة ، وحتى تلك اللحظـة لم أفكر بمن تكـون الـزوجة الجديـدة لكنها مـن المؤكد احـدى بنات العمـومة أو العمات .

حـزمت أمتعتي بهدوء وأفرغت القـاصة وكـان فيها مئـات الاف الدولارات . فلقد كان كريم مثل معظم أفراد الاسرة المالكة يتحوط من احتمالات ثورة مفـاجئة في البـلاد ، وسبق أن بحثنا خططـه في انقاذ حياتنا فيما إذا اندلعت ثورة شعبية الاطاحة بالنظام .

وبعـد أن جمعت ثـروتي من المجوهـرات في حقيبـةصغيرة هيأت أوراق سفري بسهولة وأصبحت مستعدة ، ولم أكن في وضـع يسمح لي بـالثقــة بأحـد ولا حتى شقيقــاتي لأنهن قـد يخبرن أزواجهن . والرجـال يتضـامنـون مع بعضـهم عـادة . دعوت خادمتــي المخلصة ليقيني بأنها ستكــون أول مـن يستجــوبها كــريم وأخبرتها بأني مسافـرة الـــى جدة لبضعــة أيام ورجـوتها أن تخبر كريم بـذلك إذا سألـها .

واتصلت مع أحـد طيـاري الاسرة وقلت له أننـا سنطير الى جـدة

خلال ساعة وعليه أن يقابلني في المطار كما اتصلت مع خدم بيتنا في جدة وأبلغتهم بأنني سأزور جدة وربما أمر على البيت ، واذا اتصل كريم يريد التحدث معي يتعين عليهم بلاغه عن وجودي في بيت أصدقاء في جدة واني سأرد عليه في أسرع فرصة .

وكان الهدف من اجراءاتي تضليل كريم حتى لا يعرف خططي الحقيقية أطول فترة ممكنة .

وفي طريقي الى المطار دهشت من كثافة حركة السير في شوارع الرياض ذلك الخميس ، فالمدينة تغص بالغرباء لأن السعوديين لا يقبلون العمل في أعمال أو مهن وضيعة وربما يأتي يوم يتمرد فيه هؤلاء العمال الاجانب علينا ويلقون بجثث السعوديين الى الكلاب الجائعة .

وعندما شاهدني الطيار الامريكي أسير باتجاهه لوح بيده ، فقد سبق أن طار بنا في عدة رحلات وكان يذكرني بالطيارين الامريكيين اللذين سبق ان طارا بي برفقة والدتي الى جدة عندما كانت سارة في المستشفى قبل سنوات .

صعدت الى الطائرة وأبلغت الطيار بأن الخطة تغيرت . ذلك ان أحد أطفالنا مريض في دبي وأن كريم اتصل بي وطلب مني الذهاب الى دبي بدل جدة وأنه سيلحق بي اذا كانت حالة الطفل خطرة .

وقلت للطيار أننا نأمل أن يكون المرض عابراً . وبدون أن يسألني غير الطيار اتجاه الرحلة . وكان يعرفنا منذ عدة سنوات ويشعر بسعادتنا وبالتالي لم يكن هناك ما يدعوه للريبة .

وصلنا الى دبي وطلبت من الطيار أن يقيم في فندقه التقليدي وهو فندق شيراتون دبي وقلت له أني سأتصل به غداً أو بعد غد لابلاغه بخططي الجديدة ، وأن يعتبر نفسه مجازاً وزعمت له أن كريم أخبرني بأنه لن يحتاجه ولن يحتاج الطائرة طيلة الاسبوع . وفرح الاطفال كثيراً لدى مشاهدتي . وهز مدير (المخيم الصيفي)

الانكليزي رأسه في تعاطف واضح عندما أبلغته بأن جدة الاطفال على فراش الموت وبأني سآخذ الاولاد معي الى الرياض فوراً .... فأسرع الى مكتبه يبحث عن جوازات سفر أولادي .

عندما صافحت المدير مودعة لفت انتباهي بأني لم أستطع العثور على الخادمات اللواتي رافقن أولادي الى دبي ، وانهن غير موجودات في غرفتهن وربما يكن في غرفة الطعام وزجوته أن يدعوهن في الصباح ويخبرهن بأن الطيار (جويل) سينتظرهن في فندق شيراتون دبي ويتعين عليهم الذهاب الى هناك وتسليم الطيار هذه الملاحظة .....وناولت المدير مغلفاً معنوناً الى الطيار الامريكي .

كانت الملاحظة اعتذاراً للطيار لأني خدعته ، وأرفقت بها رسالة الى كريم أكدت له فيها بأن الطيار بريء واني خدعته ، كنت على يقين بأن كريماً سيغضب جداً من الطيار لكنه عندما يعرف الحقيقة سيهدأ سيما وأنه يحب الطيار جويل ... والمهم ألا يفقد الطيار عمله بسببي .

ورافقت أولادي في سيارة ليموزين الى المطار وحجزت على طائرة متجهة مباشرة الى لندن ... وكان الاطفال في حالة نعاس ولم يوجهوا الكثير من الاسئلة بعد أن أبلغتهم بأنهم سيبتهجون في نهاية الرحلة.

نام الاطفال وبدأت أقلب صفحات مجلة وأنا أفكر في خططي التالية بحذر واحتراس لأن ما تبقى من حياتي يعتمد على أحداث الاسابيع التالية ... وبدأت أشعر تدريجياً أن شخصاً ما يراقبني ... فهل اكتشف كريم عملية هروبي ؟

ونظرت الى خلفي ... كان ثمة امرأة عربية في الثلاثين من عمرها تقريباً تحدق بي وكان في حضنها طفل في الثالثة أو الرابعة من العمر ... وشعرت بالطمأنينة لأن المتطفل الذي شعرت به هو امرأة وأم والسعوديون عادة لا يستخدمون الامهات . غير أن نظراتها الي اركبتني .... فقمت وجلست الى جانبها وسألتها عن شأنها وهل سبق أن أسأت اليها ؟

فنظرت الى بوجهها الصخري وقالت بحدة : « لقد كنت في المطار عندما حضرت مع أطفالك واصطدمت بي وبطفلي وأنت في طريقك الى الكاونتر لحجز التذاكر ... وأنتم السعوديون تعتقدون أن بإمكانكم شراء العالم كله .

كنت أشعر بإرهاق شديد ، وقد دهشت ربما أكثر من المرأة عندما سالت دموعي وأجهشت في البكاء وأنا أربت على كتفها واعتذر لها وقلت ان ثمة مأساة في حياتي وكان الحجز على هذه الرحلة في منتهى الاهمية ولذلك لم أرها عندما اصطدمت بها وعدت الى مقعدي وأنا أبكي .

ويبدو ان المرأة من النوع العاطفي لأنها سرعان ما وضعت طفلتها على المقعد وأتت وركعت الى جانب مقعدي . وأشحت بوجهي عنها لكنها اقتربت أكثر قائلة :« أرجوك أنا أعتذر أيضاً ولدي مأساة كبيرة ... فاذا أخبرتك بما حدث لابنتي في بلادك فإنك ستعرفين سبب مرارتي من السعوديين » .

ولأني تعرضت لمشاكل في حياتي ربما أكثر من أي انسان لم أشعر برغبة في سماع مظلمة أو مأساة جديدة . فقلت لها : « آسفة » ويبدو أنها اعتقدت بأني على حافة الهستيريا ، ولذلك تركتني .

لكن المرأة كانت مصرة على اعلان ما حدث .... وقبل أن تنتهي الرحلة عرفت سبب يأسها وبعد أن سمعت قصتها ازدادت مرارتي من المجتمع الابوي الذكوري الذي يعرض الاناث وحتى الاطفال للخطر سواء كانوا سعوديين أو أجانب .

اسم المرأة وداد وهي من لبنان وبسبب الحرب الاهلية في بلادها حضرت الى السعودية للبحث عن عمل . وكان زوجها محظوظاً وتم استخدامه كمدير تنفيذي في احدى الشركات الكبرى في الرياض ... وبعد أن شعر بالاستقرار أحضر زوجته وطفلته للعيش معه .

وقنعت وداد بحياتها في الرياض ولم تفكر بالعودة الى بلادها

لتصاعد الحرب الاهلية فيها ، واستأجر زوجها بيتاً مستقلاً وأثثه . وكان أكثر ما لفت انتباه وداد قلة الجرائم في السعودية . ذلك ان العقوبات صارمة جداً في بلادي فاللص الذي تثبت أدانته يفقد يده أما القاتل أو المغتصب فيفقد رأسه .... ولذلك لم تحذر وداد ابنتها من الغرباء .

وقبل شهرين كانت وداد قد أقامت حفلة صغيرة لمجموعة من صديقاتها وقدمت لهن مرطبات ولعبن بأوراق الشدة ، بينما لعبت ابنة وداد مع بنات الصديقات .

وبعد أن غادر الضيوف بيتها بدأت تساعد خادمتيها على تنظيف البيت استعداداً لاستقبال زوجها ،وقرع جرس الهاتف وبدأت تتحدث مع احدى صديقاتها وطالت المكالمة ولم تشعر بحلول الظلام ... عند ذلك نادت على احدى خادمتيها وطلبت منها احضار البنت من الحديقة . غير ان الخادمة لم تعثر على الطفلة .... وبعد تحريات بالهاتف قالت آخر ضيفة غادرت المنزل أنها شاهدت الطفلة جالسة في الحديقة وبيدها دميتها . وعاد زوج وداد وبدأ البحث في منازل الجيران . غير أن أحداً لم ير الطفلة .

بعد أسابيع من البحث اعتقدت وداد وزوجها أن طفلتهما الوحيدة قد اختطفت والارجح أنها وجدت أنها لا تستطيع مواصلة حياتها في الرياض فعادت الى لبنان بينما ظل زوجها في الرياض لتأمين معيشة أسرته .

بعد يومين على وصولها الى بيروت سمعت صوتاً عالياً ودقاً على الباب وخشيت أن يكونوا من المليشيات المتحاربة فلم ترد متظاهرة بعدم وجود أحد في البيت الى أن سمعت صوت جارتها وتقول أن ثمة أخباراً من زوجها في الرياض ففتحت الباب وعرفت من جارتها أن زوجها يطلب منها السفر الى قبرص بواسطة البحر وأن تذهب الى السفارة السعودية فوراً حتى تستلم الفيزا التي عملها لها وأن تعود بأسرع ما يمكن الى الرياض لأن طفلتهما على قيد الحياة وعادت الى

البيت .

وغادرت وداد بزورق الى قبرص من ميناء جونية واستلمت الفيزا وسافرت الى الرياض بالطائرة واستقبلها زوجها في المطار وفي الطريق من المطار الى البيت روى لها القصة . عاد الوالد ذات يوم الى بيته فوجد ابنته عند باب المنزل فعانقها وأخذها الى عيادة طبية حتى يتأكد بأنها لم تتعرض للاغتصاب وهذا ما كان يخشاه وبعد فحص الطفلة كانت المفاجأة كبيرة . إذ أنها لم تتعرض للاغتصاب ولا أي اعتداء جنسي ولكن أجريت لها عملية جراحية استئصلت فيها كليتها ، وكان جرح العملية واضحاً اذ أنه يلتئم وثمة مخاوف من التهاب . وكانت دهشة الاطباء في العيادة كبيرة أيضاً وثارت بينهم عدة تساؤلات حول هذه العملية الغامضة التي لم تتم في السعودية على الارجح لأن الطب لم يكن متقدماً في السعودية آنذاك لاجراء مثل هذه العمليات .

وبدأت الشرطة في التحقيق وخلصوا الى نتيجة وهي أن سعودياً ثرياً أخذ الطفلة الى الهند لأن طفلته بحاجة الى كلية وربما يكون قد اختطف أكثر من طفلة حتى يختار المناسبة بينهن . ولم يستطع أحد متابعة ووصل الاحداث التي أدت الى العملية لأن الطفلة لم تتذكر سوى سيارة سوداء وخرقة ذات رائحة كريهة (مخدر) ورجل كبير وأنها استيقظت تعاني آلاماً شديدة في غرفة معزولة وهناك ممرضة لاتجيد اللغة العربية . وفي يوم اطلاق سراحها تم اغماض عينيها بعصابة وسارت السيارة مسافة طويلة ثم وجدت نفسها أما بيتها . ولا شك أن الشخص الذي خطف الطفلة بالغ الثراء ، لأن الوالد عندما وجد ابنته كان معها دمية كبيرة وفيها (٢٠) ألف دولار وكمية من المجوهرات الثمينة . وكانت وداد تعبر عن احتقارها لبلادي وثرواتها النفطية بحيث أصبح السعوديون يعتقدون بأن ثروتهم تتغلب على كافة عوائق الحياة ... وهكذا يأخذون (أو يسرقون) أجزاء مقدسة من جسد طفلة بريئة ويتركون معها نقوداً ومجوهرات لتهدئة غضب

أهلها ... وعندما لاحظت وداد عدم تصديق لقصتها كشفت عن جرح ابنتها الذي كان مثلا صارخاً على المستوى الاخلاقي الوضيع الذي بلغه بعض الرجال في بلادي ... وشعرت بالذعر فعلاً .

نظرت وداد الى ابنتها بحب واشفاق وقالت لي بلهجة ودية :« أنا أتعاطف معك لأنك امرأة سعودية لأني أعرف طراز الحياة التي تعيشها السعوديات ... ولا شك ان المال قد يسهل حياتكن لكن أحداً لا يستطيع احتمال الرجال السعوديين » وصمتت قليلاً ثم أضافت بتأثر : « صحيح ان الحاجة الى المال تدفع الكثيرين للسفر الى السعودية بحثاً عن المال غير أن الجميع بلا استثناء يكرهونكم وخاصة الذين عملوا أو ما زالوا يعملون في بلادكم » .

وشاهدت وداد للمرة الاخيرة في مطار لندن تحضن ابنتها برفق اذ أنها على موعد مع طبيب بريطاني لفحص ابنتها وعلاجها وكانت وداد على استعداد لتحمل مخاطر الحرب الاهلية في بلادها على أن تعود الى بلادي .

بقيت مع أولادي ليلة في لندن ثم سافرت بحراً الى فرنسا ومن هناك بالقطار الى زوريخ . وتركت أطفالي بضع ساعات في الفندق حيث ذهبت لسحب رصيد ابني من البنك . وأخذت المبلغ وهو ستة ملايين دولار شيكاً وليس نقداً وعند ذلك شعرت باطمئنان اضافي .

استأجرت سيارة وسائقاً حتى يأخذنا الى جنيف ومن هناك عدت بالطائرة الى لندن ومن هناك الى جزر قنال المانش حيث وضعت الشيك في حساب باسمي واحتفظت بالنقود التي أحضرتها معي من قاصة كريم ... ثم طرت مع أولادي الى روما حيث استأجرت سيارة أخرى مع سائقها ليأخذنا الى باريس .

وفي باريس استأجرت حارساً شخصياً وسائقاً وخادمة كما استأجرت باسم مستعار فيلا جميلة في ضواحي باريس وبذلك شعرت بالامان وأن كريم لن يجدنا.

بعد شهر تركت الاطفال في رعاية الخادمة وطرت الى فرانكفورت ، ودخلت بنكاً وزعمت بأني من دبي وأريد أن أضع في البنك وديعة كبيرة . فرافقني شخص الى مكتب المدير والذي رحب بي مبتسماً ففتحت الحقيبة ووضعت الاوراق المالية على مكتبه . وعندما بدأ يحدق بالنقود قلت له اني احتاج الى أجراء مكالمة هاتفية مع زوجي في الرياض وعلى استعداد لدفع اجرة المكالمة وناولته ورقة من فئة الخمسمائة دولار ... فوقف على قدميه مرحباً ومبتسماً وقال :« على الرحب والسعة تحدثي كما تشائين وأي وقت التي تشائين ... ثم أغلق الباب بعد أن أبلغني بأنه سيكون في المكتب الثالث الى اليمين اذا احتجته .

واتصلت مع سارة ... كنت أعرف بأنها ولدت الان والارجح أنها في البيت ، وتنفست الصعداء عندما ردت علي احدى الخادمات وقالت ان سارة في البيت .

وصرخت سارة بسرور عندما سمعت صوتي وسألتها ما اذا كانت خطوط الهاتف مراقبة فقالت انها غير متأكدة من ذلك . وان كريم فقد عقله من شدة قلقه وانه استطاع متابعتي من دبي الى لندن لكنه فقد أثري في لندن ... وأنه أخبر العائلة بما حدث وكان يشعر بأسف عميق وأنه لا يريد شيئاً سوى عودتي مع الاطفال وأنه سيصلح الوضع . طلبت منها أن تنقل له رسالة مختصرة وهي أنه ليس موضع ثقتي وأنه حقير وخسيس ولذلك لن يراني مرة اخرى واني أسعى للحصول على المواطنة مع أولادي في بلاد أخرى .... وعندما أحصل على جنسية أجنبية سأبلغ شقيقاتي عن حياتي الجديدة شريطة ألا يعرف كريم مكاني وبالاضافة الى ذلك طلبت من سارة ابلاغه بأن ابننا عبدالله لا يرغب أيضاً بالاتصال به .

وبذلك شعرت ان موضوع كريم أصبح خلفي ، وسررت لأن سارة أنجبت ولداً جديداً وان بقية أفراد أسرتي في صحة جيدة .... وعلمت منها أن والدي وعلي في فورة غضب وأنهما يصران على

عودتي والامتثـال لرغبـات كريم ، ولم أكن أتوقـع شيئاً غير ذلك من والدي أو علي .

وحاولت سارة تهدئتي وتساءلت أليس من الافضل ان أقبل زواج كريم بزوجة اخرى من أن أعيش حياتي لاجئة ، وسألتها ما اذا كانت تقبل بمثل هذا الترتيب مع أسد فسكتت . بعد ان اتصلت بسارة أعدت النقـود الى حقيبتي وغادرت البنـك دون ان أترك مـلاحظـة للمديـر الجشع . وسررت لنجـاح خطتي لأني كنـت لا أستطيع التحـدث من هاتف عـام لأن المقسم الرئيسي سيعلن اسم الدولـة التي يجري منها الاتصال والـدولة التي يتم الاتصـال بها وربما يكون كـريم قد ربط خطوط شقيقاتي بجهاز مراقبة .

بعد ان استلمت كلمات سارة ضحكت في نفسي ... لأن خطتي أثبتت فعاليتها ... وكنت أريد أن يعاني كـريم المزيد من العذاب والـهموم ... وسيحتاج الى وقت حتـى يدرك بأني أرفض زواجـه من أخرى مهما كان الثمن .

والحقيقة أن الاطفـال لم يعرفوا شيئـاً عن دراما حيـاتنا ، وكنت أخبرتهم بأن والدهم سافر الى الشرق الاقصـى في رحلة عمل طويلة ، وبدل البقـاء في الرياض قرر ان أسـافر معهم لقضاء عطلة طـويلة في الريف الفرنسي.... وكان عبدالله يتساءل لماذا لا يتصل به والده لكني كنت أشغله بدروسه وبنشاطات أخرى ... فالاطفال يتكيفون بسرعة أكثـر مما نتصـور ... أمـا الطفلتان فكن أصغـر من أن يفهمن شيئـاً خـاصة وأنهن سـافـرن كثيراً ، وكـانت الحلقة المفقـودة هي غيـاب والدهن ولذلك بذلت جهدي لتعويضهن عن غياب كريم .

وكنت أسلي نفسي بـدراسـة البـدائل الاخـرى . فحيـاة أطفـالي في الريـاض وسط نزاعي مع زوجـي شيء لا يحتمل ولا أقبله لهم .. كما أن حياتهم بـدوني ستكون غير طبيعية . ولو أن كـريم أحضر زوجة اخرى فـان تفكيري الجدي بقتله أمـر محتمل ، وما حـاجة الاولاد لي وأنا بلا رأس ، لأن رأسي سينفصل عـن جسدي حتماً اذا قتلت كريماً

... ولفترة قصيرة من الـوقت فكـرت بحـد السيـف في يـد الجلاد (يسمونه في السعودية السيـاف) وشعرت بالرعب من احتمال تحقق ذلك ... أعـرف بأني محظـوظـة كـوني من الاسرة المالكـة وكـان باستطاعتي مثل شقيقي علي قبل سنوات أن أنجو من مواقف قانونية وأخـلاقية صعبـة دون تدخل رجـال الدين . ولـو لم أكن من الاسرة الملكية لأنهوا حيـاتي رجماً بالحجارة.... والحقيقـة أن أفراد الاسرة المالكة يحافظون على فضائحهم داخل الجدران فلا يجوز لأي شخص من خارج الاسرة المالكة ان يعرف بعمليـة هروبي . ولا يستطيع أحد المطالبة بقتلي سوى كـريم ... وكنت على قناعة بأن كريماً لا يمكن ان يفعل ذلك . كنت اتصل مع سارة مرة في الشـهر تقريباً ، وخلال غيبتي الطـويلـة هـذه عن بـلادي وأسرتي كنت أشعـر بـالتعب والارهـاق والتعاسة ولكني كنت على يقين بأني سأحقق مكاسب في النهاية . وأن تصميمي وصبري سيغيران خطط كريم في الزواج من ثانية .

بعد خمسـة أشهر من هـروبي وافقت على التحدث مع كـريم على الهاتف ، وسافـرت الى لندن للتحدث من هناك ، واقتنعت بعـد المكالمة بأن كريم يتوق لمشاهدتي ومشـاهدة أولادنا . وهكذا خططت المرحلة الثانية من خطتي .

اتفقت معـه على ان نتقابل في البنـدقية في نهايـة الاسبوع التـالي ، وصعق زوجي عندما شاهد أربعة حراس شخصيين رفقتي ، وأبلغته بأني لم أعـد أثق فيه وأنـه ربما استأجر عـدداً من السفلة لاختطـافي ونقلي الى الريـاض ومحاكمتي فيها ... واحمر وجهـه وأقسم بأنه لم يفكر بذلك ... كان يشعر بخجل شديد ربما لعجزه عن السيطرة علي .

وانتهى حديثنـا بتسوية وهي أن لا أعود الى الـرياض الا اذا كتب كريم وثيقة ووقعها تتضمن تعهداً بـأنه لن يتزوج من امرأة اخرى ، واذا أخل بتعهده هذا فيتعين عليه منحـي الطلاق وحق رعاية أولادي ونصف ثروته وبالاضافة الى ذلك ان احتفظ بنقود ابني التي سحبتها من سويسرا وأن يضع كريم مبلغاً جديداً باسم ابننا عبدالله ومليون

دولارات لكل واحدة من بنتينا في بنك سويسري وأن أحتفظ بجوازات سفري وأولادي مع تصريح غير مؤرخ موقع ومختوم منه بالموافقة على سفري متى شئت .

وأخبرت كريماً أنه بعد أن يوقع الوثيقة والاوراق الاخرى وينفذ كافة الشروط سأظل في أوروبا مع الاولاد شهراً اضافياً . وحذرته من تصميمي وربما ضعفت رغبته وغريزته نحوي ، ولم أكن مهتمة بذلك . ورافقت كريم الى المطار ، كان يشعر بالتعاسة ، وكنت أشعر بالانتصار ، فلقد قامرت مقامرة كبرى وفزت فيها ، لكني في أعماقي كنت أشعر بالاسف والخجل لأني أرغمت كريماً على الاذعان لكافة شروطي ومطالبي .

بعد شهر اتصلت به وسألته عن قراره فاعترف بأني مصدر قوته واني حياته ... وأنه يريد عودة أسرته وأن تعود الامور بيننا الى ما كانت عليه . وأعربت له عن دهشتي كيف يتوقع أن تعود الامور الى ما كانت عليه بعد أن حاول نحر حياتنا الزوجية على النحو الذي حدث .. لقد كنا عائلة محظوظة وسعيدة وثرية هو الذي سعى لتحطيم سعادتنا وليس أنا .

عدت الى الرياض وكان زوجي بانتظاري ، وهجم الاولاد على والدهم بمرح وشوق غامر ، وسررت لسرور أولادي .

وجدت نفسي غريبة في بيتي ولا أشعر بالراحة فلقد تغيرت كثيراً خلال عام واحد ... كنت أبحث عن هدف حقيقي ... عن تحد ... ولذلك قررت العودة للدراسة خاصة بعد أن افتتحت عدة كليات للبنات ...ينبغي أن اكتشف الحياة بشكلها الطبيعي وأن أتخلى عن حياة الاميرات الروتينية المملة .

وكنت أحتاج الى وقت حتى أمحو من ذاكرتي ما فعله كريم ... لقد كافحت للاحتفاظ بزوجي وأولادي ... وكان كريم أهم شخص في حياتي الى أن أبلغني بعزمه على الزواج من أخرى .... وكان من شأن

ذلك وما تلاه من أحداث أن ضعفت رابطـة الحب بيننا لكنه يظل والد أطفالي وأفضل رجل في بلادي وقررت معه اعادة بناء عشنا والاهتمام بتنشئة أولادنا وصار كريم يحاول ارضائي وتعويضه عما عرضني له وطلب مني نسيـان الماضي والتفكير في الحاضر والمستقبل ... وكان محقاً في ذلك .

الامل الابيض الكبير

كنا في شهر آب ١٩٩٠ نقيم حفلة في قصرنا في جدة عندما سمعنا الاخبار الصاعقة وهي ان القوات العراقية اخترقت حدود الكويت وتتقدم بشكل حثيث نحو العاصمة.:.كان لدينا تلك الليلة زهاء عشرين ضيفا عندما أتى أبننا عبدالله وابلغنا بالاخبار التي سمعها من هيئة الاذاعة البريطانية وبعد فترة صمت ضج الحضور غير مصدقين.

كان السعوديون حتى الامراء الذين شاركوا في المفاوضات العراقية الكويتية على قناعة تامة بأن صدام حسين لن يهاجم الكويت. وقد حضر كريم جانبا من المفاوضات العراقية الكويتية التي لم تحل الخلافات في الاول من آب حيث عقدت المحادثات في جدة. وكان ولي العكهد الكويتي سعد العبدالله السالم الصباح قد عاد الى الكويت واثقا بأن الحرب لن تنشب وان بالامكان تجنبها.

واستمر عبدالله في الاستماع الى محطات الاذاعة العالمية مؤكدا لنا بأن الدبابات العراقية تتقدم نحو مدينة الكويت دون مقاومة.. وتساءلت ما إذا كانت اسرة الصباح الكبيرة ستتمكن من الهرب وبصفتي والدة فكرت بالاطفال الابرياء.

ونظرت الى كريم وسط حشد الضيوف كان مظهره هادئا لكنه يغلي غضبا في اعماقه لأن العراقيين قاموا بعمل غير متوقع، ورمقني بنظرة صارمة أفزعتني وسرعان ما تغيرت ملامح وجهه وبدا الغضب واضحا وكنت على يقين بأنه مع عددمن الامراء الموجودين عندنا سيغادرون عاجلا لحضور مؤتمر تعقده اسرة آل سعود للتشاور حول الموقف.

سبق ان سمعت كريماً غير مرة يهاجم حزب البعث الحاكم في

العـراق وان العـراقيين بطبيعتهم يميلـــون للعـدوان. ولم اكن اهتم بالسياسة هذا فضـــلا عن ان الاعلام السعودي مراقب ولا يكشف لنا الرجال شيئا عن نشاطـاتهم السياسية، وفكرت ان كريماً ربما يكون على حق فيما يتعلق برأيهمنفي العراقيين فقد سمعت ان شـابا عراقيا قتل والده لانــه بدد امـواله على عشيقـة صغيرة. بينما يحترم الابناء ابـــاءهم في السعـــوديـــة ويجلـونهم كثيرا ومــع اني ادخن كمعظم السعوديات لكني لا أجرؤعلى التدخين امام والد كريم .

ولأن كـريم عضو في أسرة ملكيــة لا تماشي روح العصر فقد كـان يهتم بسياســات الشرق الاوسط الذي سقطت فيه عدة انظمــة ملكية منــذ عام ١٩٥٢ ويخشى قيـام ثـورة في المملكة او ان تنشب حـروب يضطر فيهـا المسلم لمحاربة المسلم. وهـا هي حرب تقع على حـدودنا وتثير القلق فينا.

وبينما انطلق كريم والامراء جلسنا نحن النساء وطلبنا من عبدالله ان يحضر مذيـاعه الى غـرفتنا حتى نستمــع الى آخر الاخبــار... كان الــوضـع يتحـول من سيء الى اســوأ بالنسبــة للكـويتيين. فقــد احتل العــراقيون الكـويت خــلال بضـع ســاعات وبــدأ عشرات الالاف من الكويتيين في الهروب الى بلادنا كلاجئين، وكنا نعتقد اننا في امان لكن ثقتنا بــانفسنا اهتــزت خلال الاسبوع التــالي عندمــا اقتربت القوات العراقية من حدودنا وانتشرت الشــائعات بان العراقيين سيهاجمون المملكة ويحتلونها كما احتلوا الكويت.

وبدأ عشرات الالاف السعوديين يفرون مثل الكـويت باتجاه الغرب وتلقينا عدة مكــالمات من اقاربنا في الريــاض بان الالاف السعوديين في المناطق الشرقيــة فروا في حالــة من الذعــر الى العاصمة الـرياض.. و سرعان مــا شعر كثير من السعوديين. بــأن الرياض نفسهــا غير آمنة فتوجهوا الى جدة في الطائرات والسيارات لقد شاعت موجة من الذعر في المملكة بأسرها.

ودهشت مع شقيتي ســارة عندما سمعنــا ان النساء الكـويتيات

يقدن سياراتهن في شوارع الرياض ويتجولن في الاسواق بلا حجاب. فأين المطوعون؟ واجتاحتنا موجة من الابتهاج رغم تجهم الوضع وكنا نتساءل لماذا تتمتع شقيقاتنا الكويتيات بهذه الحرية التي لا نتمتع نحن السعوديات بربعها، وهل يكون من شأن هجرة الكويتيين الى بلادنا تغيير التقاليد البالية ودعم قضيتنا؟

وانتشرت شائعة في البلاد سرعان من اكدها كريم وهي ان الملك فهد وافق على مجيء قوات اجنبية «غير اسلامية» الى بلادنا وادركنا بأن حياتنا ستتغير.

وبدأت القوات الامريكية في الوصول وشعرنا بأن طموحاتنا على وشك التحقق. وذلك ان احدا في السعودية لم يخطر على باله في يوم من الايام ان يشاهد نساء اجنبيات في الزي العسكري حضرن من بلاد بعيدة لحماية بلاد يسيطر فيها الذكور على الاناث بشكل مطلق.. وذهل رجال الدين واخذوا يتحدثون بغضب عن الكارثة التي ستحل في بلادنا وعن لعنة الله.. كنا نشعر وكأن زلزالا عنيفا ضرب المنطقة.

ورغم سعادتي بهذه التطورات التي ستؤدي حتما الى التغيير، كانت الكثيرات من السعوديات يشعرن بالاستياء من وجود المجندات الامريكيات خشية ان يسرقن ازواجهن. وتساءلت الكثيرات كيف يجوز ان تنام المجندة مع الجنود وشككت كثيرات في اخلاق المجندات وانهن في الواقع يقمن بالترفيه عن الجنودلا اكثر. وتضاربت مشاعرها نحو المجندات الامريكيات اللواتي كن يقدن السيارات ويتجولن في الشوارع.. وكانت السلطات السعودية تبذل ما في وسعها لاخفاء حقيقة وجود الاف النساء مع القوات الامريكية بينما كان حلمنا في السعودية التخلص من الحجاب فقط والسماح لنا بالعمل.. وها هي بلادنا تستقبل مجندات سيحاربن في معارك ضد الرجال... في بلادنا تستقبل نساء لحمايتها من القوات العراقية.

واستمر تضارب المشاعر... كنا احيانا نكره هؤلاء النساء الغريبات سواء كن من الكويت او من امريكا او من اوروبا، واحيانا

اخرى نحترمهن.. وقد اعجبنا بالكويتيات اللواتي لم يمتثلن لقوانين بلادنا، ومع انهن محافظات اكثر بكثير من النساء الغربيات غير انهن لا يعانين العبودية مثلنا، فكيف استطاعت المرأة الكويتية التخلص من الحجاب؟ وكيف استطاعت الحصول على حقها في قيادة السيارة بنفسها؟

اصبحنا نشعر بالحسد، ونجتمع يوميا في هذا القصر او ذاك ونتابع الاخبار العالمية التي بدأت تتحدث عن الوضع التعيس الذي تعيشه المرأة السعودية. ولم تجرؤ في الماضي اي امرأة على التصريح بضرورة اجراء اصلاحات اجتماعية في السعودية لان اي محاولة لتغيير الامر الواقع كان يقابل بالعقاب الصارم على اساس ان بلادنا موطن الاسلام.. ولأننا كنا نخجل من وضعنا امام الكويتيات كنا نخبرهن كذبا بأننا نعتز بتراثنا وان المرأة السعودية هي الوحيدة التي حافظت على تقاليد الاسلام.

وذات يوم ارتجفت رعبا عندما دخلت سارة الى القصر وهي تصرخ.. فكرت ان العراقيين بدأوا غزو بلادنا فخفت على اولادي خاصة وان كثيرين تحدثوا عن احتمال استعمال الاسلحة الكيماوية اذا نشبت الحرب.. كان صراخ سارة ابتهاجا وليس فزعا، فقد اتصل بها أسد من الرياض وابلغها ان عشرات النساء السعوديات نظمن مظاهرة عجيبة وهي انهن يقدن السيارات بانفسهن في الشوارع تحديا للسلطات ولرجال الدين.

وعانقت شقيقتي فرحا وبدأنا الضحك بشكل هستيري وهو ما افزع ابنتي الصغيرة. فعانقتها ايضا قائلة لها: «ستعيشين يا ابنتي حياة افضل من حياتنا» ولم تفهم الصغيرة طبعا.. وفكرنا ان وجود الامريكيين سيغير اموار كثيرة في بلادنا.

ودخل علينا كريم بوجه عابس وسألنا عن سبب الصراخ وهذه البهجة المفاجئة فاخبرناه بما قاله اسد، فصمت لحظة ولم يتجاوب مع سرورنا بل انه وجه كلامه لي مباشرة: «الا يكفي يا سلطانة ان

نحضر الامـريكيين لحمايتنـا.. ان تحضر نســاء لحمايتنـا... الم تجد هؤلاء النسوة في الرياض سوى هـذا الوقت للمطالبة بحقهن في قيادة السيارات»

استغـربت موقفـه سيما وانــه كان يسخـر من هـذه التقاليـد في الماضي.. فهل اصبح يخاف من رجال الدين؟كـان كريم غاضبا لسبب لا اعرفه واجبته بأننا لا نتسول حقوقنا وفق شروط ظروف معينة...

وان ممارستنا لحق قيادة السيـارات لن يؤدي الى سقوط العرش السعودي. سكت كريم لحظة وقال: «ان مظاهرة النساء بسيار اتهن في الـريـاض ستضر قضيتهن لبضعـة عقود» وأنـه على قنـاعـة بأن السلطات القضـائية ستعاقب كافة النسوة اللواتي شاركن في مظاهرة السيارات... ثم عاد كريم الى الحديقة بعد ان بدد لحظات سرورنا.

اما ســارة فأكدت لي بـأن رجال اسرتنـا لا يتحدثون عـن حقوق النساء الا داخل منازلنا لكنهم في اعماقهم لا يختلفون عن رجال الدين لقناعتهمْ بأن تحرر السعوديات يضر بالاسرة المالكة.

لقد صدق كريم على اي حال في نبوءته، اذ ان المطوعين ثاروا ثورة عنيفة على الـ (٤٧) امرأة واللواتي قدن سياراتهن في شوارع الرياض وكلهن من الطبقـة الوسطى وتـم سحب جوازات سفـرهن وانهيت خـــدمـاتهن في المدارس او المستشفيـــات ووجهت اليهن انـــذارات صارمة.. وبينما كنت اتسوق مع شقيقتي في جـدة شاهدنا رجل دين يخطب في حشد من الناس قائلا ان اللواتي قدن سياراتهن في الرياض دعاة رذيلة وفاسقات وطالب بأنزال عقـوبات قاسية به حتى يرتدع غيرهن عن مثل هـذه الاعمال التي لا تجلب ســوى اللعنة والعــار على كافة السعوديين.

وكان كـريم في ذلك الوقت قلقـا على مصير المملكة ومصير الاسرة المالكة. ويتصرف ويتحدث بعصبية ظاهـرة وعندما ابلغته برغبتي في التعرف على النســاء اللواتي قدن سيـاراتهن رمقني بغضب وهددني

بسجني داخل المنزل وكان من الواضح انه لا يمزح لكني على اي حال استطعت بواسطة السائق الفلبيني ان اعرف ارقام هواتف النساء اللواتي شاركن في المظاهرة وحاولت الاتصال بهن دون جدوى لان أهاليهن كانوا يردون بان الرقم خطأ.

في طريقه لمغادرة البلاد زارنا شقيقي علي مع زوجاته الاربع واولاده التسعة.. كان في طريقه الى باريس حيث سيمضي بضعة اسابيع وادعى بأنه يرغب في مقاتلة العراقيين لكنه مشغول بأعماله ومسؤولياته المتعددة وهي اكثر اهمية للبلاد من خدمته العسكرية. وكنت اعرف بأنه سيقضي وقته في باريس.حتى تهدأ العاصفة ويعرف ما سيحدث.. كان جبانا يريد الهرب مثل امراء كثيرين غيره غادروا البلاد رغم حاجتها اليهم في ذلك الوقت العصيبة.

واثار علي قضية مظاهرة النساء بسياراتهن في الرياض وقال ان والد احداهن حكم عليها بالموت لانها لطخت سمعة العائلة، وكان علي مسرورا بذلك... وسألت كريماً ما إذا كان الخبر صحيحا. فأجاب بأنه لا يعرف لكنه ليس مستبعدا على اي حال ثم طلب مني نسيان المظاهرة النسائية نهائيا.

وانتشرت شائعة بأن رجلا قام فعلا بقتل ابنته التي شاركت في المظاهرة النسائية، غير ان احدا لم يؤكد الشائعة او ينفيها.

ونشبت الحرب التي كنا نخشاها وحارب رجالنا وعلمت من كريم ان بعض جنودنا حاربوا بشجاعة والحقيقة ان قواتنا لم تحارب، وصارحني كريم بعد ذلك ان جنودنا كانوا يفرون من المعركة. وعلق أسد على ذلك بأن ضعف الجيش السعودي وعدم تنظيمه أسلم لرؤوسنا ولو تم تنظيم الجيش على اسس حديثة لشكل ذلك خطرا علينا كأسرة مالكة.. المهم ان الحرب انتهت وانتهت معها آمالنا في التغيير.

كلمــة أخيــرة

ارتفع ذلك الصوت الذي ينعش كافة المسلمين وملأ الجو حولنا ، انه صوت الآذان يدعو المؤمنين للصلاة : « الله اكبر الله اكبر . . الله اكبر الله اكبر . . أشهد أن لا أله ألا الله أشهد أن لا أله ألا الله . . حي على الصلاة حي الصلاة . . الخ » .

كانت الشمس تغيب خلف الافق . والصلاة هي صلاة العشاء . ووقفت على شرفة غرفة نومي اراقب ابني وهو برفقة والده يسيران يداً بيد نحو المسجد . . وكان الرجال يحيون بعضهم بعضاً ، وعاودتني ذكريات الطفولة وتذكرت كيف كان والدي يفضل شقيقي علي علينا جميعاً . . لقد مضت زهاء ثلاثين سنة ولم يتغير شيء في هذه البلاد ، واصبحت حياتي كالدائرة .

أمس كان والدي وعلي . . واليوم كريم وابني عبداللة . . والتقاليد تنتقل من الاباء للأبناء وما زالت النساء مضطهدات ومكبلات بقيود لا تحصى فشعرت بوحدة قاتلة .

وبعـــد

بعد نهاية حرب الخليج عام ١٩٩١ كان ثمة رغبة عالمية في تحقيق السـلام في الشرق الاوسط المضطرب ، وقـدم عدد من زعماء الـدول مقترحات لحكام المنطقة للقضاء على العنف .

وبـالاضـافة الى الـرغبـة في الســلام طـالب كثيرون من المهتمين بالشرق الاوسط تغيير العادات والتقاليد القديمة التي تعود لاكثر من قرنين وليـس لها اي اساس في الديـن الاسلامي الاكثـر تسامحاً بين الاديـان ، ومن ذلك تحريـر المرأة وحمايتهـا من نزوات الـرجـال . . وبينما بدأت الدعوة الى السلام تزداد قوة فقد خفت الاصوات المطالبة بتحرير المرأة .

لقـد كشفت الحرب الخليج عمق النـزاع بين الرجـال والنسـاء في السعـوديــة . . وبينما رأت النســاء بعصيص أمـل في التغيير اعتقـد الـرجال أن اي تغيير في وضع المرأة سيشكل خطـأ على مراكـزهـم . . وهكذا تبدد الامل خاصة بعد ان شن رجـال الدين حملة صارمة ضد أي دعوة تنطوي على تغيير المألوف منـذ قرنين وربما أكثر . وازدادت المخاوف مـن المطوعين اكثر مـن السابق . . فـاضطرت سلطانـة مع غيرها من السعوديات الى التراجع والتقهقر الى خنادقهن القديمة .

والعجيب ان الاغنيـاء والاقويـاء اصبحـوا هدفـاً لـرجال الـدين والمطوعين واصبحـوا يتعرضـون للمضايقة والاعتقـال كغيرهم من السعوديين وهو امر يبهج المواطنين العاديين الذين لا يهتمون بمسألة قيادة المرأة لسيارتها او التخلص من الحجاب او السفر بدون موافقة ما يسمونه ولي الامـر حتى لو كان عمرها (٧٠) سنة . . فمتى تأتي فرصة اخرى تحمل في ثناياها وعداً بالتغيير . كالحرب الاخيرة ؟

وكنت قد تقابلت مع سلطانة لاول مرة عام ١٩٨٣ واحببنا بعضنا

منذ البداية وبعد ان روت لي قصتها التي أختصرتها للقراء زاد احترامي لها ولأمثالها اللواتي يناضلن في ظروف بالغة الصعوبة لينلن أبسط حقوقهن .

وبصفتي أمريكية عملت في السعودية منذ ١٩٧٨ فقد تعرفت على سعوديات كثيرات من الاسرة المالكة او من طبقة التجار الاثرياء او الطبقة الوسط وعرفت الكثير عن حياتهن التي لا تطاق وطموحهن في التحرر .

واطلعتني سلطانة على حقيقة وجود بركان من الغضب والثورة في اعماق كل سعودية متحجبة او غير متحجبة ومهما كانت الطبقة التي تنتمي اليها .

وفي خريف عام ١٩٨٨ طلبتني سلطانة (وهو اسم مستعار) وكلفتني بكتابة قصة حياتها فذكرها بالمخاطر التي تنطوي عليها هذه المهمة ، وتم الاتفاق على تغيير الاسماء وبعض الامور الاخرى بحيث يصعب اكتشاف الاميرة الحقيقية صاحبة القصة .

وكان آخر لقاء لي مع سلطانة في ايلول ١٩٩١ حيث شجعتني على الاسراع في كتابة القصة وانهائها حتى يعرف العالم (مأساة المرأة السعودية) وأريد ان أضيف في هذه الخاتمة ان والد سلطانة ما زال على قيد الحياة ولديه اربع زوجات وستة قصور في السعودية وخارجها ونادراً ما يزور بناته . أما علي فما زال على علاته المذكورة في القصة يعامل بناته كما كان والده يعامل سلطانة وشقيقاتها . . وفي الاونة الاخيرة ارتكب فضيحة لكن الملك فهد عفا عنه .

ولم تسمع سلطانة شيئاً عن وفاء لكن المؤكد انها انجبت عدداً كبيراً من الاولاد . . ومارسي عادت الى الفلبين ودرست التمريض ثم وجدت عملاً مناسباً في الكويت لكنها منذ الدخول العراقي الى الكويت لم تسمع عنها شيئاً وربما تكون قد تعرضت للاغتصاب على ايدي الكويتيين .

وما زالت سميرة أسيرة (غرفــة المرأة) وتقول تهاني انها سمعت منذ سنتين بــان سميرة أصيبت بالجنــون وقد حصلت سلطــانة على درجــة الماجستير في الفلسفة قبل سنتين . وفي آخــر لقاء لنــا أخبرتني انها تأكدت من فضــائح جديدة وهي ان الامــراء السعوديين (بما في ذلك كــريم ربما) يــرسلــون طائرة على نحــو اسبــوعي الى بــاريس لاحضــار عشرات الســاقطات . وان ثمــة وكالــة متخصصة بــذلك في باريس تجمع الشابات الجميــلات من مختلف انحاء العالم وترسلهن على دفعات الى السعودية .

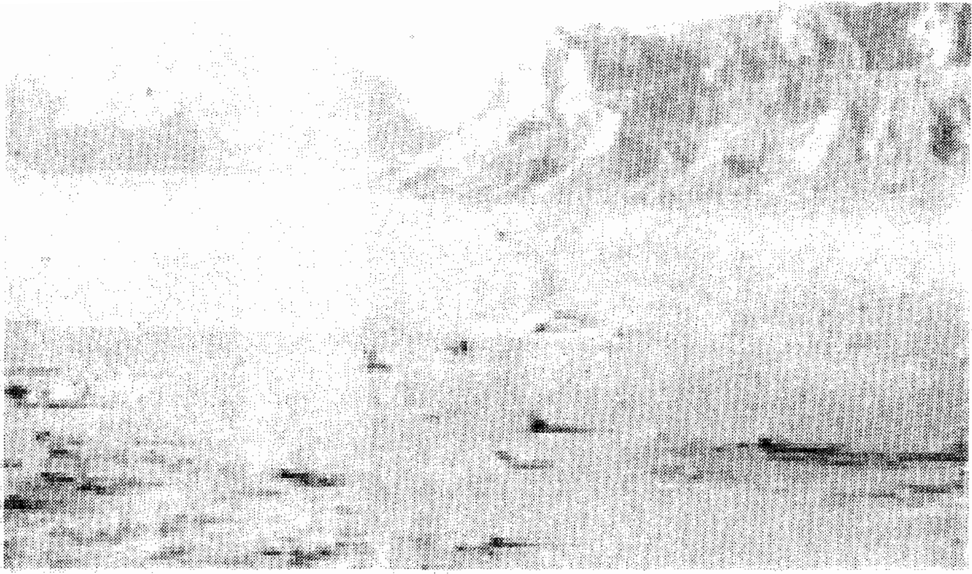
وأكثر مــا كان يحزن سلطانة هــو ان وجود القوات الامــريكية في السعودية منذ أواخر ١٩٩٠ وحتى أواسط ١٩٩١ قد فتح نافذة امل ، لكن مع رحيل القوات الامريكية ازداد المطوعون قوة ونفوذاً حتى على الملك نفسه .

الفهرس

امرأة ترتدي الخمار البدوي التقليدي السعودي.



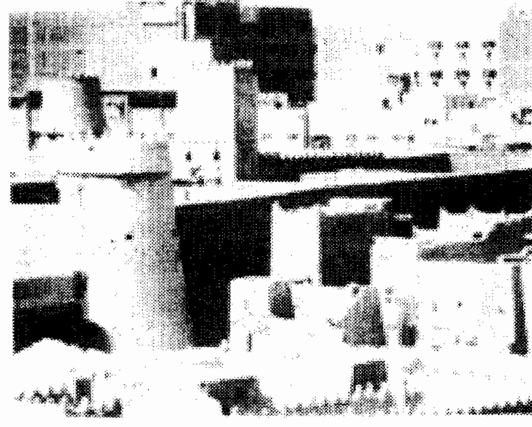
ترتدي الخمار البدوي التقليدي السعودي مع العباءة.



في صحراء قاحلة غير مثمرة، تذروها الرياح، دفنت والدة سلطانة في قبر مجهول غير معلَّم.



الجمال لا تزال، في معظم الاحيان، واسطة نقل لاسباب طارئة وقاهرة.



موقع في الرياض (قلعة مزماك) حيث دُحر اول ملك للمملكة العربية السعودية آل الرشيد في ذلك الموقع.



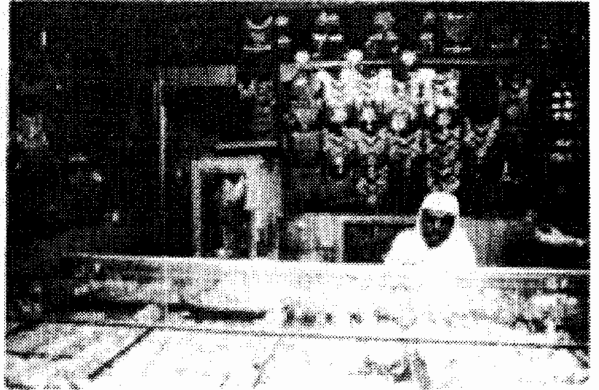
الملك فهد ملك المملكة العربية السعودية الحالي.



قصر نموذجي في المملكة العربية السعودية.



يجب على المرأة السعودية ان ترتدي الخمار حتى على الشاطىء.



متجر في سوق الذهب (مقاطعة في الرياض)



غرفة مزدانة داخل قصر سعودي (مثل فيحة) مناز ملكية كثيرة لها مثل تلك الغرفة للورثة البدو.